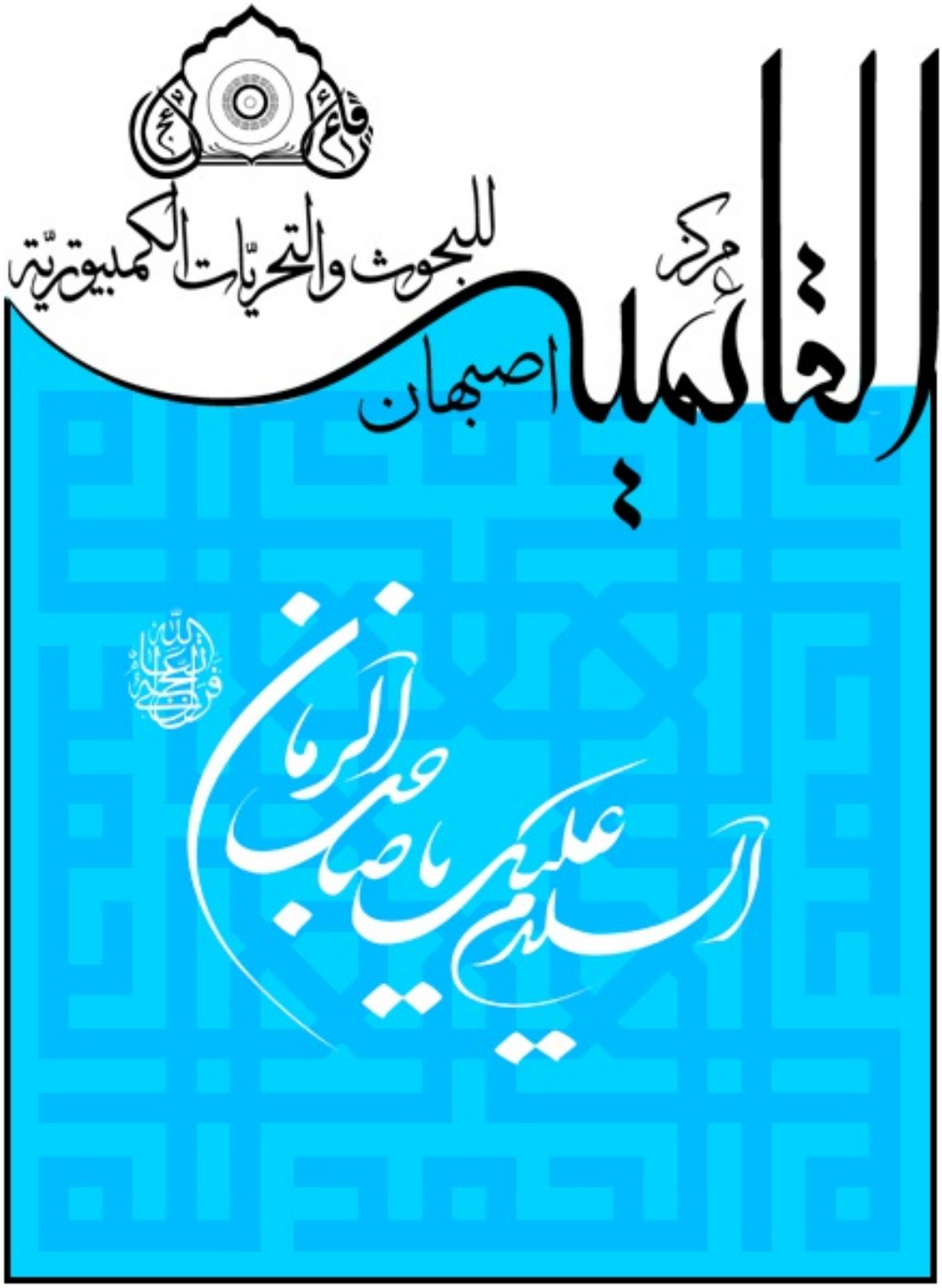

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

خطط الشام

تأليف

محمد كرد علي

٤

الناشر

مكتبة النوري

دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

خطط الشام

كاتب:

محمد كرد على

نشرت فى الطباعة:

مكتبه النورى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
خطط الشام المجلد ۴ ----- ۱۰
اشارة ----- ۱۰
التاریخ المدنی العلم و الأدب ----- ۱۰
ما یراد بالعلم و الأدب: ----- ۱۰
العلم و الأدب عند أقدم شعوب الشام: ----- ۱۳
مواطن العلم فی القطر قدیما: ----- ۱۵
ما حمل العرب من العلم إلی الشام: ----- ۱۶
جمع القرآن و نشره فی الشام: ----- ۱۷
العلم و الأدب فی القرن الأول: ----- ۱۸
عنایة خالد بن یزید بالنقل و أوائل التدوین: ----- ۱۹
علماء القرن الثانی و الأدب و النقلة و المنشئون فیه: ----- ۲۱
العلم و الأدب فی القرن الثالث: ----- ۲۲
الأدب فی القرن الرابع و نهضته علی عهد سیف الدولة و أبی العلاء المعری: ----- ۲۳
الآداب فی القرن الخامس: ----- ۲۶
العلم و الأدب فی القرن السادس: ----- ۲۷
العلم و الأدب فی القرن السابع: ----- ۲۹
الإمام ابن تیمیة و الإصلاح الدینی و الأدب و العلم فی القرن الثامن: ----- ۳۲
العلوم فی القرن التاسع: ----- ۳۵
انحطاط العلم و الأدب فی القرن العاشر: ----- ۳۶
الآداب فی القرن الحادی عشر: ----- ۳۸
العلوم و الآداب فی القرن الثانی عشر: ----- ۴۰
العلم و الأدب فی القرن الثالث عشر: ----- ۴۲

العلوم المادیة فی منتصف القرن الثالث عشر: ۴۳
العلوم و الآداب فی أواخر القرن الثالث عشر و أوائل الرابع عشر: ۴۳
المعاصرون من العلماء و الأدباء: ۴۵
تأثیرات الأجانب فی التربیة: ۴۸
الآداب فی القرن الرابع عشر: ۴۹
الجامعات و الکلیات: ۵۱
الإخصاء: ۵۲
الصحافة العربیة: ۵۳
الطباعة و الکتب: ۵۷
الفنون الجمیلة ۵۹
تعریف الفنون الجمیلة: ۵۹
الموسیقی و الغناء: ۵۹
التصویر: ۶۵
النقش: ۷۲
البناء: ۷۴
الشعر و الفصاحة: ۷۷
الرقص: ۷۹
التمثیل: ۸۰
متی ترتقی الفنون الجمیلة: ۸۱
الزراعة الشامیة ۸۲
العامر و الغامر: ۸۲
قلة العنایة بالأنهار: ۸۳
خراب الزراعة و المزارع: ۸۳
عوامل الخراب: ۸۴

آفة الهجرة على الزراعة: ۸۵
خصب الأراضی و معالجتها و ما یزرع فیها: ۸۶
تقسیم السهول و الجبال: ۸۷
من الذین أدخلوا الطرق الجدیدة: ۸۷
درس الزراعة: ۸۸
نقص کبیر: ۸۸
التحسین الأخیر: ۸۹
عنایة الأقدمین بالزراعة: ۹۰
أصناف الزروع و الأشجار: ۹۱
الأشجار غیر المثمرة: ۹۴
الأشجار المثمرة و غیرها: ۹۶
الصناعات الزراعیة القدیمة: ۹۶
معادن الشام و حمّاتها: ۹۸
الحمّات الشامیة: ۱۰۱
أقالیم الشام: ۱۰۲
أتربة الشام: ۱۰۴
حراج الشام: ۱۰۵
الری فی الشام: ۱۰۷
زروع الشام و أشجارها: ۱۰۷
الأشجار المثمرة: ۱۰۹
الحیوانات الدواجن فی الشام: ۱۱۱
الصناعات الزراعیة فی الشام: ۱۱۵
زراعة الشام من الوجهتین المالیة و الاقتصادیة: ۱۱۷
الضرائب الزراعیة: ۱۱۷

طرائق استثمار الأرض: ۱۱۸
إقراض الزراع: ۱۱۹
الخلاصة: ۱۲۰
الصناعات الشامیة ۱۲۰
مواد الصناعات: ۱۲۰
الغزل و الحیاکة و النساجة: ۱۲۱
الدباغة و صناعات الجلود: ۱۲۴
تربیة دود الحریر: ۱۲۵
النجارة: ۱۲۵
القیانة و الحدادة و النحاسة: ۱۲۸
الزجاجة: ۱۳۱
الدهان: ۱۳۱
الفخارة و القیشانی: ۱۳۲
الوراقة: ۱۳۳
المرایا: ۱۳۴
الصیاغة: ۱۳۵
صناعة الصدف و الرخام: ۱۳۶
السجاد و الحصیر: ۱۳۶
الصناعات المحدثة: ۱۳۷
تأثیر الصناعات فی الماديات و الأخلاق: ۱۳۸
التجارة الشامیة ۱۳۹
موقع الشام من التجارة و تجارة القدماء: ۱۳۹
تجارة العرب: ۱۴۳
التجارة فی القرون الوسطی: ۱۴۵

التجارة فی القرون الحدیثة: ---- ۱۴۷

التجارة و الاقتصادیات فی العهد الحدیث : ---- ۱۵۱

الورق النقدی و العوامل فی تدنی الاقتصادیات: ---- ۱۵۲

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---- ۱۵۲

خطط الشام المجلد ۴

اشارة

نام کتاب: خطط الشام

نویسنده: کرد علی، محمد

تاریخ وفات مؤلف: ۱۳۷۲ ه. ق

موضوع: جغرافیای شهرها

زبان: عربی

تعداد جلد: ۶

ناشر: مکتبه النوری

مکان چاپ: بیروت

سال چاپ: ۱۴۰۳ ه. ق

نوبت چاپ: سوم

khtt alsham

تألیف: محمد سردعلی تاریخ النشر: ۰۱/۰۱/۲۰۱۲ الناشر: مؤسسة النوری للطباعة والنشر والتوزیع

النوع: ورقی غلاف فنی، حجم: ۲۴×۱۷، عدد الصفحات: ۶۳۴ صفحة الطبعة: ۳ مجلدات: ۲

مدة التأمین: یتوفر عادة فی غضون أسبوعین

اللغة: عربی

التاریخ المدنی العلم و الأدب

ما یراد بالعلم و الأدب:

نرید بالعلم علم الدین و الدنیا، فالعالم بالحدیث عالم، و العالم بالطب عالم، و العالم بالکلام عالم، و العالم بالهندسة عالم. و الکیمیاء علم، و البیطرة علم، و التاریخ علم و الجدل علم، و شرف هذه العلوم بشرف مقاصدها، و أشرفها فی نظر الإلهیین ما هذب النفس و أعدها للحیاة الخالدة. و علوم الدنیا هی الوسیلة إلی تلک السعادة کما قال حجة الإسلام الغزالی: إن الفقیه معلم السلطان و مرشده إلی طریق سیاسة الخلق و ضبطهم، لینتظم باستقامتهم أمورهم فی الدنیا، و لعمری إنه متعلق أیضا بالدین و لکن لا بنفسه بل بواسطة الدنیا. فإن الدنیا مزرعة الآخرة و لا یتم الدین إلا بالدنیا.

کان البشر قبل ظهور الأدیان المشهورة یستخدمون علوم الدنیا للدنیا، و کانت بسائط علی حالة ابتدائیة بالطبع، و یعکفون من جهة أخری علی تماثیلهم و أربابهم و معابدهم یجوّدون صنعها، و یمجدونها و یتغنون بمدحها، فلما جاءت الأدیان المعروفة تغیر الشکل بصورة أخری، و بقیت العنایة بالعلوم تختلف باختلاف الأصقاع و الدول. أما الأدب فالذی کانت العرب تعرفه هو ما یحسن الأخلاق و یدعو إلی المکارم. و اصطلح الناس بعد الإسلام بمدة طویلة علی تسمیة العالم بالشعر أدیبا و علوم العربیة أدبا. و المراد بالإسلام کما قال

النووى من حين انتشر و شاع فى الناس و ذلك قبل الهجرة النبوية بنحو ست سنين.

للأهوية و الأهواء تأثير فى العلم، و العلوم ربيبة الأرض المعتدلة أو الباردة أكثر من الحارة و الوبيئة، لأن أهل هذه قصيرة آمالهم فى الحياة، محدودة مطالبهم، فاترة هممهم، مثلوم حدهم، متداعية صحتهم. و من صرف وكده أيضا إلى الأهواء المذهبية ضعف سلطان العلم فيه، لتوزع قواه، و انصراف رغبته عن الفانية إلى الباقية، و اشتغال ذهنه بأمور لا يتسع لغيرها فى الأغلب.

و كلما توغلت أمة فى مضمار المدنية نظرت إلى علوم الدين و علوم الدنيا نظرة واحدة، و شرّفت ما تشتد حاجتها إليه منها، و أقبلت بكليتها على المشتغلين بها. فقد رأينا جامعات اوربا فى القرون الوسطى تنشأ لغرض الدين على الأكثر، فلما عظمت مطالب البشر، و أخذت المدنية تسير سيرها، أصبحت العلوم الدينية فى جامعاتهم تقرأ كما يقرأ التاريخ و الأدب و الطبيعة، لا فضل لدينى لاهوتى على طبيعى رياضى، إلا بالأثر الناتج عن درسه و بحثه، هذا إن لم يرجحوا فى عرفهم العالم الثانى. و بينا نجد تماثيل العلماء بالمئات فى شوارع الغربيين و ساحاتهم و متاحفهم و دور العلم و الصناعات عندهم، لا نشهد من علماء الدين إلا نفرا قليلا أقيمت لهم التماثيل داخل البيع و الكنائس فقط.

كان الاقتصار على العلم الدينى فى الصدر الأول للإسلام، ثم تسربت العلوم الدنيوية بسرعة، و رأى علماء الأمة أنها نافعة لقوام الدين و الدنيا، و بذلك أقنعوا العامة و من فوق درجتهم، فأقبل الناس عليها، و كانت العناية أولا بعلوم القرآن و السنة، ثم أقبل الناس على الفقه لأن حالة الزمن اقتضت الإقبال عليه لتعدد الخصومات بين الناس و اتساع المملكة الإسلامية و ما حدث فيها من المشاكل و العضل، ثم أقبلوا على علم الكلام، لما رأوا الحاجة الماسة إليه خصوصا و قد دخلت فلسفة القدماء و صادفت لها أنصارا و عشاقا، ثم مالوا إلى المناظرة فى الفقه و بيان الأولى من مذاهب الشافعى و أبى حنيفة، ثم كثرت العلوم بين العرب فى المدن و ضعفت و ضعف سندها فى القرن العاشر للهجرة، إلى أن أخذت تتطور تطورا جديدا أواخر القرن الثالث عشر و أوائل هذا القرن على ما سيجىء.

خطط الشام، ج۴، ص: ۵

و أهم العوامل فى اضمحلال العلم فى ديار الإسلام زهد الملوك و الأمراء فيها و اشتغال الناس بالفتن و الغوائل. و مذ أخذ العلماء يتعلمون علوم الدين للجاه و المال، ضعفت علوم الدين و الدنيا معا. و أصبح السلطان للممخرقين و المعطلين و المتهوسين بمسائل الكشف و الولاية من علماء الرسم، و ليس الغرض من العلوم كما قال ابن ساعد الاكتساب بل الاطلاع على الحقائق، و تهذيب الأخلاق، على أن من تعلم علما للاحتراف لم يأت عالما و إنما يجىء شبيها بالعلماء. و لقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر، و نطقوا به لما بلغهم بناء المدارس ببغداد، فأقاموا للعلم مأتما، و قالوا كان يشتغل به أرباب الهمم العلية و الأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه و الكمال به، فيأتون علماء ينتفع بهم و بعلمهم، و إذا صار عليه أجرة تدانى إليه الأخساء و أرباب الكسل، فيكون ذلك سببا لارتفاعه، و من هنا هجرت علوم الحكمة و إن كانت شريفة لذاتها.

إن الذين يولعون بالعلم للعلم فى هذا العالم قلائل جدا، و لكنهم يكونون على الأكثر ممن نسميهم أو أكثرهم بأهل النبوغ و العبقرية، يتفانون فى مقصدهم و يأتون بالجديد يبدعون و يبرّزون على من اتخذوا العلم آلة للمظاهر و عنوانا للتصدر، و هم هم الذين يذهبون بفضل الشهرة فى الأرض، و تبقى أعمالهم شاهدة لهم بعد موتهم أحقابا و دهورا، و من هذا الفريق أنجبت الشام قديما و حديثا جماعة افتخرت بهم، و عدّوا بأعمالهم بالقياس إلى حال هذا القطر و إلى مجموع علماء الأمة كتلة صالحة أثرت تأثيرا محمودا فى العلم و المدنية، و قد عرفنا تراجم أكثر رجال العهد العربى لقربه منا، و لا طراد التدوين فى العرب فى أغلب العصور على طريقة حسنة فى الجملة، فوقفنا بها على منازعهم و أعمالهم. و غابت عنا تراجم كثير من المهندسين و النقاشين و المصورين و الموسيقيين لأن القوم على ما يظهر يحسبون هذا الصنف النافع من الناس من أهل الصناعات فقط لا من أهل العلم. كأن العلم كله على اختلاف ضروبه ليس صناعة من الصناعات. و قد اصطلح المتأخرون على أن المراد بالعلم إذا أطلق يقصد منه العلم الدينى. و من الغريب أن بعض المتأخرين ممن دوّنوا تراجم أهل عصورهم حرصوا على تراجم المجاذيب و الممخرقين و لم يذكروا مثلا تراجم أهل تلك

خطط الشام، ج۴، ص: ۶

الأيام من المقدرّين و البنائين و غيرهم ممن خلدوا بأعمالهم مدنية أعصارهم.

لم يتسلسل العلم قرونا طويلة فى الشام تبعا لتغير الدول و انصراف الهمم «و العلم مذ كان محتاج إلى العلم» ذلك لأن الشام كان فى جميع أدواره ممرا للفاتحين يطمع فيه جيرانه، بل البعيدون عنه لتوسطه بين برّ آسيا و إفريقية و أوربا. و القدر الذى عرفناه من رسوخ العلم فى ديارنا كاف و لا شك فى إنشاء مدنية صالحة خصوصا إذا دعمها ما كان ينهال عليها من علوم أهل العراق و الجزيرة و مصر و الأندلس و فارس و غيرها. و كأن الشرق منى بالتساهل و الإهمال، و عدم التسلسل فى الفكر و الاطراد فى العمل، فكان مظهر الحياة الفردية فى الأعم الأغلب من حالاته، و على العكس فى الغرب فإنه كان و لا يزال مثال الحياة الاجتماعية و التعصب للفكر و الاستماتة فيه، و التسلسل فى الأفكار.

و لقد رأينا الغرب فى قرونه الوسطى قبيل عهد النهضة يشتد فى إرهاق الأفكار الحرة، و ديوان التفتيش الدينى يحرق الأنفس البشرية بالعشرات للقضاء على الفلسفة و التجدد، بيد أن الغرب كان إذا هلك فيه رجل بطريق الإلحاد و الخروج عن مألوف القوم، يقوم غيره من أخلافه فى الحال يتناول ما بدأ به سلفه، ناسيا أن الهلاك يحل به إذا اشتهر أمره. و رأينا فى هذا الشرق القريب أناسا ينزعون إلى التجديد و الإبداع كان نصيبهم من الحياة ضرب أعناقهم، أو إدخال الرعب على قلوبهم حتى قضوا أعمارهم فى خمول و تقية، و كان نصيب الأمة العربية أن يقل فيها جدا ظهور من يخلفهم فى دعوتهم، و قد يأتى العصر و العصران و لا يظهر فيهما نابغة يذكر و عالم مبدع، و جاء زمن و هو ليس ببعيد، و قد أصبح الناس ينكرون البديهيات فى العلم، و يحرمون ما حلل اللّه من ضروبه النافعة، فغارت ينابيعه من أرضنا و فاضت فى الغرب و زادت مع الأيام فيضانا، و قويت تقية العلماء و دخل فى غمارهم الجاهلون فسقطت هيبة العلم. و كان من نتائج عمل الغربيين تلك الحضارة الحديثة المدهشة و من تفاشلنا و تجاهلنا هذا الانحطاط المحسوس و إضاعة مدنية الأجداد.

العلم ابن الحرية، و الأدب ربيب التسامح، و قد شاهدنا أجدادنا فى هذه الديار المثال الصالح فى هذا الباب على اختلاف العصور و المذاهب، و كان

خطط الشام، ج۴، ص: ۷

العرب فى أدوارهم المختلفة يمثلون أجمل صورة من هذا القبيل. فإن كانت أنطاكية و بيروت قبل الإسلام عاصمتى الحكمة و الأدب و الشرائع، فقد امتازت بعدهما حلب و المعرة و طرابلس و دمشق و حمص بهذه الخصائص.

و العلم بضاعة ثمينة لا تروج الرواج المطلوب إلا فى ظل السلام و صلاح السلطان.

هذا شأن العلم، أما الأدب و هو منظوم الكلام و منثوره و الخطب و الرسائل فيتصرف أيضا على هذا المثال، و به أدركنا بعض الحالة الاجتماعية و الروحية التى كانت عليها تلك الأعصر، و رأينا فيه تبدلا محسوسا فى القرون التالية، فكانت الآداب فى الشام فى القرن الأول غيرها فى القرن الثانى و الثالث، و قد استحكمت أسباب الحضارة و عم الترف، و نقلت علوم الأوائل و راجت سوق الشعر فى الرابع و الخامس فى الشمال، و ما لبثت فى أواخر هذا القرن أن عراها الكساد قليلا، ثم هبت إلى الحياة بعض الشىء فى السادس و السابع تبعا للحالة السياسية التى كان عليها القطر زمن الحروب الصليبية، و لم ينشأ فى الشام خلال القرنين الثامن و التاسع شاعر يجوز عدّه فى مصاف المفلقين على مثال شعراء القرن الثالث و الرابع، أما فى القرون الأربعة التالية فضعفت حالة الشعر أكثر من ذلك بما لا يقدر، و أصبح نظما لا شعرا فقد من أكثر ما نقل من الشعر الروح و بقى جسما له من الشعر قوافيه و أوزانه، يطرس فيه المتأخر على مثال المتقدم و تتأثر أنفاس الابن بأنفاس أبيه و جده.

إن حكمنا على المنظوم يسوغ أن نورده فى المنثور، كان الإنشاء فى القرنين الأولين للإسلام يسير مع الطبع غالبا و نبغ فى الشام أفراد كعبد الحميد بن يحيى الذى وضع أساس الكتابة المرسلة، و رأينا عمر بن عبد العزيز يكتب الكتاب فى الإدارة أو السياسة أو القضاء

أو فى أمر مهم من أمور الدولة فى سطرين أو ثلاثة ليس فيه شىء من الكلفة بتة بل هو آية الفصاحة و البلاغة، و هكذا معظم آل بيته من بنى أمية و بنى مروان، و من نشأ فى دولتهم أمثال الحجاج بن يوسف الثقفى و زياد بن أبيه و عتبة بن أبى سفيان و شهدنا التكلف باديا فى كتابة القرون التالية التى انتقلت فيها صناعة الكتابة إلى بغداد أو القاهرة و ضعف أمرها فى الشام. و كان الشام يتبع العراق تارة و مصر تارة أخرى، حتى إذا كان القرن السادس، و نبغ فى الدولة الصلاحية القاضى الفاضل

خطط الشام، ج۴، ص: ۸

بطريقته المستملحة فى الكتابة المسجعة على الأغلب، و حذا حذوه العماد الكاتب ثم ضياء الدين ابن الأثير صاحب المثل السائر و غيرهما من كتاب الدولة أخذت تضيق حلقة الكتابة و هى احتذاء مثال المجودين من القدماء لحصرها فى قيود الجناس و البديع و الأسجاع فجمدت القرائح و قل المبرزون فيها المجيدون لصناعتها، فما بالك بالإنشاء الذى هو ابتكار المعانى و الإبداع فى القوالب.

و إذا استطعنا أن نعد عشرة كتاب فى القرن الواحد لا نقوى على عدّ منشئ واحد فيه. و حكمنا هذا مبنىّ على ما قرأناه فيما خلفه السلف فى هذه الديار من الكتب و الآثار المبعثرة فى بطون الدفاتر، و ربما كان فى المفقود الذى لم يصلنا من هذا النوع ما يؤهلنا لو ظفرنا به، أن نصدر حكما أصح من هذا على فنون الإنشاء و الكتابة و الشعر و النظم، و الإنشاء من الكتابة كالشعر من النظم.

و لو لم ينبغ فى الكتابة من المؤلفين أمثال القفطى و ياقوت و ابن أبى أصيبعة و ابن العديم ثم الصفدى و ابن فضل اللّه و المقريزى و الشهاب الحلبى و أمثالهم فى القرنين السابع و الثامن لقلنا إن الانحطاط فى الكتابة بدأ فى الشام منذ القرن السادس، بيد أنها أصبحت فى الحقيقة سجعا كسجع الكهان بظهور ابن عربشاه الدمشقى و ابن حجة الحموى و أمثالهما فى القرن التاسع، أما فى القرن العاشر و ما بعده فإن الكتابة كالشعر كانت إلى التكلف و السجع غالبا، و من أفلت من المؤلفين من قيود التكلف، و نجا من الترصيع و التسجيع، جاء كلامه مقبولا فى الجملة و قليل ما هم.

بقيت الكتابة و الشعر ترسفان فى قيودهما القديمة إلى أوائل القرن الرابع عشر أيام نشأ للأمة فى مصر بضعة شعراء و منشئين أدخلوا الآداب فى طور جديد و نزعوا عنها ثيابها البالية، و ألبسوها حلة قشيبة، فقام من المنشئين أمثال محمد عبده و إبرإهيم المويلحى ثم المنفلوطى و طه حسين و العقاد و أضرابهم.

و من الشعراء محمود سامى و إسماعيل صبرى ثم حافظ إبراهيم و أحمد شوقى و تلك الحلبة، و انتشرت كتاباتهم و قصائدهم فى العالم العربى و منها اقتبس شعراء الشام و كتابه و بطريقتهم اقتدوا و غيروا أسلوبهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون. و ما أسلوبهم إلا الجمع بين متانة القدماء ورقة المحدثين،

خطط الشام، ج۴، ص: ۹

و أصبح لهذا العصر طراز خاص عرف به لم يكن له منذ عرف تاريخ الأدب العربى أى منذ زهاء خمسة عشر قرنا. و كان للصحف و المجلات و لانتشار الآداب الانكليزية و الفرنسية و التركية و غيرها تأثير كبير فى هذا الانقلاب الأدبى فى ديارنا، و المبرزون فيه ما زالوا قلائل جدا، و يرجى أن لا يمضى عقدان أو ثلاثة من السنين حتى تكون الشام أخت مصر فى هذا الشأن مع مراعاة النسبة بين حالة القطرين السياسية، و النظر إلى وفرة السكان و الغنى، و توفر أسباب التعليم العربى فى القطر المصرى.

العلم و الأدب عند أقدم شعوب الشام:

صمت تاريخ العلم فى هذه الديار عن ذكر الرجال الذين اشتهروا مثلا على عهد الحثيين و من كان قبلهم من القبائل التى نزلت الشام، و خلفت فيها آثارا فى العمران لا تقوم بغير العلم، و لم ينقل إلا أسماء قليلة اشتغل أربابها بالعلم الدينى و الدنيوى على عهد بعض الدول الخالفة، و لا- سيما الكلدان و العبران و الرومان و اليونان، و لو لا بعض عاديات أثرت عن الأمم التى تأصل حكمها فى بعض أرجاء القطر، و أخبار نقلتها التواريخ الصحيحة لقلنا إن أكثرهم كانوا أمما بدوية على الفطرة. و أهم ما أثر عن الفينيقيين مما ساعد

العلم بالنسبة لعصورهم اختراعهم حروف الكتابة، بل تحسين أصولها و جعلها مطابقة للأصوات، و نقلهم لها إلى الأمم التى أبحروا و اتجروا معها، و عنهم أخذتها أمم الحضارة الحديثة النازلة على شواطىء البحر المتوسط و ما إليها. و هذا الاختراع أهم ما عرف فى القديم كما كانت الطباعة فى القرون الحديثة أهم اختراعاتها فى نظر العلم. قال بورتر: لا يستحق الذكر من علوم الفينيقيين سوى علم الكتابة بحروف هجائية، و ليس هم أول من استعملوا الكتابة لأنا علمنا من الآثار أنها كانت عند المصريين و الكلدانيين قبل عهدهم، غير أن كتابتهم لم تكن بحروف وفق الأصوات البشرية الأصلية كالحروف الهجائية التى استنبطها الفينيقيون و اعتبروا بها كل الاعتبار لأنهم أتقنوا الكتابة و نشروها بين أكثر الأمم المتمدنة لاتساع تجارتهم، فإن الحروف الهجائية فى لغات أوربا و غربى آسيا و شمالى إفريقية مشتقة من حروفهم.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۰

و أخبار العلم قبل الإسلام فى الشام ضئيلة و منها يستدل بعض الاستدلال على مكانة العقل فيه و سلامة أذواق بنيه. و كان النور يسطع بين أهل هذا القطر على حالة متقطعة لا- مطردة، و يخرج العلماء و الفلاسفة فرادى، انتقلت إلينا أسماء بعضهم ممن كانوا يعملون برأسهم أو يعملون مجتمعين مع أقرانهم فى ظل الحكومات مثل يوسيفوس المؤرخ اليهودى فى سنة ۱۰۰ م و له عدة تواريخ و قد صار واليا على الجليل، و كتب بالسريانية ثم ترجمت كتاباته باليونانية، و منهم يوستوس الطبرانى اليهودى المؤرخ و فيلون اليهودى الجبلى و فيلودومر الابيكورى من جدر و تيودور الخطيب من عسقلان و أقليدس المهندس النجار الفيلسوف الرياضى الذى نبغ فى صور، كما نبغ فيها فرفوريوس الفيلسوف، و كان بعد زمن جالينوس، و نبغ فى العلم بولودر المهندس الدمشقى الذى أقام عمود تراجان فى رومية و بنى جسرا على نهر الطونة (الدانوب) و جاء فى رفنية ارسطيفس الرفنى و فلسفته هى الفلسفة الأولى قبل أن تتحقق الفلسفة، و ثاوذوسيوس الفلكى كان فى القرن الأول قبل المسيح فى مدينة طرابلس، و ممن نشأ فى اللاذقية نيقولاوس صاحب جوامع الفلسفة و توفلس صاحب الحجج فى قدم العالم.

و اشتهر فى هذه القرون الأولى هرمبوس البيروتى تلميذ فيلون المؤرخ الفينيقى فى فنون الأدب، و طوروس البيروتى فى الحكمة، و لوبركوس البيروتى فى اللغويات و الفلسفيات، و مناسياس البيروتى فى الخطابة، و اشتهر فى الآداب مرقس كالريوس پروبس البيروتى، و فى الجغرافيا مارينوس الصورى، و كان معاصرا لبطليموس القلوذى فى القرن الثانى للمسيح. و كانت أنطاكية على عهد خلفاء الإسكندر اوسلوقس نيقاتور و من جاء بعده مباءة أدب و حكمة، و نبغ فيها من الشعراء و رجال الدين و الأدب و الخطابة على عهد انتشار النصرانية رجال عظام مثل القديس يوحنا فم الذهب اليونانى، و القديس لوقا، و الشاعر ارستياس. و كما كانت أنطاكية دار حكمة و علم، كانت بيروت تدعى مرضعة الحكمة على عهد الرومان، و كانت فيها مدرسة الفقه التى أسسها على الغالب بعض أباطرة الرومان من الشاميين- و قد نشأ من حمص و بصرى أباطرة لبسوا تاج المملكة الرومانية و حكموها- و كانت اللغة اللاتينية لسان

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۱

العلم فى تلك المدرسة، و يدرس فيها الفقه و الآداب و اللغة يقصدها الطلاب من جميع أنحاء المملكة حتى من روم القسطنطينية و من أبناء العرب، و قد تخرج بأساتذتها أناس تأفقت شهرتهم فى الأدب و الشريعة، و كان قضاة الرومان من خريجيها مدة أربعة قرون، و كان اثنان من تلامذتها من جملة أعضاء المجمع الذى ألفه الامبراطور يوستنيانوس لتدوين الفقه و قيل ثلاثة و هم اودكسيوس و اناطوليوس و دوروتاوس، و من أساتذتها اميل بابنيان من بيروت و كان من أشهر فقهاء الرومان، عد من جملة الفقهاء الخمسة الذين تنزل أقوالهم منزلة شريعة، و إذا تعارضت أقوالهم فالعمل بقوله، و منهم اولبيان و هو من المشهورين من فقهاء الرومانيين ذهب بعضهم إلى أن مولده فى بيروت و غيرهم إلى أنه فى صور، و منهم يوليوس بولس الحمصى و هو مشهور فى الفقهاء الرومان، و منهم مكسيموس الصورى و هو فيلسوف أفلاطونى، و منهم لوسيان السميساطى كان نقاشا فقيها فيلسوفا بليغا، و منهم اسباسيوس الجبيلى الخطيب المؤرخ، و لنجينوس صاحب زينب ملكة تدمر الذى جلبته كما جلبت بولس دى ساموزات أسقف أنطاكية لينشر العلم فى

أرجاء مملكتها.

و ممن كان فى تدمر و فى أرجاء الشام على ذاك العهد كيكلراتيس الصورى و عالم المؤرخين پوسانياس الدمشقى و نيكوماخوس المؤرخ. و ممن أفضلت عليه زينب صاحبة تدمر و كانت تعرف التدمرية و المصرية و اليونانية و اللاتينية و العربية على الأرجح و أسماء أولادها عربية- كاسيوس و يونيسيوس و أوريجانس فيلسوف قيسارية. و من علماء بيروت الأقدمين هرمبوس له تآليف عديدة و سيلير الفيلسوف و مناسيا ألف كتابا فى البيان و الفيلسوف الأفلاطونى طورس و الطبيب اسطرابون و ساويرس بطريرك اليعاقبة و هذا كان فى القرن الخامس للميلاد. و كثر فى القرن الثالث للميلاد الكتاب و أرباب القرائح و أهل العلم و الحصافة و الحكمة، و ممن نشأ من الأدباء و الفلاسفة لوسين و جامبلتوس و بلوتين.

قال سنيوبوس: حفظت فى مدارس الروم فى دمشق و الإسكندرية علوم الروم من فلك و جغرافيا و رياضيات و طب فجمع علماء الامبراطورية البيزنطية رومهم و عربهم و فرسهم هذه العلوم و أكملوها و نشروها.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۲

مواطن العلم فى القطر قديما:

كان العلم يدرس فى تلك الأحقاب فى أربع مدارس و هى القسطنطينية و الإسكندرية و رومية و بيروت، و قد أنشأ الرومان مدرسة فى قيسارية، و أخرى فى آثينة، و كان لصيدا على ذلك العهد مدرسة حكمة ذات شأن، و لكن دون مكانة مدرسة جارتها بيروت. و قد ألغى يوستنيانوس مدارس قيسارية و آثينة و الإسكندرية، و أبقى مدارس رومية و القسطنطينية و بيروت و لقب بيروت بأم العلوم و ظئر الشرائع. و أعفى ديوقليسيانوس قيصر الفقراء المتخرجين فى مدرسة بيروت من الرسوم تنشيطا لهم. و قد خربت مدرسة بيروت قبل الإسلام بالزلازل التى تواترت على الثغر فى القرن السادس للميلاد ثم حريق سنة ۵۶۰ م الذى التهم بيروت و مساكنها و معاهدها.

و كان فى غزة مدرسة قديمة تفاخر بمشاهير علماء البيان فيها و كان فصحاؤها على العهد اليونانى المرجع الأول فى الفصاحة و البلاغة، و كان فى قيسارية فى القرن الثالث للمسيح مدرسة علمية يعلم فيها أوريجين أحد رجال الكنيسة و تخرج منها الأسقف أوزيب أبو التاريخ الكنسى و قيل: إنه كان فى أريحا مدرسة أسسها ايليا.

قال استرابون الجغرافى اليونانى من أهل القرن الأول قبل الميلاد: لم يبق فى صور و صيدا فينيقيون يضربون فى الآفاق للتجارة، بل كان فيهما كثير من أصحاب علم الهيئة و العلوم الرياضية و الخطباء و الفلاسفة، و مدارس تقتبس فيها كل العلوم البشرية، و قد أنشأت صيدا فى أيامنا كثيرا من الفلاسفة منهم بواتيوس تلميذنا و ديودوت أبوه، و نشأ فى صور انتيباتر و قبله أبولون، و كان فى أيامنا فيلسوف اسمه بوسيدونيوس كان شيشرون يسمع خطبه.

و كانت اللغة اللاتينية ثم اللغة اليونانية لغة العلم فى هذه الأحقاب، و لم يكن السريان السكان الأصليون دون الرومانيين و اليونانيين فى تخريج الرجال، و لا سيما فى عهد النصرانية. فقد هبت فى المئة الرابعة للميلاد اللغة الآرامية السريانية بحلب و جوارها من رقدتها، فسار فى طليعة أهلها كيرتونا الشاعر الكبير، نشأ فى حلب أو فى صقعها و درس الآداب السريانية فى مدرسة الرّها،

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۳

و هى إحدى المدارس العالية فى العالم السريانى، و نشأ منهم سمعان العمودى و بالاى و القديس إسحاق الأنطاكى، و من فحول شعراء السريان، اخسنايا المنبجى أحد غلاة المنوفسية (الطبيعة الواحدة) و يوحنا بن افتون القنسرينى شيد ديرا على ساحل الفرات عرف بدير قنسرين، و كان جامعة للآداب و المعارف الآرامية عصرا طويلا مات سنة ۵۳۸ و توما الحرقلى نشأ فى دير ترعيل قرب حلب و تلقى العلم فى قنسرين و قد ترجم الأناجيل و غيرها من الأسفار المقدسة من اليونانية إلى السريانية.

و من المدارس التى أنشأها السريان فى غير أرض الشام، و لكنها خرّجت للشاميين رجالا أيضا، و سرى من علومها على هذا القطر

نسمات مباركات، مدرسة حران، و قد أخذت الشام و لا سيما شماليها منذ القرن الخامس تغص بالمدارس و الأديار حيث تدرس الآداب السريانية، و يتنافسون مع المدارس العالية الأخرى فى ديار السريان، و كانت حران بمثابة آثينة العالم الآرامى، كما انبعثت من مدرسة نصيبين فى ديار مضر فى القرن الرابع شعلة الآداب الكلدانية الآرامية. و فى تاريخ كلدو و أثور أن مدرسة نصيبين كانت أول مدرسة فى الشرق، أزهرت فى القرن الخامس و السادس و السابع و بلغت عزها و مجدها، و اشتهرت مدرسة نصيبين أكثر من مدرسة اورهاى اشتهار مدرسة المدائن و غيرها، و كان صيتها فى فارس و الروم و إيطاليا و افريقية، و هى أول كلية لاهوتية بل أول جامعة درّس فيها علم الإلهيات، و ظهر منها علماء كفاة كتبوا فى الفنون و لا- سيما فى الإلهيات. و اشتهر اليعاقبة كالنساطرة فى العلم و التأليف. و النسطوريون أكثر عددا، و اليعاقبة أكثر مادة. و كان يرشح من علوم هؤلاء الأشوريين على الشام شىء كثير للاشتراك فى اللغة و الدين إذ ذاك.

هذا بعض ما انتهى إلينا من أخبار العلم و نوابغه فى الشام من الفينيقيين و السريانيين و الرومانيين و البيزنطيين و ما زالت بعض آثارهم و أخبارهم شاهدة بفضلهم، و أنهم ليسوا دون من خلفهم فى أمور كثيرة، مما اهتدى إليه العقل البشرى، فإن حرمنا كتبهم لأن الكتابة كانت على حالة ابتدائية فلم نحرم كتابات لهم مزبورة على بعض الأحجار، دونوا فيها أعمالهم

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۴

الحربية و مآثرهم العلمية، لا جرم أن من ينشىء هذه المصانع و ينزل فيها لا بد أن يكون على جانب من الغنى، و هذا لا يزكو إلا بالعلم المختلف الضروب و فى ظل حضارة بديعة.

ما حمل العرب من العلم إلى الشام:

تاريخ العلم فى العرب من أغرب ما سمع فى تاريخ البشر، كانوا أول ظهورهم نصف متمدنين يكثر فيهم الأميون و يقل من يكتب فيهم حتى فى أهل الطبقة الأولى، و يعد فيهم من الممتازين من يحسن الكتابة، خرجوا فجأة من ظلمات الجهل إلى أنوار العلم، و من ضيق البداوة إلى متسع المدنية. و لما جاء الإسلام لم يكونوا مولعين بغير الشعر و الخطب، لا يعرفون غير الفصاحة و البلاغة، و هما فى نظرهم جماع كل العلوم، ينقلون أنسابهم و أخبارهم فى الصدور، و علومهم فى الطب و النجوم عبارة عن تجارب شخصية أو تقليدية، و لم يكن التدوين يعهد عندهم، و كانت حدثت هذه الكتابة بالخط العربى قبل الإسلام بقليل نقلها إلى الحجاز حرب بن أمية، و كان قدم الحيرة فعاد إلى مكة بهذه الكتابة. أخذت الكتابة من واضعها مرامر بن مرة. و أول من علم بمكة الكتابة عبد اللّه بن سعيد بن العاص بن أمية أمره الرسول صلى اللّه عليه و سلم أن يعلم الكتاب بالمدينة، و كان ممن أسر ببدر و لا مال له، فقبل منه أن يعلم عشرة من غلمان الأنصار الكتابة و يخلى سبيله، فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت.

و لما فتحت الشام و كانت أشبه بنصف عربية بمن حكمها من الغسانيين فى الجنوب و الوسط و التنوخيين فى الشمال من عمال الروم و من كان ينزلها من القبائل و البطون العربية فى أرجاء تدمر و الفرات و غزة و سينا، كان الشعر مما يفاخرون به، و إذا نشأ فيهم شاعر رفعوا من شأنه و اعتمدوا على قريحته فى الشدائد. و كان جبلة بن الأيهم من ملوك الغسانيين شاعرا مجيدا يعجب بالشعر و يجيز عليه و هو ممدوح حسان بن ثابت و من أهل بيته فصحاء لا يستهان بهم.

جاء الشام فى الجاهلية كثير من شعراء جزيرة العرب و كأنهم كانوا ينزلون على أهل جيلهم و قبيلهم، و منهم امرؤ القيس و قد ذكر فى شعره بعض أرجاء

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۵

الشام. و كذلك حسان بن ثابت ذكر أرض الغساسنة و منازلهم. و أقام المتلمس المتوفى سنة ۵۸۰ م فى حوران عند الغساسنة إلى وفاته.

جمع القرآن و نشره فی الشام:

جمع القرآن علی عهد رسول اللّه (علیه الصلاة و السلام) علی ما روی ابن سعد أبیّ بن کعب و معاذ بن جبل و أبو الدرداء و زید بن ثابت و سعد بن عبید و أبو زید ثابت. و کان مجمّع بن جاریة قد جمع القرآن إلّا سورتین أو ثلاثا. و کان ابن مسعود قد أخذ بضعا و تسعین سورة و تعلم بقیة القرآن من مجمّع. قال و کان بقی علی مجمع بن جاریة سورة أو سورتان حین قبض النبی و فی روایة أن من جمّاع القرآن عدا من ذکروا، علی بن أبی طالب و عبید بن معاویة.

و قال محمد بن کعب القرظی: جمع القرآن فی زمن النبی صلی اللّه و سلم خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل و عبادة بن الصامت و أبیّ بن کعب و ابو أیوب و أبو الدرداء فلما کان زمن عمر بن الخطاب کتب إلیه یزید بن أبی سفیان: إن أهل الشام قد کثروا و ربلوا و ملأوا المدائن، و احتاجوا إلی من یعلمهم القرآن و یفقههم، فأعنّی یا أمیر المؤمنین برجال یعلمونهم. فدعا عمر أولئک الخمسة فقال لهم: إن إخوانکم من أهل الشام قد استعانونی بمن یعلمهم القرآن و یفقههم فی الدین، فأعینونی رحمکم اللّه بثلاثة منکم، إن أجبتم فاستهموا، و إن انتدب ثلاثة منکم فلیخرجوا، فقالوا: ما کنا لنتساهم. هذا شیخ کبیر لأبی أیوب، و أما هذا فسقیم لأبیّ بن کعب. فخرج معاذ و عبادة و أبو الدرداء.

فقال عمر: ابدأوا بحمص فإنکم ستجدون الناس علی وجوه مختلفة منهم من یلقن، فإذا رأیتم ذلک فوجّهوا إلیه طائفة من الناس، فإذا رضیتم منهم فلیقم بها واحد، و لیخرج واحد إلی دمشق و الآخر إلی فلسطین. و قدموا حمص فکانوا بها حتی إذا رضوا من الناس أقام بها عبادة، و خرج أبو الدرداء إلی دمشق، و معاذ إلی فلسطین. و أما معاذ فمات عام طاعون عمواس، و أما عبادة فصار بعد إلی فلسطین فمات بها، و أما أبو الدرداء فلم یزل بدمشق حتی مات.

و هذه أول بعثة علمیة حجازیة أتت الشام لتعلم أهلها و تثقفهم. و یرجع الفضل الأول فی اقتراح إنفاذها لأحد أبناء أبی سفیان النجباء کما کان أبو سفیان

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۶

و أبو حرب نقلا الخط العربی إلی الحجاز، و الشام مدینة لأمیة فی أمور کثیرة لاشتراکها فی خدمة الحضارة اشتراکا عملیا.

قال زید بن ثابت: أرسلت إلی أبی بکر فأتیته فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بکر: إن عمر أتانی فقال لی إن القتل قد استحرّ بالقراء یوم الیمامة و إنی أخشی أن یستحر القتل فی القراء فی المواطن کلها فیذهب کثیر من القرآن، فأری أن یجمع القرآن بحال فقلت لعمر: کیف أفعل شیئا لم یفعله رسول اللّه؟ فقال عمر: هو و اللّه خیر فلم یزل عمر یراجعنی فی ذلک حتی شرح اللّه له صدری و رأیت ذلک الذی رآه عمر. قال زید بن ثابت: قال أبو بکر: إنک رجل شاب عاقل لا نتهمک. قد کنت تکتب الوحی لرسول اللّه فتتبع القرآن و اجمعه، قال زید: فو اللّه لنقل جبل من الجبال ما کان أثقل علیّ من الذی أمرنی به من جمع القرآن، أجمع من الرقاع و اللخاف و العسب و صدور الرجال حتی وجدت آخر سورة التوبة مع أبی خزیمة الأنصاری لم أجدها مع أحد غیره. فکانت الصحف عند أبی بکر حیاته حتی توفاه اللّه ثم عند عمر حتی توفاه اللّه، ثم عند حفصة ابنة عمر- رواه صاحب الفهرست.

و أمر عثمان بن عفان رضی اللّه عنه سنة ثلاثین بنسخ المصحف الذی کتب فی زمن سلفه أبی بکر و تفریقه فی الأمصار، و کان بلغ عثمان ما وقع فی أمر القرآن من أهل العراق فإنهم قالوا: قرآننا أصح من قرآن أهل الشام، لأنا قرأنا علی أبی موسی الأشعری، و أهل الشام یقولون: قرآننا أصح لأنا قرأنا علی المقداد بن الأسود، و کذلک غیرهم من الأمصار، فأجمع رأیه و رأی الصحابة علی أن یحمل الناس علی المصحف الذی کتب فی خلافة أبی بکر رضی اللّه عنه، و کان مودعا عند حفصة زوج النبی، و یحرق ما سواه من المصاحف التی بأیدی الناس، ففعل ذلک و نسخ من ذلک المصحف مصاحف و حمل کلا منها إلی مصر من الأمصار. و کان الذی تولی نسخ المصاحف العثمانیة بأمر عثمان زید بن ثابت و عبد اللّه بن الزبیر و سعید بن العاص و عبد

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۷

الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومی. و قال عثمان: إن اختلفتم فی کلمة فاکتبوها بلسان قریش فإنما نزل القرآن بلسانهم.

فتح العرب الشام و لم یحملوا إلیه غیر دین یبعد عن الشرک و عبادة الأصنام، و غیر بلاغة الشعر و الخطب المغروسة فی طباعهم، و فطر سلیمة جبلت علیها نفوسهم، فاقتبسوا فی الحال مدنیة من نزلوا علیهم و تمثلوها و هضموها فی أقصر مدة، و أتوا بعدها بأمور جدیدة، علی ما قاموا بمثل ذلک فی بغداد و مصر و فارس و الأندلس و غیرها. و لقد أظهروا و هم فی أوج عزهم من التسامح مع السکان ما دهش له المخالفون و استغربه الموافقون، و لا غرو إذا فتحوا صدورهم لتعلم العلوم بعد أن ثبت أن الرسول علیه السلام أمر زید ابن ثابت أن یتعلم کتاب الیهود أی یتعلم لغة غیر لغة العرب.

العلم و الأدب فی القرن الأول:

من شعراء الأمویین جریر و الفرزدق و کانت للأخطل الشاعر صحبة بیزید ابن معاویة مدحه و هجا الأنصار، و ما فیهم بیت إلا و یقول الشعر و لم یمسه أحد بسوء، و کان خلفاء الشام یقربونه علی حین کان أهل نحلته یتبرمون بسلاطة لسانه، حتی إن الأسقف حبسه مرة فی الکنیسة بدمشق لشتمه أعراض الناس، و استرساله فی هجوهم، هذا و الملوک تهابه، و الخلفاء تکرمه، و ذکره فی الناس عظیم. و منهم مسکین الدارمی و الراعی و الراجز العجلی و الأحوص و عدّی بن الرقاع القضاعی و علقمة بن عبدة و جناح بن روح و الربیع بن مطر التمیمی و حکیم بن عباس بن الأعور الکلبی و الحسین بن عبید الکلابی و أنیف العذری و أسباط بن واصل الشیبانی صدیق الخلیفة یزید بن الولید و جواس ابن القعطل الکلبی و عثمان بن الولید القرشی. و کان معاویة و من خلفه من خلفاء بنی أمیة و بنی مروان یفضلون علیهم، و من شعرائهم نابغة بنی شیبان کان یفد علی المروانیین فیجزلون عطاءه، و کان الأمویون یرسلون لأبی العباس الأعمی أحد شعرائهم بعطائه إلی مکة، و غالوا فی الحرص علی إکرام الشعراء ما خلا عمر بن عبد العزیز فإنه کان یقصی الشعراء عن حضرته لارتکابهم المطاعن و التشبیب فی أشعارهم، و لکنه کان رضی اللّه عنه یفضل (۴- ۲)

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۸

علی العلماء فقد کتب إلی والی حمص: «انظر إلی القوم الذین نصبوا أنفسهم للفقه و حبسوها فی المسجد عن طلب الدنیا فأعط کل رجل منهم مائة دینار یستعینون بها علی ما هم علیه من بیت مال المسلمین حین یأتیک کتابی هذا و إن خیر الخیر أعجله و السلام». و ظلت القبائل فی الإسلام إذا نشأ منها شاعر تغتبط و تفاخر، و إذا عدمته ذلت، لأنها تعده لسانها الناطق و مدون مفاخرها.

و قد أعطی النعمان بن بشیر عامل حمص أعشی همدان شاعر الیمن عشرین ألف دینار من مال الیمانیة، اقتطعها برضاهم من عطائهم دینارا دینارا، و کان من خلفاء الأمویین مثل یزید الأول و الولید الثانی من یقول الشعر الجید و کان عبد الملک من أکثر الناس علما و أبرعهم أدبا.

و قد نشأ فی القرن الأول من الفقهاء و المحدثین جملة صالحة فی الشام منهم عبد الرحمن بن غنم بن سعد الأشعری الصحابی، بعثه عمر بن الخطاب إلی الشام یفقه الناس فتفقه علیه عامة التابعین بالشام (۷۸) و منهم فضالة بن عبید الصحابی ولی قضاء دمشق لمعاویة و أمّره غزو الروم فی البحر (۵۳)، و أبو الدرداء الخزرجی الزاهد الحکیم المقری ولی قضاء دمشق فی خلافة عثمان مات (سنة ۳۲) و أول من أحدث روایة القرآن بدمشق هشام بن إسماعیل و بفلسطین الولید بن عبد الرحمن. و من علماء الشام أبو ذر جندب بن جنادة الغفاری و أوس بن أوس الصحابی الشاعر سکن بیت المقدس و الرملة (سنة ۳۲)، و من أخباریهم عبید بن شریة الجرهمی وفد علی معاویة بن أبی سفیان و أملی أشیاء فی أخبار الملوک أخذ عنه علاقة بن کرسم الکلابی أیام یزید بن معاویة، و کان عارفا بأیام العرب و أحادیثها و هو أحد من أخذت عنه المآثر و ربما جاز أن یعدّ أول من دوّن التاریخ فی الشام.

و من علماء الشامیین أبو إدریس الخولانی فقیه الشام و قاضیه، و عمرو البکالی المحدث الفقیه، و بشیر بن الولید الأموی کان یقال له

عـالم بنی مروان، و إبراهیم بن کثیر بن المرتجـل الرملی، و کـان عبـادة بن الصامت والی بیت المقـدس لعمر بن الخطاب قرأ علیه أبو سلام الحبشی و اسمه محظور و یقال الباهلی الدمشقی و شهر بن حوشب الأشعری المحدث (۱۰۰)، و بلال بن أبی الدرداء الأنصاری

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۹

قاضی دمشق (۹۳)، و أبو مسـلم الخولانی شـیخ الفیحاء و زاهـدها من سادات التابعین، و روح بن زنباع یکنی بأبی زرعة، و یقال بأبی رنباع الجذامی الفلسـطینی کان له اختصاص بعبد الملک بن مروان، و رجاء بن أبی سلمة الفلسطینی المحدث. و مالک بن دینار أحد الأعلام أقام فی القـدس (۲۳) و جبیر بن نفیر الحضـرمی عـالم أهل الشام (۷۹) و غیلان بن مروان الدمشـقی من کبار المعتزلـة و کان الحسن یقول إذا رأی غیلان فی الموسم «أترون هـذا هو حجـة اللّه علی أهل الشام و لکن الفتی مقتول» و کان أوحد دهره فی العلم و الزهد قتله هشام بن عبد الملک و قتل معه صاحبه صالحا لأنه کان ینال من بنی أمیة. و إسـماعیل بن عبد اللّه بن أبی مهاجر مولی بنی مخزوم من أهل دمشق کان یؤدب أولاد عبد الملک بن مروان.

و نشأ من الکتاب فی هذا القرن عبد اللّه بن أوس الغسانی سید أهل الشام و أسود بن قبیس الحمیری من کتاب بنی أمیة بدمشق، و فی الفلسـفة ساویرا سابوخت أسقف قنسرین الیعقوبی کان علی عهد السفیانیین فی الشام ممثل الحرکة الأدبیة و قد جادل الموارنة بحضرة الخلیفة معاویة سـنة (۶۵۹ م) و ألف رسائـل و مقالاـت عدیـدة فی الحساب و الفلک و الاصـطرلاب و الفلسـفة و اللاهوت، و یعقوب الرّهـاوی و غیرهم، و نشـأ فی القرن السـابع للمیلاـد أی فی القرن الأـول للهجرة کـالینیکیوس البعلبکی و هو مهنـدس کیماوی قیل إنه مخترع النـار الیونانیـة المرکبـة من النفـط و الکبریت و القطران و غیرهـا، و کان أبو قرة أول کاتب نصـرانی دینی کتب بالعربیـة. و من مشاهیر النصاری فی القرون الأولی القدیس یوحنا الدمشقی (۷۸۰ م) کان علما فی عصـره و ألف کتبا کثیرة فی اللاهوت و منهم قزما المنشی و قزما البار و ندراوس الاقریطشی و البطریرک صفرونیوس.

عنایة خالد بن یزید بالنقل و أوائل التدوین:

کـانت الکتب التی ترجمت لأبی هاشم خالـد بن یزیـد بن معاویـة بن أبی سـفیان الأموی حکیم آل مروان و عالم قریش، أول نقل أو تعریب کان فی الإسـلام فی عاصـمة الشام. و خالـد بن یزیـد هذا زهد فی الخلافة و عشق العلم، و إذا أنشأ جده معاویة ملکا فی الشام دام ألف شهر، فإنه أنشأ بعلمه مملکة

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۰

باقیـة بقاء الـدهر، فقـد «أمر باحضار جماعـة من فلاسـفة الیونانیین ممن کان ینزل مصـر و قد تفصح بالعربیة، و أمرهم بنقل الکتب فی الصـنعة من اللسـان الیونـانی و القبطی إلی العربی» و الصـنعة صـنعة الکیمیـاء. فترجمت له کتب فیها کما ترجمت له کتب فی الطب و النجوم. و ممن نقل له اصـطفن القـدیم، نقل کتب الکیمیاء، و کان خالـد بصـیرا بالطب أخـذه عن یحیی النحوی و أخـذ الکیمیاء عن مریـانس الرومی و أتقن هـذین العلمین و ألف فیهمـا و له رسائل و کتب فی غیر هـذه الأغراض، دالـة علی معرفته و براعته، و له شـعر کثیر و مقاطیع دالـة علی حسن تصـرفه و سـبقه. و کان من الطبقـة الثانیة من تابعی أهل الشام و قیل عنه قد علم علم العرب و العجم، و کـان خطیبـا شاعرا، فهو أول من أعطی التراجمـة و الفلاسـفة، و قرب أهل الحکمـة و رؤساء أهل کل صـناعة، و ترجم کتب النجوم و الطب و الکیمیاء و الحروب و الآلات و الصناعات.

و فی الفهرست: و یقال و اللّه أعلم إنه صح له عمل الصناعة و له فی ذلک عدة کتب و رسائل و له شعر کثیر رأیت منه نحو خمسمائة ورقة و رأیت من کتبه کتاب الحرارات، کتاب الصحیفة الکبیر، کتاب الصحیفة الصغیر. کتاب وصیته إلی ابنه فی الصنعة.

جاء فی التاریخ العام: لما جاءت العرب وجدت المدنیة الیونانیة راسـخة فی جمیع الأقطار التی داهمتها أولا مثل الشام و مصر و العراق فاقتربت من المملکـة البیزنطیة و بدا لها من وراء مدنیتها النبوغ الیونانی کما تجلی لها من الفرس المدنیات القدیمة من الهند و الصـین

على نحو ما وجدت فى بلاد كنعان و مصر تذكارات من الأمم القديمة التى لا تزال عليها مسحة الأجيال العريقة فى القدم و مصانعها و أعمالها.

و لما بلغت الدولة العربية غاية عزها، ثم تمزقت و تقسمت أصبح دينها واحدا و لسانها واحدا و قوانينها المعمول بها واحدة، و ذلك من نهر السند إلى أعمدة هركول و تمت الوحدة بين أولئك الشعوب المختلفة ديارهم، و أخذوا يقتبس بعضهم عن بعض من تبادل التجارة و سياحة الأفراد و تنقل الجيوش و الأمم و انتشار المعتقدات و الأخلاق و الأفكار يتصادمون و يتمازجون و يتحدون و يتداخلون و كل شعب ينقل إلى الآخر عاداته و تاريخه و ملكاته الطبيعية.

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۱

فالمدنية التى عمل فيها هذا العدد الكثير من المؤازرين المختلفين ليست إذا عربية صرفة، بل هى بحسب النموذجات التى تشبعت بروحها و المحيط الذى كبرت فيه: يونانية و فارسية و شامية و مصرية و إسبانية و هندية، و لكن إذا وجب أن يذكر لكل واحد قسطه من العمل لا- يسع المنصف إلا أن يقول بأن قسط العرب منه كان أعظم من غيرهم فلم يكونوا واسطة فقط لنقل هذه المدنية ينقلون إلى الشعوب الجاهلة فى إفريقيا و إسبانيا و أوربا اللاتينية معارف الشرق الأدنى و الأقصى و علومه و اختراعاته، بل أحسنوا استخدام المواد المبعثرة التى كانوا يلتقطونها من كل مكان، فمن مجموع هذه المواد المختلفة التى صبّت فتمازجت تمازجا متجانسا أبدعوا مدنية حية مطبوعة بطابع قرائحهم و عقولهم. و بفضلهم تيسر للحضارة الإسلامية فى القرون الوسطى التى عاونت فيها أيد أخرى أن تكون ذات وحدة موصوفة، فالتقليد فيها محسوس و لكنه تقليد غير أعمى، و سلطة الأساتذة الأقدمين لا تحول دون الأبحاث العلمية و الاختراعات الحديثة كما أن متشهد البدائع القديمة و درسها لا يحول دون انتشار التفنن و لطافة الإبداع فى الاختراع. و فى الشرق نشأت هذه المدنية و كانت دمشق إحدى مراكزها و منبعث أنوارها ا ه.

و بعد فإن خالد بن يزيد أول من جمعت له الكتب و جعلها فى خزانة فى الإسلام، و فى دمشق على الأرجح أنشئت أول دار للكتب فى العالم العربى، و دمشق أول عاصمة أنشئت فيها دار ترجمة فأولى أبو هاشم بعمله هذه الأمة و هذه العاصمة شرفا لا يبلى على الأيام. و إن الشام ليفخر بأن قامت فيه أول دولة عربية ممدنة، و تمت فيه كثير من مشخصات الأمة العربية، و من أولها التدوين و الترجمة، فالشام أول سوق نفقت فيها بضاعة العلم و الأدب فباعتها من غيرها و هذا يعدّ من مفاخرها التالدة. و خالد بن يزيد أول من عنى بعلوم الفلسفة و لم يتفرد بذلك المنصور العباسى خلافا لما قاله كاتب چلبى من أن علوم الأوائل كانت مهجورة فى عصر الأموية. قال الأصفهانى كان خالد ابن يزيد ينزل حلب و توفى سنة ۸۵ ه.

و بذا رأينا أن التدوين حدث فى القرن الأول فى العلوم الدنيوية و يرى نالينو أنه ربما كان أول كتاب ترجم من اليونانية إلى العربية كتاب أحكام

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۲

النجوم المنسوب إلى هرمس الحكيم، و كان مطمح‌نظر المدونين ضبط مقاصد القرآن و الحديث و معانيهما ثم دوّنوا فيما هو كالوسيلة إليهما.

و حدث التدوين فى عصر الصحابة الكرام على ما فى «توجيه النظر» فقد ذكر بعض الحفاظ أن زيد بن ثابت ألف كتابا فى علم الفرائض و ذكر البخارى أن عبد اللّه بن عمر كان يكتب الحديث، و ذكر مسلم فى صحيحه كتابا ألف فى عهد ابن عباس فى قضاء على. و ذكر صاحب الفهرست أنه رأى فى مدينة الحديثة على الفرات خزانة للكتب فيها بخطوط الإمامين الحسن و الحسين، و أمانات و عهود بخط أمير المؤمنين على و بخط غيره من كتاب النبى، و من خطوط العلماء فى النحو و اللغة مثل أبى عمرو بن العلاء و أبى عمرو الشيبانى و الأصمعى و ابن الأعرابى و سيبويه و الفراء و الكسائى و من خطوط أصحاب الحديث مثل سفيان بن عيينة و سفيان الثورى و الأوزاعى و غيرهم.

و ذكر المؤرخون أن أول كتاب نقل إلى العربية كتاب أهرن بن أعين فى الطب و جده عمر بن عبد العزيز فى خزائن الكتب فأمر بإخراجه للناس و بثه فى أيديهم. و عمر بن عبد العزيز هو الذى قال: كنت أصحب من الناس سراتهم، و اطلب من العلم شريفه، فلما وليت أمر الناس احتجت إلى أن أعلم سفساف العلم، فتعلموا من العلم جيده و رديئه و سفسافه.

علماء القرن الثانى و الأدب و النقلة و المنشئون فيه:

مضى القرن الأول و جاء الثانى فكثر القراء و المحدثون و الشعراء و النقلة و المترسلون و الكتاب بكثرة الفتوحات و فرط العناية بالعلم و الأدب، و قد نبغ فى هذا القرن كثير من أهل العلم منهم رجاء بن حيوة الفلسطينى الكندى الأردنى الفقيه العالم الذى كان يجالس عمر بن عبد العزيز (۱۰۱) و مكحول مولى بنى هذيل فقيه الدمشقيين و أحد أوعية العلم و الآثار (۱۱۳) و عبد اللّه ابن عامر اليحصبى القارىء المحدث أحد القراء السبعة من التابعين من أهل دمشق (۱۱۸) و سليمان بن موسى الأشدق الفقيه و كان أعلم أهل الشام بعد مكحول (۱۱۹) و ربيعة بن يزيد شيخ دمشق بعد مكحول (۱۲۳) و سليمان ابن حبيب المحاربى قاضى دمشق أربعين سنة (۱۲۶) و يحيى بن يحيى بن قيس

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۳

الغسانى كان ثقة إماما عالما بالفتوى و القضاء و سيد أهل دمشق (۱۳۵) و يزيد ابن يزيد بن جابر الأزدى إمام فقيه (۱۳۴) و العلاء بن الحارث الحضرمى الفقيه (۱۳۶) و يحيى بن الحارث الذّمارى المقرئ الدمشقى و عليه دارت قراءة الشاميين (۱۴۵) و عبد الرحمن بن يزيد بن جابر المحدث (۱۵۴) و عبد الرحمن ابن عمرو الأوزاعى البيروتى (۱۵۷) كان إمام أهل الشام و عالمهم قيل: إنه أجاب فى سبعين ألف مسألة، و صار يعمل بمذهبه فى الشام نحو مائتى سنة و آخر من عمل بمذهبه أحمد بن سليمان بن حذلم قاضى الشام و عمل أهل الأندلس بمذهبه أربعين سنة ثم تناقص بمذهب الإمام مالك. و كان الأوزاعى عظيم الشأن بالشام و أمره فيهم أعز من أمر السلطان. و كان مع علمه بارعا فى الكتابة و الترسل.

و من علماء الشام يونس بن ميسرة بن حلبس و ثور بن يزيد الكلاعى الحمصى، و كان ثقة فى الحديث (۱۵۳) و الوليد بن مسلم الدمشقى صاحب الأوزاعى و كانوا يقولون علم الشام عند إسماعيل بن عياش و الوليد بن مسلم فأما الوليد فمضى على سننه ميمونا عند أهل العلم متقنا صحيح العلم (۱۹۵ أو ۱۹۴) و من المحدثين الفقهاء فى دمشق المطعم بن المقدام الصنعانى و أبو مرثد الغنوى و ابراهيم بن جدار العذرى و مبشر بن إسماعيل الحلبى مولى كلب كان ثقة مأمونا (۲۰۰) و يحيى بن عمرو السّيبانى من أهل الرملة (و سيبان بفتح السين المهملة بطن من حمير) (۱۴۸) و صعصعة بن سلام الدمشقى المحدث كان أول من أدخل علم الحديث إلى الأندلس. و صدقة بن عبد اللّه السمين من كبار محدثى دمشق (۱۶۶) و الهقل بن زياد مفتى الوليد بن مسلم و له تصانيف تبلغ السبعين (۱۹۵) و عبد اللّه بن أبى زكريا الخزاعى الفقيه كان عمر بن عبد العزيز يكرمه و يجلسه معه على السرير (۱۱۷) و نمير بن أوس الأشعرى المحدث (۱۲۱) و ربيعة بن يزيد القصيرى من أئمة التابعين (۱۲۲) و ابراهيم ابن أبى عبلة من علماء التابعين (۱۵۲) و عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان المحدث (۱۶۵) و سعيد بن عبد العزيز التنوخى الفقيه العالم (۱۶۷) و محمد بن الوليد الزّبيدى كان أعلم أهل الشام بالفتوى و الحديث (۱۴۸) و يحيى بن حمزة كان كثير الحديث و كان قاضيا بدمشق (۱۸۳) و بقية بن الوليد الحمصى

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۴

المحدث (۱۹۷) و أسد بن وداعة الطائى الحمصى المحدث (۱۳۷).

و حرص المسلمون فى الصدر الأول بعد علم الدين على علم الطب، و كان من الأطباء فى القرنين الأول و الثانى زمرة صالحة مختلفة مذاهبهم منهم الحكم ابن أبى الحكم الدمشقى الطبيب و كان أبوه أبو الحكم طبيباً فى صدر الإسلام، و كان أبو الحكم يستطبه معاوية و يعتمد عليه اعتماده على ابن أثال من الأطباء المتميزين بدمشق. و منهم عيسى بن حكم الدمشقى المشهور بمسيح صاحب

الكناش الكبير. و تياذوق كان فى أول دولة بنى مروان و مشهورا عندهم بالطب و منهم عبد الملك بن أبجر الكنانى كان طبيبا عالما ماهرا يقيم فى أول أمره فى الإسكندرية لأنه كان المتولى للتدريس بها بعد الإسكندرانيين، و لما ملك المسلمون الإسكندرية أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز فاستطبه و اعتمد عليه فى صناعة الطب.

و كان عبد الحميد بن يحيى الكاتب إمام الإنشاء العربى و واضع أساسه و كان عالما فى كل فن من فنون الأدب (۱۳۲) و هو الذى فك قيود الإنشاء و ضبط أصوله و كان ختنه سالم و يكنى أبا العلاء أحد الفصحاء و البلغاء. و قد نقل من رسائل أرسطاليس إلى الإسكندر و نقل له و أصلح هو، و له رسائل و مجموع نحو مائة ورقة. و من الكتاب قنان بن متى و ابنه قيس و حفيده الحصين و منهم أسامة بن زيد أبو عيسى الكاتب التنوخى و يقال الكلبى. و من المشهورين بالبلاغة و الخطابة عبد الملك بن صالح الهاشمى نسب إلى منبج، و خالد بن عبد اللّه القسرى الخطيب المفوّه (۱۲۶) و أبو السامى و عبد اللّه بن خداش و أبو مسلم الشامى.

و من الناقلين أى المترجمين جبلة بن سالم، و كان ناقلا من العربى إلى الفارسى، و نقل بعضهم شيئا من تواريخ الأمم عن الفارسية. و لم يلبث النقل أن صار إلى بغداد بانتقال الخلافة إليها، فانتقل بذلك المترجمون الذين أنبغتهم الشام مثل قسطا بن لوقا البعلبكى الفيلسوف الطبيب المهندس المترجم المصنف، و كان يحسن العربية و السريانية و اليونانية، جيد النقل فصيح اللسان، و مثل أبى عثمان الدمشقى و عبد المسيح بن عبد اللّه الحمصى الناعمى المعروف بابن الناعمة، و زروبا بن ماجوه الناعمى الحمصى و كلاهما من النقلة، و هلال

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۵

ابن أبى هلال الحمصى صحيح النقل و لفظه مبتذل و حنين بن إسحاق البغدادى المولد نشأ فى الشام و تعلم فيه.

و للشاميين منذ القديم ميل إلى النقل عن الأمم الأخرى، هكذا فعلوا فى كل قرن فقد كان الناقلون منهم فى القرنين الأول و الثانى و كذلك فى القرون التالية إلى يومنا هذا و هم أقدر الأمم على تعلم اللغات الغريبة و التفصح فيها.

و كان أكثر النقل عن السريانية، و هذه نقلت عن العبرانية، و هذه نقلت عن اليونانية، و لذلك تعب فلاسفة المسلمين فى حلّ رموز الفلسفة اليونانية لأنها نقل عن نقل، و ذكر أحد المعاصرين من الإفرنج أن كتب أرسطو كانت تنقل ليفهمها أهل القرون الوسطى من اليونانية إلى السريانية و منها إلى العربية و منها إلى العبرية و من هذه إلى اللاتينية و كان التراجمة بادىء بدء لا يدركون فهم المعانى من كتب العرب و ينقلونها إلى اللاتينية حرفا بحرف. و قال نالينو:

إن أكثر نقلة القرن الثانى كانوا ضعافا فى العلوم يترجمون بالحرف دون فهم الموضوع و كثيرا ما ترددوا فى تعريف المصطلحات العلمية المجهولة عند العرب فى ذلك العصر، و من المعلوم أن طريقة التعريب لم تتقن إلا فى القرن الثالث.

العلم و الأدب فى القرن الثالث:

لم يكن للقرن الثالث ما كان للقرن الذى سلفه من النهضة، و تجلى آثار النبوغ و التجدد، بل كان كالتتمة لبعض ما سمت له الهمم فى القرنين الماضيين، و على صورة ربما كانت أضعف، زاد التدوين فيه أكثر من ذى قبل، و أخذت بغداد حظها من العلماء الذين قصدوها من القاصية و بقيت الشام بمعزل، راحت العلوم الفلسفية فى بغداد أواخر القرن الثانى و الثالث و سرى منها شعاع إلى الشام ثم عراها ما خنقها. و ممن أفضل على الشام الخليفة المأمون فإنه أنشأ فيها مرصدا فلكيا عمله له يحيى بن أبى منصور و هو أحد أصحاب الأرصاد المشهورين فى أيامه و كان ذلك فى سنة خمس عشرة و ست عشرة و سبع عشرة بعد المائتين. و قام فى الشام محمد بن عائذ صاحب المغازى و الفتوح و غير ذلك من المصنفات (۲۳۳) و عبد اللّه بن ذكوان القارىء الحافظ (۲۴۲) و هشام بن عمار خطيب دمشق و قارئها و فقيهها و محدثها (۲۴۵) و أحمد

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۶

ابن أبى الحوارى من كبار المحدثين و الصوفية (۲۴۶) و محمود بن سميع صاحب الطبقات و أحد الأثبات الثقات (۲۵۹) و أبو زرعة الدمشقى النصرى عبد الرحمن ابن عمرو المحدث صنف كتبا (۲۸۱) و أبو مسهر عبد الأعلى الغسانى شيخ دمشق و عالمها كان راوية سعيد بن عبد العزيز التنوخى و غيره من الشاميين (۲۱۸) و صفوان بن صالح المؤذن المحدث (۲۳۹) و القاسم بن عثمان الجوعى شيخ دمشق و زاهدها (۲۴۸) و الحافظ زكريا بن يحيى السّجزى المعروف بخياط السنة (۲۸۷) و عبد الغفار بن عثمان و الوليد بن مزيد العذرى البيروتى كان من أهل العلم و الرواية و كان الأوزاعى يقول، فيما عرفت ما حمل عنى أصح من كتب الوليد بن مزيد (۲۰۳) و ولده أبو الفضل العباس بن الوليد البيروتى كان من أهل العلم و الرواية (۲۷۰) و الإمام محمد بن إدريس الشافعى المطلبى أحد الأئمة ولد بغزة هاشم سنة خمسين و مئة و توفى بمصر سنة ۲۰۴ و هو أول من صنف فى أصول الفقه. و من أعيان العلماء محمد بن عوف الطائى الحمصى (۲۶۹) ذكر عند عبد اللّه بن أحمد بن حنبل فى سنة ۲۷۳ فقال:

ما كان بالشام منذ أربعين سنة مثل محمد بن عوف. و عبد اللّه بن اسماعيل بن زيد بن صخر البيروتى و محمد بن عبد اللّه بن عبد السلام بن أيوب البيروتى و آدم بن أبى إياس العسقلانى من مشايخ البخارى (۲۲۱) و هشام بن الغاز بن ربيعة الجرشى الصيداوى (۲۵۶) و أبو بكر محمد بن بركة القنسرينى الحافظ ببرداعس سكن حلب ثم قدم دمشق و حدث بها عن أبى جعفر أحمد ابن محمد بن رجاء المصيصى و يوسف بن سعد بن مسلم و هلال بن أبى العلاء الرقى.

و لقب حافظ كان يطلق على من يحفظ ألوفا من الأحاديث بأسانيدها و كانوا يطلقون اسم المسند على من يروى الحديث بإسناده سواء كان عنده علم به أو ليس له إلا- مجرد رواية، و يطلقون اسم المحدث على من كان أرفع منه و العالم على من يعلم المتن و الإسناد جميعا، و الفقيه على من يعرف المتن و لا- يعرف الإسناد. و كان السلف يطلقون المحدث و الحافظ بمعنى و المحدث من عرف الأسانيد و العلل و أسماء الرجال و العالى و النازل و حفظ من ذلك جملة مستكثرة من المتون و سمع الكتب الستة و مسند أحمد بن حنبل و سنن البيهقى

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۷

و معجم الطبرانى و ضم إلى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثية. هذا أقل درجاته فإذا سمع ما ذكر و كتب الطباق و دار على الشيوخ و تكلم فى العلل و الوفيات و المسانيد كان فى أول درجات المحدثين.

و ممن كان فى الشام الإمام محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة كان من أهل حرستا من غوطة دمشق. و عثمان بن خرّزاذ الأنطاكى المحدث. و أبو الحسن محمد الغسانى الصيداوى المعروف بابن جميع الحافظ المحدث و أبو عبد اللّه محمد بن على الصورى الحافظ. و احمد بن الخليل الحلبى المحدث و أحمد ابن المسيب الحلبى المحدث و عبد اللّه بن إسحاق الصّفرّى المحدث و مؤمل الرملى و أبو توبة الربيع بن نافع و يزيد بن خالد الرملى روى عن الليث بن سعد و المفضل ابن فضالة و روى عنه أبو العباس محمد بن الحسن بن قتيبة العسقلانى و أبو زرعة الرازى و موسى بن سهل الرملى (۲۶۲) و عبد اللّه بن محمد بن نصر بن طويط و يقال طويث أبو الفضل البزاز الرملى الحافظ. سمع فى دمشق هشام بن عمار ودحيما و هشام بن خالد بن أحمد بن ذكوان، و وارث بن الفضل العسقلانى، و نوح بن أبى حبيب القومسى.

و من شعراء هذا القرن البطين الشاعر الحمصى و عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن من شعراء بنى العباس و أصله من سلمية و إدريس بن يزيد النابلسى الأديب الشاعر و أدهم بن محرز و العتابىّ و أبو تمام. و اشتهر فى هذا القرن بالهندسة أبو بكر البناء المهندس الذى بنى لابن طولون ميناء عكا.

الأدب فى القرن الرابع و نهضته على عهد سيف الدولة و أبى العلاء المعرى:

قل فى القرن الثالث فى الشام الشعراء و الأدباء، و لم ينبغ فيه إلا رجال فى الحديث، و المغازى و الفقه، فطلع القرن الرابع و قد ظهر فيه

الأدب العربی فی مظهر عظیم لم یسبق له عهد بمثله، و لا جاء فی القرون التالیة شبه له و نظیر، اللهم إلا إذا کان علی عهد الأمویین، و لم تبلغنا جمیع أخبار شعراء سیف الدولة بن حمدان فی حلب، و قد قصده نوابغ الشعراء و الأدباء، قال الصفدی و کانوا یسمون عصر سیف الدولة الطراز المذهب لأن الفضلاء الذین کانوا عنده و الشعراء الذین من حوله لم یأت بعدهم مثلهم.

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۸

ذکر الثعالبی من شعراء الشام المحدثین العتابی و منصور النمری و الأشجع السلمی و محمد بن زرعة الدمشقی و ربیعة الرقی قال علی أن فی الطائیین (أبی تمام و البحتری) اللذین انتهت إلیهما الریاسة فی هذه الصناعة کفایة و هما هما.

و من مولدی أهل الشام المعوج الرقی و المریمی و العباس المصیصی و أبو الفتح کشاجم و الصنوبری و أبو المعتصم الأنطاکی، و هؤلاء ریاض الشعر و حدائق الظرف. و یقال إنه لم یجتمع بباب أحد من الملوک بعد الخلفاء، ما اجتمع بباب سیف الدولة من شیوخ الشعر و نجوم الدهر، و إنما السلطان سوق یجلب إلیها ما ینفق لدیها، و کان أدیبا شاعرا أورد صاحب الیتیمة من شعرائه و من کانوا یقصدونه من الآفاق لینفقوا من أدبهم فی سوقه ما هو بهجة النفوس مدی الأیام.

و کان فی هذا القرن أکثر الجهابذة و الصیاغین و الصیارفة و الدباغین بالشام من الیهود، و أکثر الأطباء و الکتبة نصاری و انحطت مدن الشام فی العلم انحطاطا کثیرا و منها حمص. ذکر السیوطی أنه نزلها خلق من الصحابة و انتشر بها الحدیث زمن التابعین و إلی أیام حریز بن عثمان و شعیب بن أبی حمزة ثم إسماعیل بن عیاش و بقیة و أبی المغیرة و أبی الیمان ثم أصحابهم ثم تناقص ذلک فی المائة الرابعة و تلاشی ثم عدم بالکلیة.

کان أبو فراس الحمدانی الذی قال فیه الصاحب بدیء الشعر بملک و ختم بملک، یعنی امرأ القیس و أبا فراس- ابن عم سیف الدولة و أعطاه علی بیت واحد ضیعة بمنبج تغل ألف دینار. و لطالما أعطاه و أعطی الشعراء فی بابه و لا سیما أبو الطیب المتنبی عشرات الألوف من الدنانیر دع الإقطاعات و الضیاع، و کان أبو بکر و أبو عثمان الخالدیان من خواص شعراء سیف الدولة و کانا علی خزانة کتبه کما کان علیها أیضا السلامی و البغاء و الوأواء. و ربما قلّ فی الملوک من مدح بمثل ما مدح به سیف الدولة حتی إن کلا من أبی محمد عبد اللّه بن محمد الفیاض الکاتب و أبی الحسن علی بن محمد السمیساطی قد اختار من مدائح الشعراء لسیف الدولة عشرة آلاف بیت. و کان أبو محمد الفیاض کاتبا لسیف الدولة و ندیمه معروفا ببعد المدی فی مضمار الأدب و حلبة

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۹

الکتابة، أخذ بطرفی النظم و النثر، و کان سیف الدولة لا یؤثر علیه فی السفارة إلی الحضرة أحدا، لحسن عبارته، و قوة بیانه، و نفاذه فی استغراق الأغراض، و تحصیل المراد.

و من خواص شعراء سیف الدولة أبو العباس أحمد بن محمد النامی و کان عنده تلو المتنبی فی المنزلة و الرتبة، و منهم أبو الفرج عبد الواحد البغاء من أهل نصیبین و من شعرائه أو ما قربوا من عصره الخلیع الشامی و الوأواء الدمشقی و أبو طالب الرقی و أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاکی المعروف بأبی الرقعمق، و أبو القاسم الحسن الواسانی الدمشقی و أحمد بن محمد الطائی الدمشقی و ابن أبی الجوع و ابن رشدین و کشاجم (و أقام کشاجم فی الرملة کثیرا فسمی الرملی ۳۶۰) و الصنوبری و أبو الفتح البکتمری و أبو الفرج العجلی و أبو حصین الرقی و أبو الفرج سلامة بن بحر. و من علماء الأدب و اللغة ابن خالویه و ابن جنی. و من الشعراء أبو محمد جعفر و أبو أحمد عبد اللّه ابنا ورقاء الشیبانی من رؤساء عرب الشام و قوادها. و کان جعفر بن ورقاء الشیبانی (۳۵۲) من بیت إمرة و تقدم و آداب، و کان المقتدر یجریه مجری بنی حمدان و تقلد عدة ولایات، و کان شاعرا کاتبا جید البدیهة و الرویة، و من الشعراء منصور و أحمد ابنا کیغلغ و أبو علی أحمد بن نصر بن الحسین البازیار و أبو زهیر المهلهل نصر بن حمدان و المغنم المصری و اسمه ابو الحسن محمد الشعبانی و أبو عبد اللّه محمد بن الحسین و أبو نصر بن نباتة التمیمی و الشیظمی و أبو العباس الصّفّری و أبو العباس الناشیء و أبو نصر البنص، و أبو القاسم الرقی المنجم الفلکی و عبد العزیز بن نباتة السعدی کان شاعرا مجیدا و له فی سیف الدولة

غرر القصائد (۴۰۵) و من شعراء القرن الرابع الحسين بن عبد اللّه بن أبى حصينة المعرى (۳۲۷) و ممن اجتمع بسيف الدولة و جالسه مدة ثم جاء معه إلى دمشق فتوفى فيها المعلم الثانى حكيم الإسلام أبو نصر محمد الفارابى صاحب التآليف الممتعة فى الحكمة (۳۳۹).

و أهم ما يفاخر به هذا القرن نبوغ أبى العلاء أحمد بن سليمان المعرى التنوخى حكيم العرب و أديبهم، و قد كانت المعرة فى أيامه كعبة القصاد، من طلاب الآداب، جذبهم إليها أبو العلاء، فجعل بلده دار حكمة و أدب،

خطط الشام، ج۴، ص: ۳۰

كما جعل سيف الدولة فى القرن الذى قبله مدينة حلب مجمع الأدباء و الشعراء بإحسانه و مشاركته. أحسن نابغة الشام أبو العلاء المعرى إلى الآداب العربية أى إحسان، و هو من بيت أدب و فضيلة، كان أبوه عبد اللّه بن سليمان لغويا شاعرا، و أخوه الأكبر محمد بن عبد اللّه و أخوه الثانى عبد الواحد بن عبد اللّه شاعرين مجيدين، و كان الشعر و الأدب متسلسلا فيهم من بطون كما تسلسل فى بيتهم القضاء مدة مائتى سنة. و من شيوخ أبى العلاء أبو بكر محمد بن مسعود النحوى و محمد بن عبد اللّه بن سعد النحوى الحلبى، و من تلامذته أبو غالب همام بن الفضل بن المهذب صاحب التاريخ المشهور، و أبو يعلى عبد الباقى ابن أبى الحصين، و أبو محمد عبد اللّه الخفاجى، ورشأ بن نظيف بن ما شاء اللّه المقرى، و هذا كان أول من أنشأ فى دمشق دارا للقرآن فى حدود سنة ۴۴۴ و الخطيب التبريزى و الحسن بن على بن همام و الأمير أبو الفتح بن أبى حصينة و عشرات غيرهم من أهل المعرة و كفرطاب و حلب و دمشق و حمص و حماة و طرابلس و الرقة و هكار و المصيصة و بغداد و تبريز و الأندلس إلى غيرهم من التنوخيين أهل بيته، و كان أكثر هؤلاء يقول الشعر الجيد حتى أصبح ذلك من اختصاصهم. و ممن صحب أبا العلاء المعرى و أخذ عنه كثيرا على بن القاضى التنوخى كان من أهل بيت كلهم فضلاء أدباء ظرفاء. و مما يستدل به على انتشار الآداب فى هذا العصر و تغالى الناس فى الشعر و الأدب ما قيل من أن سبعين شاعرا رثوا المعرى على قبره يوم مات، فما بالك بسائر شعراء الشام على ذاك العهد.

و قام فى هذا القرن من العلماء إبراهيم بن عبد الرزاق الأنطاكى مقرىء أهل الشام (۳۳۸) و من المحدثين عمر بن على العتكى الأنطاكى الخطيب الحافظ صاحب كتاب المقبول و عبد الوهاب الكلابى المحدث (۳۹۶) و محمد ابن عبيد اللّه يعرف بابن أبى الفضل أبو الحسن الكلاعى الحمصى المحدث (۳۰۹) و أبو الدحداح أحمد بن محمد بن إسماعيل التميمى محدث دمشق كان يسكن فى ربض باب الفراديس فى طرف العقيبة (۳۲۸) قال القاسمى و إليه تنسب مقبرة الدحداح، و عمر بن حسن الخرقى الحنبلى الدمشقى صاحب التصانيف العديدة و أحمد بن شرام الغسانى أحد النحاة المشهورين بالشام

خطط الشام، ج۴، ص: ۳۱

(۳۸۷) و محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء المقدسى الجغرافى الرحالة صاحب كتاب أحسن التقاسيم المطبوع و أبو مسهر البيروتى المعروف بمكحول الحافظ الثقة الثبت المشهور (۳۲۱) و أبو طاهر بن ذكوان البعلبكى المؤدب (۳۵۹) و المنجم الصابى البعلبكى و أبو القاسم على بن أحمد الأنطاكى كان رياضيا مهندسا و له تصانيف جليلة و كان مشاركا فى علوم الأوائل (۳۷۶) و إبراهيم الأزدى العجلى الأنطاكى الفقيه المقرئ (۳۳۸) و محمد بن جعفر صاحب التصانيف المشهورة كاعتلال القلوب و غيره توفى فى يافا (۳۲۷) و محمد التميمى المقدسى و الحافظ أحمد بن عمير مولى بنى هاشم شيخ الشام فى وقته رحل و صنف و ذاكر و حدث (۳۲۰) و أبو الحسين بن كشكرايا الطبيب العالم صاحب الكناش المعروف بالحاوى و عيسى الرقى المنجم الطبيب و كلاهما من أطباء سيف الدولة. و كان عيسى ينقل من السريانية إلى العربية و يأخذ أربعة أرزاق رزقا بسبب الطب و رزقا بسبب النقل و رزقين بسبب علمين آخرين. و عبد اللّه بن عطية المقرى الدمشقى المفسر كان يحفظ خمسين ألف بيت من شعر العرب فى الاستشهادات على معانى القرآن و اللغة (۳۸۳) و عبد الرحيم بن نباتة الفارقى صاحب الخطب المشهورة كان خطيب حلب و بها اجتمع بأبى الطيب المتنبى فى خدمة سيف الدولة (۳۷۴) و قام فى حلب أربعة من الشعراء المعدودين و هم أبو الحسن المستهام الحلبى و أبو محمد الماهر الحلبى و

ابن الفتح الموازينى الحلبى و أبو الفرج بن أبى حصين القاضى الحلبى. و من الشعراء الشاميين أبو الجود الرسعيى و اسمه محمد بن أحمد و أبو مسكين البردعى شاعر محدث يتنقل فى البلدان و كان مجودا. و الخليع الرقى و اسمه محمد بن أبى الغمر القرشى. و من المهندسين الرياضيين المجتبى الأنطاكى (۳۷۶) و ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة له تاريخ. و قيس المارونى له كتاب حسن فى التاريخ.

الآداب فى القرن الخامس:

امتاز القرن الخامس بأن نشأت فيه طائفة من الرجال الذين عنوا بالفلك و العلم الطبيعى و الرياضى و الطب، كما امتاز بأن نبغ فيه فى الأقطار العربية الأخرى من الفلاسفة أمثال ابن رشد و ابن سينا و البيرونى و الغزالى و الرازى

خطط الشام، ج۴، ص: ۳۲

ممن هم فخر العرب على تعاقب الحقب. و قد انتقلت من كتبهم و أفكارهم أشياء كثيرة إلى الشام. و يصح أن يقال إن العلم اقترب من العلوم المادية فى هذا الدور، ذهبت عن الناس الدهشة بالفصاحة و الشعر و نقل الأحاديث و العناية بالدين و تم تدوين أقوال أرباب المذاهب و الشعراء فانصرفت العناية إلى علوم الدنيا. و ممن نشأ فى هذه الديار أبو الفضل الحارثى الدمشقى المهندس الرياضى العالم بالحساب و التقسيمات و الهندسة و علم الهيئة و نقش الرخام و ضرب الخيط و الطب و له عدة تآليف (۵۰۰) و محمد القيسرانى الدمشقى العالم بالحساب و النجوم و الهندسة و الهيئة و علم المساحة و الميقات و الفلك (۵۰۰) و رضوان الخراسانى الرياضى و محمد بن عبد الواحد المهندس صنف كتابا فى ركاية الزوال بدمشق و معرفة طلوع الفجر بالمنازل منازل القمر (۴۰۹) و جورجس بن يوحنا اليرودى العالم بالطب و له عدة رسائل و مقالات. و من المؤرخين حمزة بن أسد أبو يعلى التميمى المعروف بابن القلانسى العميد صنف تاريخا للحوادث بعد سنة أربعين و أربعمائة إلى حين وفاته و قد طبع باسم ذيل تاريخ دمشق. و مبارك ابن شرارة أبو الخير الطبيب الكاتب الحلبى النصرانى كان له جرائد مشهورة بحلب عند أهلها يحفظونها لأجل الخراج المستقر على الضياع إذا اختلف النواب فى شىء من هذا النوع رجعوا إليها و له تاريخ حلب توفى فى حدود سنة (۴۹۰) فى صور. و من الحفاظ محمد بن على الصورى الحافظ قالوا: كان يذاكر بمائتى ألف حديث. قال غيث: سمعت جماعة يقولون ما رأينا أحفظ منه (۴۴۱) و الحافظ محمد بن جميع الغسانى الصيدانى و يقال له الصيداوى (۴۰۲) و عبد الواحد الشيرازى المقدسى الأنصارى شيخ الشام فى وقته نشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل أقام بدمشق و له تصانيف (۴۸۶) و سلامة بن إسماعيل ابن جماعة المقدسى الضرير كان كثير الحفظ ألف تآليف (۴۸۰) و الحسن ابن عبد الصمد بن الشخباء العسقلانى صاحب الخطب البديعة مشهور بنثره (۴۸۲).

و من الكتاب و الخطباء صاعد بن شمامة المسيحى الحلبى الكاتب و أبو اليمن المسلم بن الحسن بن غياث الكاتب الحلبى النصرانى كان صاحب الديوان بحلب، و تادرس بن الحسن النصرانى كان وزير صالح بن مرداس و عبد اللّه بن

خطط الشام، ج۴، ص: ۳۳

أسعد فقيه حمص يعرف بابن الدهان. و عبد العزيز بن أحمد الكنانى الدمشقى الصوفى المحدث (۴۶۶) نصر بن إبراهيم المقدسى النابلسى عالم الشام له عدة تصانيف درس العلم ببيت المقدس مدة ثم أتى صور ثم جاء دمشق (۴۹۰) على بن داود الدارانى الخطيب (۴۰۲) و هو الذى طلع إلى داريا كبراء دمشق لما مات خطيب جامعهم و طلبوه ليكون خطيب جامعهم فوثب أهل داريا بالسلاح و قالوا: لا نعطيكم خطيبنا فقال رئيسهم: أما ترضون يا أهل داريا أن تسمع الناس فى البلاد أن أهل دمشق احتاجوا إليكم فى إمام. و من مشاهيره الحسين بن على بن شواش الكنانى المقرى (۴۹۷) و الحسين بن على بن إبراهيم الأهوازى شيخ القراء بدمشق (۴۴۶) و الخطيب أبو نصر بن طلاب مسند دمشق (۴۷۰) و أبو الفرج عبد الواحد بن محمد الشيرازى الواعظ العالم (۴۵۶) و من الشعراء عبد المحسن الصورى الشاعر (۴۱۸) و أبو الفتيان بن حيوس الحلبى الشاعر. و محمد بن سنان الحلبى الشاعر و أبو مشكور الحلبى الشاعر و أحمد بن فضالة الدمشقى شاعر. و على بن منصور الحلبى الملقب دوخلة يعرف بابن القارح من شيوخ الأدب راوية للأخبار كتب

لأبی العلاء المعری رسالته المشهورة فأجابه عنها برسالة الغفران و کلا الرسالتین مطبوع.

و مما یذکر فی هذا القرن أن القاضی جلال الملک بن عمار جدد فی طرابلس دار العلم و دار الحکمة و ذلک فی سنة اثنتین و سبعین و أربعمائة لتکون مرکزا من مراکز التشیع، فنشرت العلوم و الآداب و أصبحت طرابلس مباءة علم و درس و مباراة فی التعلم و جهز هذه الجامعة الدینیة بمئة ألف مجلد و ربما کانت علی عهده قبل استیلاء الصلیبیین علیها أول بلدة علمیة فی الشام علی ما رأی فان برشم.

العلم و الأدب فی القرن السادس:

دخل القرن السادس و علی کثرة ما کان فیه من الفتن نشأ للأمة علماء خدموا العلم فی فنون مختلفة، و کانت بالشعر أقل من عصر سیف الدولة و عصر أبی العلاء المعری، و إن کان نور الدین و صلاح الدین و أسرتهما ممن یجیزون (۴- ۳)

خطط الشام، ج۴، ص: ۳۴

علیه و یعجبون و یترنمون بسماعه، و کان من أهل بیت صلاح الدین الشعراء المفلقون، و مما عنی به نور الدین محمود بن زنکی أنه کان یجلب العلماء من القاصیة و یسکنهم بالشام مثل قطب الدین النیسابوری و شرف الدین بن أبی عصرون، یبنی لهم المدارس و یغدق علیهم و علی مریدیهم أنواع الإحسان و یدرّ علیهم الرواتب. و قد أحصی فقهاء مدارس دمشق فی عهد صلاح الدین فکانوا ستمائة فقیه، کان یعطیهم من صدقاته. و من کتاب للقاضی الفاضل لصلاح الدین: و مما یجب أن یعلم المولی أن أرزاق أرباب العمائم فی دولته إقطاعا و راتبا یتجاوز مائتی ألف دینار و ربما کانت ثلاثمائة ألف دینار.

و أزهرت فی هذا القرن مدرسة الیعاقبة فی طرابلس و منها نشأ أبو الفرج ابن العبری صاحب التاریخ المطبوع. و تعلم کثیر من المحاربین و القواد و الأمراء من الصلیبیین اللغة العربیة فی الشام. فی تاریخ اللغة الفرنسیة و آدابها: أما بشأن اللغة (أی فی عهد الصلیبیین) فقد حدث ما یحدث فی مثل هذه الأحوال علی صورة مطردة، و هو أن لغة الأکثر تمدنا أثر أهلها فی غیرهم. و کان أکثر الأمم تمدنا بلا مراء الشرقیون و لا سیما العرب و الیونان. و قد تعلم قلیل جدا من العرب و الترک و الفرس لغة الإفرنج ما عدا بعض التراجمة الرسمیین.

و علی العکس تعلم کثیر من الصلیبیین لغة الوطنیین عقیب وصولهم إلی فلسطین.

إلی أن قال: و لا ریب أن مجاورة التمدن الإسلامی قد ساعدت علی زیادة النفوذ الذی کان العلم العربی و الفنون العربیة تؤثرها فینا منذ زمن طویل.

و معلوم ما تدین به لهذا التأثیر کل من الفلسفة و الریاضیات و الفلک و الملاحة و ترکیب النیران الصناعیة و الطب و الکیمیاء حتی فن الطبخ فقد أخذنا عن العرب أشیاء کثیرة من مثل طریقة الارقام و شروح أرسطو حتی حمام الزاجل و الشعارArmoiries و أدوات الموسیقی و الأزیاء و الثیاب و الزهور و البقول.

و بعد فإذ حدث أحیانا أن الأشیاء التی نقلت لم تکن تسمی إلا بأسماء المدنیة الشرقیة التی أخذت منها مثل ثوم عسقلان و ثیاب دمشق فإن غیرها قد احتفظت بأسمائها العربیة مع بعض التحریف و هی کثیرة و یتألف منها فی الفرنسیة مجموع کبیر فی الجملة ا ه.

و نبغ فی هذا القرن أبو المجد محمد بن أبی الحکم، و کان طبیبا مهندسا

خطط الشام، ج۴، ص: ۳۵

فلکیا (۵۷۰) و أبو زکریا یحیی البیاسی من أطباء صلاح الدین و عمل لابن النقاش و هو علی بن عیسی بن هبة اللّه أستاذه فی الطب آلات کثیرة تتعلق بالهندسة و کان یعرف النجارة و ابن النقاش هذا کان أوحد زمانه فی صناعة الطب و له مجلس عام للمشتغلین علیه و کان یعالج أیضا کتابة الإنشاء (۵۷۴) و أبو الحکم عبید اللّه بن المظفر المعروف بالحکیم المغربی و هو عالم بالحکمة و الطب و

الأدب و الهندسة (۵۴۹) . و عمر بن على بن البذوخ الدمشقى عالم بالطب شاعر له تآليف (۵۷۶) و ابن الصلاح عالم بالحكمة متميز بالطب مليح التصنيف (۵۴۰) و موفق الدين بن المطران عالم بالطب و الفلسفة متعين فى الفنون الأدبية له عدة مصنفات (۵۸۷) و قد نعى على أهل زمانه فتورهم و زهدهم فى العلوم و قلة مضائهم و رغبتهم فى الكتب و الآثار و تطير بتفاقم الخطب فى هذا الشأن.

و أبو الفضل عبد الكريم الحارثى الدمشقى و هو مهندس طبيب نجار نحات هندس أكثر أبواب المستشفى النورى الكبير اشتغل بالأدب و علم النجوم و الحديث له عده مصنفات (۵۹۹) و هو الذى أصلح الساعات التى لجامع دمشق. و على ابن عبد الباقى بن أبى جرادة العقيلى الأنطاكى الحلبى عالم بالأدب و اللغة و الحساب و النجوم و الفلسفة مات سنة نيف و أربعين و خمسمائة. زين الدين على بن غانم الأنصارى الدمشقى المعروف بابن منجه الحنبلى كان من أعيان أهل العلم و له رأى صائب و كان صلاح الدين يسميه عمرو بن العاص. و محمد بن طاهر المقدسى ذو الرحلة الواسعة و التصانيف و التعاليق (۵۰۷) و الحافظ أبو القاسم على بن عساكر محدث الشام و مؤرخها و من أعيان فقهائها صاحب تاريخ دمشق المشهور (۵۷۱) و كتابه من أعظم المفاخر فى التاريخ معدن أدب و ركاز علم.

و حمزة بن أسد أبو يعلى التميمى الدمشقى العميد بن القلانسى الكاتب صاحب كتاب ذيل تاريخ دمشق المطبوع. تولى رياسة دمشق و جمع بين كتابة الإنشاء و كتابة الحساب توفى فى عشر التسعين و أربعمائة، و توفيق بن محمد المهندس المنجم الأديب الدمشقى و له تصانيف (۵۱۶) و أبو البيان محمد بن محفوظ

خطط الشام، ج۴، ص: ۳۶

القرشى له عدة تصانيف (۵۰۱). و مخلص الدين أبو البركات عبد القاهر ابن أبى جرادة الحلبى كان أمينا على خزائن نور الدين و كان كاتبا بليغا و شاعرا مجيدا مستحسن الفنون من التذهيب البديع و حسن الخط المحرر على الأصول القديمة المستظرفة. و عبد الرحيم البيسانى المشهور بالقاضى الفاضل الكاتب العالم صاحب الرسائل و التصانيف الجيدة و محيى الدين بن الزكى الفقيه الخطيب (۵۹۸) و عماد الدين الأصفهانى العالم الكاتب الشاعر صاحب التصانيف و منها الفتح القدسى المطبوع (۵۹۷) و محمد الشهرزورى الدمشقى الفقيه الأديب الشاعر الكاتب (۵۷۲) و عبد اللّه بن أبى عصرون الفقيه له عدة مصنفات (۵۸۵).

و على بن جعفر البلخى الدمشقى من أئمة الحنفية (۵۴۸) و سليم بن أيوب أحد أوعية العلم صنف الكثير فى التفسير و الحديث و الفقه و العربية نشر العلم فى صور (۵۴۷) و الحافظ محمد بن طاهر المعروف بابن القيسرانى المقدسى كان جوالا فى الآفاق يجمع بين الذكاء و الحفظ و حسن التصنيف و له تصانيف كثيرة (۵۶۷) و بهاء الدين بن شداد قاضى العسكر فى زمن صلاح الدين يوسف الفقيه الكاتب المؤرخ صاحب التاريخ المطبوع فى سيرة صلاح الدين نشأ فى حلب و عظم فى أيامه شأن الفقهاء لعظم قدره و ارتفاع منزلته و مجد الدين طاهر ابن نصر اللّه بن جهبل الحلبى والد بنى جهبل الفقهاء الدمشقيين كان إماما فى الفقه و الحساب و الفرائض، و محمد بن خضر المعرى شاعر. و تقى الدين عبد الغنى الجماعيلى له عدة مصنفات فى الرجال (۶۰۰) و الحسين الأسدى مسند دمشق (۵۵۱) و قطب الدين النيسابورى العالم الفقيه (۵۷۸) و الحسن بن هبة اللّه بن صصرى التغلبى المحدث (۵۸۶) و تاج الدين الخراسانى الفقيه الصوفى (۵۸۴) و تقية بنت غيث الأرمنازى الصورى الشاعرة الأديبة و لها شعر سائر (۵۷۹) و على بن الموازينى مسند دمشق (۵۱۴) و أبو طاهر بركات الخشوعى المحدث امتاز بالسماع (۵۹۸). و موسى البلاغاشانى الفقيه (۵۰۶) و على ابن إبراهيم الحسينى الخطيب (۵۰۸) و هبة اللّه بن أحمد الأكفانى الأمين المحدث (۵۲۴) و على بن مسلم السلمى الدمشقى الفقيه (۵۳۲) و نصر اللّه بن محمد المصيصى الدمشقى العالم (۵۴۲).

و من الشعراء و الأدباء أحمد بن الخياط الدمشقى الشاعر الكاتب الأديب

خطط الشام، ج۴، ص: ۳۷

(۵۱۷) و أحمد بن منير الطرابلسى الشاعر الهجاء الوصاف المشهور (۵۴۸) و طراد بن على المعروف بالبديع كاتب شاعر (۵۲۴) و أبو

الوحش الشاعر و عبد القاهر بن عبد اللّه الوأواء الشاعر الأديب (۵۵۱) طبع ديوانه. و عرقلة الدمشقى النديم الخليع الشاعر و محمد بن حرب النحوى الأديب (۵۸۰) و الحسين ابن رواحة الأنصارى الحموى الفقيه الأديب الشاعر (۵۸۵) و مسلم بن خضر ابن قسيم الحموى الشاعر، و الحسن بن أبى الحسن صافى النحوى المعروف بملك النحاة له مصنفات فى الفقه و الأصلين و النحو و له ديوان شعر (۵۶۸) و حسان بن نمير العقيلى الدمشقى الشاعر (۵۶۷) و علوى بن عبد اللّه بن عبيد الشاعر الحلبى المعروف بالباز الأشهب الأديب المتفنن (۵۹۶) و أسامة بن منقذ صاحب كتابى الاعتبار و لباب الآداب و كلاهما مطبوع شاعر كاتب. و زرعة ابن موسى أبو العلاء الطبرانى النصرانى كاتب الأمراء بنى منقذ كان معاصرا لعبد اللّه بن محمد بن سنان شاعر.

و قد جاء حلب الشهاب السهروردى فى عهد ملكها الظاهر غازى و هو فيلسوف قتله صلاح الدين بدسائس الفقهاء قتل بقتله الحكمة، و هى صناعة الصنائع حتى إن سيف الدين الآمدى الفيلسوف النظار الكبير فى القرن التالى لم يجرؤ أن يقرئ أحدا شيئا من العلوم الحكمية، و بعد ذلك انقطعت الفلسفة من هذه الديار و لا تقرأ إلا أشياء قليلة منها و قل النابغون و المشتغلون بها، و لم نقف على حياة فيلسوف نشأ للشام من بين جميع من قام فيها من الأعلام، و لم ينشأ من الأفراد أمثال قطب الدين النيسابورى و الشهاب السهروردى و سيف الدين الآمدى، و لقد أبان رنان كيف أن الفكر الدينى لسوء حظ الإسلام تغلب بعد جدال طويل فخنق الحركة العلمية الفلسفية الباهرة التى جعلت المدنية العربية بتأثيرات الفارسية و اليونانية و النسطورية و اليهودية ردحا من الدهر، وارثة المدنية اليونانية. قال: و أوربا مدينة لمدنية العرب ببقايا العلم الذى قطفت ثماره فى القرون الوسطى.

العلم و الأدب فى القرن السابع:

لما خرب التتر بغداد سنة (۶۵۶) انتقلت الحركة الأدبية بحكم الطبيعة إلى

خطط الشام، ج۴، ص: ۳۸

الشام و مصر و لم تكن انقطعت منها كل الانقطاع من قبل، فهاجر كثير من العلماء من عاصمة العراق إلى دمشق و القاهرة. و فى هذا القرن تعينت المسالك العلمية و كثر الإخصائيون و تنوعت العلوم و توفر المشتغلون بها و أنبغ الشام طبقة عالية عدّت تآليفهم من الأمهات فى خزانة كتب الأمة العربية، و مرجعا ثقة للأخلاف اقتبسوها من أعمال الأسلاف. فمن المؤرخين عمر بن أبى جرادة الحلبى العقيلى المعروف بابن العديم صاحب تاريخ حلب (۶۶۰) و هو كمال الدين عمر بن الصاحب السعيد قاضى القضاة نجم الدين أبى الحسن أحمد بن الصاحب السعيد قاضى قضاة جمال الدين أبى غانم هبة اللّه بن قاضى القضاة مجد الدين أبى عبد اللّه محمد ابن قاضى القضاة جمال الدين أبى الفضل هبة اللّه ابن قاضى القضاة نجم الدين أبى الحسن أحمد بن يحيى بن زهير بن أبى جرادة. بيت تسلسل فيه العلم خمسة بطون كانوا أجداد كمال الدين عمر أكرم به من بيت فضيلة و علم. و من مفاخر هذا القرن بحلب على بن يوسف القفطى المعروف بالقاضى الأكرم أحد الكتاب المشهورين المبرزين فى النظم و النثر و له تآليف أكثرها فى التاريخ و الأدب (۶۴۶) و كان يقوم بعلوم من اللغة و النحو و الفقه و الحديث و علوم القرآن و الأصول و المنطق و النجوم و الهندسة و التاريخ و الجرح و التعديل و من كتبه المطبوعة مختصر تاريخ الحكماء. و ياقوت الرومى الحموى الجغرافى المؤرخ الرحالة صاحب معجم البلدان و معجم الأدباء و المشترك و غيرها من الكتب الممتعة المنقحة المطبوعة (۶۲۶) و فى حماة إبراهيم بن أبى الدم صاحب التاريخ الكبير المظفرى فى الملة الإسلامية (۶۴۲) و قام فيها عبد الرحيم البارزى قاضى حماة و ابن قاضيها و أبو قاضيها. و فى حماة أيضا علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف المهندس الرياضى (۶۴۲) و القاضى جمال الدين بن واصل (۶۹۷) كان إماما مبرزا فى علوم كثيرة مثل المنطق و الهندسة و الأصول و الهيئة ألف تاريخا فى أخبار بنى أيوب و له عدة مصنفات منها الانبرورية فى المنطق صنعها للانبرور ملك الإفرنج صاحب صقلية و انبولية و أنكبردة لما توجه إليه رسولا فى أيام الظاهر بيبرس سنة (۶۵۹). و نبغ من المهندسين إبراهيم بن غنائم المهندس بانى المدرسة الظاهرية الجوانية بدمشق، و اسمه لا يزال منقوشا على يسار الداخل إليها فى زاوية المدخل،

و هو الذی هندس القصر الأبلق

خطط الشام، ج۴، ص: ۳۹

الـذی قامت التکیهٔ السـلیمانیهٔ فی القرن العاشـر علی أنقاضه. و نبغ فی حماهٔ الملک المنصور محمد بن الملک المظفر بن أیوب خلف عـدهٔ مصـنفات منها المضـمار فی التاریخ و طبقات الشـعراء و کان فی خدمته قریب مئتی متعمم من النحاهٔ و الفقهاء و المشـتغلین بغیر ذلک. و جاء الناصـر داود ابن الملک المعظم و کان شاعرا أدیبا و فی أیامه راجت الفلسفهٔ و أمن المشتغلون بها علی أرواحهم. و جاء الأمجـد بهرام شـاه بن أیوب صـاحب بعلبـک و کـان شاعرا رقیقا و له دیوان (۶۲۸) و نبغ فی دمشق أحمـد بن خلکـان قاضـی قضاتها الفقیه المؤرخ المـدقق و صـاحب وفیـات الأعیـان المنقـح المطبوع (۶۸۱) و أحمـد بن القـاسم بن خلیفـهٔ المعروف بـابن أبی أصـیبعهٔ الدمشـقی الطبیب الأدیب مؤلف طبقات الأطباء المطبوع (۶۶۸) و عبـد الرحمن أبو شامـهٔ له عدهٔ تصانیف فی التاریخ و غیره (۶۶۵) و منهـا تاریـخ الروضتین و ذیله و الأـول مطبوع. و یوسف بن قزاوغلی سـبط ابن الجوزی صـاحب مرآهٔ الزمان فی التاریـخ، المطبوع منه الجزء الثـامن و هو الأخیر، أقام زمنا فی دمشق (۶۵۴) و عبـد المنعم الجلیانی الملقب بحکیم الزمان علامهٔ فی الطب و الکحل و الأدب و الشـعر و له عدهٔ کتب منها عشرهٔ دواوین من منظوم الکلام و مطلقه فی مدح صلاح الدین لم یصلنا منها إلا المدبجات. و من النوابغ فی دمشق عز الـدین الإـربلی الفیلسوف الضـریر کـان بارعا فی الفنون الأدبیـهٔ رأسا فی علوم الأوائل یقرئ المسـلمین و أهل الکتاب و الفلاسفهٔ (۶۶۰) و عاش فی دمشق أیضا حکیمان عظیمان من حکماء الإسـلام و ماتا فیها هما سـیف الـدین علی الثعلبی الآمـدی سـید العلماء و أزکی أهل زمانه و أکثرهم معرفهٔ بالعلوم الحکمیهٔ و المذاهب الشـرعیهٔ و المبادی المنطقیهٔ أقام سـنین کثیرهٔ فی حماهٔ مسـتترا ممن کانوا تحاملوا علیه و نسـبوه إلی الانحلال. و قد صـنف فی أصول الفقه و أصول الدین و المعقولات عدهٔ مصـنفات طبع له کتاب الإحکام و مات فی دمشق سـنهٔ (۶۳۱) و الثانی الشـیخ الأکبر محیی الدین بن عربی الأندلسـی الدمشقی صاحب المذهب المشهور فی التصوف و له عـدهٔ مصـنفات فی الأخلاـق و کلاـم القوم منها الفتوحات المکیـهٔ و فصوص الحکم المطبوعان (۶۳۸) و نبغ فی دمشـق شمس الـدین الخـویی العـالم فی الحکمـهٔ و الشـرع و الطب و غیره و له تـآلیف (۶۳۷) و رفیع الـدین الجیلی عـالم بالعلوم الحکمیـهٔ و أصول الدین و الفقه و العلم الطبیعی و الطب و له تآلیف

خطط الشام، ج۴، ص: ۴۰

(۶۴۱) و إسماعیل بن عبد الکریم المعروف بابن المعلم کان شیخ الحنفیهٔ فی وقته و شرف الدین بن الرحبی الطبیب الشاعر الأدیب له تآلیف (۶۶۷) و أخوه جمال الدین بن الرحبی الطبیب العالم و رشید الدین الصوری طبیب متفنن فی علوم کثیرهٔ و له عدهٔ تصانیف فی الطب. و مهـذب الـدین یوسف بن أبی سـعید السـامری طـبیب متمیز فی العلوم الحکمیـهٔ و أدیب له من الکتب شـرح التوراهٔ (۶۲۴) و الصـاحب أمین الدولـهٔ أبو الحسن بن غزال عـالم بـالطب له فیه مصـنف لم یوضع مثله (۶۴۳) و مهـذب الـدین عبد الرحیم بن علی و یعرف بالـدخوار عـالم بـالطب و هو صاحب المدرسـهٔ الطبیـهٔ المعروفـهٔ بالدخواریـهٔ بـدمشق، و نجم الـدین یحیی بن اللبردی عالم فی الحکمهٔ و الهندسهٔ و العدد صاحب المدرسهٔ الطبیهٔ المنسوبهٔ إلیه فی دمشق و صاحب دار الهندسهٔ أیضا ألّف و له ثلاث عشـرهٔ سنهٔ فی الرد علی عبـد اللطیف البغدادی و له عدهٔ مصـنفات (۶۲۱) و علاـء الـدین علی بن أبی الحزم بن النفیس الدمشـقی صاحب التصانیف الکثیرهٔ کانت تصانیفه یملیها من حفظه و کان مشارا إلیه فی الفقه و الأصول و الحدیث و العربیهٔ و المنطق.

و شـمس الـدین بن المؤیـد العرضـی الدمشـقی من الحکماء الـذین کانوا بدمشق و دعاهم نصـیر الدین الطوسـی لبناء المرصد و کان العرضـی و ابنه محمـد من علماء الفلک و تولی مؤیـد الـدین الأرصاد فی مرصـد مراغـهٔ و قـد وضع محمـد کرهٔ لا تزال محفوظـهٔ فی متحف درسدن فی المانیا. و عثمان بن الصلاح المضروب به المثل فی کل فن (۶۴۳) و علی بن محمود الیشکری المنجم له ید طولی فی علم الفلـک و حل التقاویم شاعر خطاط (۶۸۰) و بدر الدین ابن قاضـی بعلبک عالم بالطب و علوم الأدب له تصانیف طبیهٔ (۶۵۰) و نجم الـدین ابن المنفاخ و یعرف بابن العالمـهٔ و کانت أمـهٔ عالمـهٔ بدمشق و تعرف ببنت دهین اللوز طبیب عالم بالحکمهٔ و المنطق و

الأدب له مؤلفات (۶۵۲) عز الدین ابن السویدی الدمشقی عالم بالطب و الأدب شاعر مجید. یعقوب السامری عالم بالطب و علوم الحکمة له عدة مصنفات (۶۸۱) و علی بن خلیفة بن أبی أصیبعة عالم بالطب و العربیة و له کتب فی الطب و غیره (۶۱۶) و عبد العزیز بن رفیع الدین کان متمیزا فی الحکمة و الطبیعی و الطب و أصول الدین و الفقه و الخسرو شاهی من أصحاب التصانیف الجلیلة فی المنطق و الحکمة و من تلامیذ فخر الدین الرازی و عفیف الدین التلمسانی الدمشقی

خطط الشام، ج۴، ص: ۴۱

أدیب له فی کل علم مصنف (۶۹۰) و عبد الرحمن بن محمد بن عساکر ابن أخی الحافظ أبی القاسم صاحب تاریخ دمشق کان فقیه وقته (۶۲۰) و أحمد ابن هبة اللّه بن عساکر مسند دمشق (۶۹۹) و کریمة بنت عبد الوهاب بن علی مسندة الشام أم الفضل القرشیة الزبیریة و تعرف ببنت الحبقبق (۶۴۱) و فاطمة بنت أحمد بن السلطان صلاح الدین المحدثة (۶۷۸) و فاطمة بنت عساکر محدثة (۶۸۳) و ست العرب بنت یحیی بن قایماز أم الخیر الدمشقیة الکندیة المحدثة. و ست الکتبة بنت الطراح المحدثة و زینب بنت علی بن أحمد بن فضل الصالحیة محدثة. و عائشة ابنة عیسی بن الشیخ الموفق المقدسی المحدثة (۶۹۷).

و علی بن داود القحفازی شیخ أهل دمشق و خصوصا فی العربیة. و عبد الوهاب ابن سحنون طبیب و له شعر و أدب و فقه (۶۹۴) و زید بن الحسین الکندی علامة فی فنون الآداب مفنن عرف بعلو السماع (۶۱۳) و علم الدین السخاوی المقری النحوی الأدیب الفقیه له تصانیف (۶۵۷) و إبراهیم بن أحمد بن فارس التمیمی شیخ القراء بدمشق (۶۷۶) و القاسم بن أحمد المرسی اللورقی شیخ القراء و المتکلمین (۶۶۱) و عبد الکریم بن الحرستانی خطیب الشام (۶۶۲) و عبد العزیز بن عبد السلام الدمشقی شیخ الإسلام له تصانیف (۶۶۰) و الحافظ شمس الدین محمد بن جعوان الحافظ النحوی (۶۸۲) و رشید الدین الربعی مفسر لغوی کاتب (۶۸۷) و محمد بن سعادة مفسر أصولی فقیه نحوی عالم بالخلاف و الأدب و الفرائض (۶۹۳) و جاء من المحدثین موسی بن عبد القادر الجیلی مسند دمشق (۶۱۸) و الحافظ تقی الدین إسماعیل بن عبد اللّه الأنماطی المحدث (۶۱۹) و مکرم بن محمد بن أبی الصقر القرشی المسند الفقیه (۶۳۵) و إسماعیل بن أبی الیسر التنوخی مسند الشام (۶۷۶) و عبد العظیم و هو عبد الرحمن المعروف بالمسجف (۶۳۵) و القاسم بن أبی بکر الإربلی المقری المحدث (۶۸۰) و محمد بن علی ابن الصابونی المحدث (۶۸۰).

و جاء من العلماء فی الشام عبد اللّه الجماعیلی الإمام فی الخلاف و الفرائض و الأصول و الفقه و النحو و الحساب و النجوم و المنازل (۶۲۰) و یعقوب بن صقلان المقدسی قرأ الحکمة علی الفیلسوف الأنطاکی و عرف بها (۶۲۶) و نجم الدین النخجوانی کانت له عارضة قویة فی علوم الأوائل و نفیس الدولة بن طلیب

خطط الشام، ج۴، ص: ۴۲

الدمشقی و ولده صفی الدین النصرانی الملکی و محمد بن القیسرانی الدمشقی عالم بالأدب و الهیئة (۶۳۰) و أبو الفضل بن یامین الحلبی عالم بالریاضیات و علم حل الزیج و تسییر المواالید (۶۰۴) و أحمد بن هبة اللّه المعروف بابن الجبرانی الحلبی النحوی اللغوی و عبد اللّه الیونینی المحدث. و نجم الدین القمراوی عالم بالحکمة و الشریعة. و شرف الدین المتانی عالم بالحکمة و الشریعة و هما اللذان ذهبا إلی الموصل مختفیین لیلقیا الفیلسوف الأکبر کمال الدین بن یونس و حلا لغزه فی الحکمة، و کان عجز العلماء عن حله، فسألهما عن موطنهما فقالا الشام فقال:

من أی موضع منه قالا من حوران فقال: لا أشک أن أحد کما النجم القمراوی و الآخر الشرف المتانی. و فی هذا دلیل علی شهرتهما فی العلوم الحکمیة و الدینیة.

و قمرا مزرعة یقال لها قمیرة الیوم و متان قریة صغیرة و هما من قری صرخد فی جبل حوران.

و کانت بعض المدن عامرة بالعلماء مثل قنسرین التی خربت فی القرن الرابع و کفرطاب التی خربت فی أواخر الخامس. قال ابن العدیم کانت کفرطاب مشحونة بأهل العلم و کان بها من یقرأ الأدب و یشتغل به. و هاتان المدینتان أصبحتا الآن قریتین حقیرتین، و

كان فى قرى غوطة دمشق علماء و فقهاء و يختلف إليها علماء دمشق يدرسون فيها فمن جملة تآليف الحافظ ابن عساكر كتب فى روايات أهل داريا و كفرسوسة و صنعاء دمشق و الربوة و النيرب و من حدث بهما و أهل الحميريين و قبيبة و فذايا و بيت أرانس و بيت قوفا و البلاط و بيت سوا و دومة و مسرابا و حرستا و كفربطنا و دقانية و حجيرة و عين ثرماء و جديا و طرميس و بيت لهيا و برزة.

و من هذه القرى ما دثر الآن، و ذكر المحدثين من أهل منين و أهل بعلبك مما دل على العناية بالحديث فى القرن السادس.

و محمد بن مياس العرّمانى الشاعر الأديب و موسى القمراوى الفقيه الأديب المناظر (۶۲۵) و مسعود بن أبى الفضل النقاش الحلبى الشاعر و التاج الصرخدى محمود بن عدى التميمى الشاعر المحسن (۶۷۴) و الرشيد البصروى سعيد بن

خطط الشام، ج۴، ص: ۴۳

على أحد أئمة المذهب الحنفى النحوى الشاعر (۶۸۴) و على بن بلبان الكركى (۶۸۴) و الفخر البعلبكى عبد الرحمن الحنبلى الفقيه المحدث (۶۸۷) و عبد العزيز الأنصارى شيخ شيوخ حماة قال الصفدى: لا أعرف فى شعراء الشام بعد الخمسمائة و قبلها من نظم أحسن منه و لا أجزل و لا أفصح و برع فى الفقه و حدث كثيرا (۶۶۲) و نبغ فى حماة ابن بركات له تآليف فى التاريخ. و أبو بكر بن الخيثمى الحموى كان إماما فى الأدب و محمد بن المظفر بن أبى بكران الحموى عالم الأئمة الفقيه المحدث. و عبد العزيز بن حجة الحموى الشاعر الأديب و أبو المحاسن محمد بن نصر بن عنين الدمشقى الشاعر (۶۳۲) و محمد بن أبى الفضل الدّولعى الفقيه الخطيب الدمشقى (۶۳۵) و محمد شمس الدين الأنصارى الكاتب بدمشق (۶۵۰) و محمد بن العفيف التلمسانى الشاعر (۶۸۸) و محمد بن سوار ابن إسرائيل شاعر (۶۷۷) و محمد بن عبد المنعم التنوخى شاعر (۶۶۹) و ابن الساعاتى الشاعر الدمشقى صاحب الديوان المطبوع (۶۰۴) و فتيان الشاغورى الدمشقى الشاعر المبدع (۶۱۵) و تقى الدين اليلدانى المحدث (۶۵۵) و على بن عمر المشد شاعر (۶۵۶) و أبو المحاسن الشواء الشاعر الحلبى (۶۳۵) و محمد بن أبى اليسر التنوخى الدمشقى الكاتب الشاعر (۶۶۹) و عبد الرحمن بن إبراهيم الفزارى البدرى الدمشقى إمام فقيه ناظم ناثر له تصانيف جيدة (۶۹۰) و محمد ابن سعادة مفسر أصولى فقيه نحوى عالم بالخلاف و الأدب و الفرائض (۶۹۳) و عبد العزيز السلمى الفقيه المجتهد له تصانيف (۶۶۰) و عبد الرحمن بن نجم الحنبلى الواعظ الفقيه (۶۳۴) و محمد بن عبد الواحد السعدى المحدث الأصولى الفقيه له عدة تصانيف (۶۴۳) و الحافظ خالد بن يوسف النابلسى (۶۶۳) و أبو السخاء فتيان الحلبى النحوى. و يحيى بن حميدة الحلبى المعروف بابن أبى طى صاحب التاريخ و طبقات العلماء (۶۳۰) و يحيى بن محمود الثقفى الحلبى محدث.

و أحمد بن محمد الطرسوسى الحلبى محدث و يعيش بن على الحلبى النحوى المعروف بابن الصائغ شرح المفصل للزمخشرى المطبوع و شرح تصريف الملوكى لابن جنى المطبوع منه المتن (۶۴۳). و كانت حلب لما دخلها ابن خلكان فى هذا العصر فى سنة (۶۲۶) للاشتغال بالعلم أمّ البلاد مشحونة بالعلماء و المشتغلين. و مما انفرد

خطط الشام، ج۴، ص: ۴۴

به هذا القرن على صورة لم يسبق لها مثال إنشاء ثلاث مدارس للطب و مدرسة للهندسة فى دمشق فكان فى هذه العاصمة أعظم جامعة إسلامية عربية حوت العلوم الدينية و الدنيوية فلم تكن دون القاهرة بأزهرها الذى بنى فى القرن الرابع و لا بغداد بمدرستها النظامية.

الإمام ابن تيمية و الإصلاح الدينى و الأدب و العلم فى القرن الثامن:

اختص القرن الثامن بقيام أعظم مصلح فيه و فى قرون كثيرة من قبله و من بعده، أراد إرجاع الدين إلى نضرته الأولى، و تعريته من القشور التى ألصقها به الجهلة المتنمسون، فآذوه و عذبوه، و سجنوه و نفوه، و نعنى به شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية نابغة النوابغ فى الشرع و صاحب التآليف العديدة الممتعة المطبوعة، و إمام المعقول و المنقول، و سيد العلماء، و رأس الفقهاء (۷۲۸) و إن دمشق لتفاخر و حق لها الفخر بأنها تجلت فيها روح ابن تيمية، و دفنت أعظمه فى تربتها، و لكن عصره يخجل كل الخجل من أعمال

من ناهضوه مدفوعين بعامل الحسد، و لا سيما المشايخ بنو السبكى الذين آذوه فأكثروا من أذاه، طمعا فى نيل الحظوة من العامة و الملوك و استعانوا بنفوذهم السياسى فى حكومة مصر و الشام فاعتقلوه زمانا فى القاهرة و الإسكندرية و دمشق، و الأمة و عقلاء علمائها تقدسه حتى لقى ربه. و قد أشبه ابن تيمية فى دعوته فى الإسلام «لوثيروس» صاحب المذهب الإنجيلى فى النصرانية بيد أن مصلح النصرانية نجح فى دعوته، و مصلح الإسلام أخفق و ياللأسف.

قال السيوطى: إن دمشق كثر بها العلم فى زمن معاوية ثم فى زمن عبد الملك و أولاده و ما زال بها فقهاء و محدثون و مقرئون فى زمن التابعين و تابعيهم ثم إلى أيام أبى مسهر و مروان بن محمد الطاطرى و هشام و دحيم و سليمان بن بنت شرحبيل ثم أصحابهم و عصرهم. و هى دار قرآن و حديث و فقه، و تناقص بها العلم فى المائة الرابعة و الخامسة و كثر بعد ذلك و لا سيما فى دولة نور الدين

خطط الشام، ج۴، ص: ۴۵

و أيام محدثها ابن عساكر و المقادسة النازلين بسفحها ثم كثر بعد ذلك بابن تيمية و المزىّ و أصحابهما.

و نبغ أفراد فى هذا العصر و لا- سيما فى الفلك و التاريخ و الجغرافيا و الحديث، و منهم بدمشق البرزالى محدث الشام و صاحب التاريخ و المعجم الكبير (۷۴۰) و الحافظ جمال الدين المزى صاحب التصانيف (۷۴۲) و الحافظ محمد بن قايماز الذهبى عالم الشريعة و الأدب و التاريخ و له عشرات من المصنفات أكثرها فى التاريخ و الرجال منها تاريخ الإسلام و المشتبه و ميزان الاعتدال و طبقات الحفاظ و هذه الثلاثة الأخيرة مطبوعة (۷۴۸) و الحافظ عماد الدين بن كثير المفسر المؤرخ الفقيه صاحب التآليف و منها تاريخه المطول المطبوع (۷۷۴) و محمد بن أبى بكر الزرعى المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقى الإمام الحجة المجدد من أكبر أنصار شيخ الإسلام ابن تيمية (۷۵۱) طبعت بعض كتبه فى السنة و من أهمها إعلام الموقعين. و أحمد بن فضل اللّه العمرى الدمشقى إمام أهل الأدب و التاريخ و الجغرافية و الأسطرلاب و حل التقاويم و صور الكواكب و له عدة مصنفات منها مسالك الأبصار و التعريف بالمصطلح الشريف و هما مطبوعان. و مسالك الأبصار معلمة أدبية تاريخية كبرى (۷۴۹) و صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى الأديب المؤرخ صاحب الكتب المهمة من المطبوع منها الوافى بالوفيات (أجزاء) و نكت العميان و شرح قصيدة ابن زيدون و الأرب من غيث الأدب و تشنيف السمع و الغيث المنسجم و نسب الجراكسة و لوعة الشاكى و جنان الجناس إلى غير ذلك (۷۶۴) و الملك المؤيد إسماعيل أبو الفداء و كان عالما فقيها مؤرخا جغرافيا فلكيا منها تاريخه و كتابه تقويم البلدان و هما مطبوعان (۷۳۲) و كان يفضل على العلماء كثيرا أوى إليه أثير الدين الأبهرى فرتب له ما يكفيه و رتب لجمال الدين ابن نباتة فى دمشق كل سنة ستمائة درهم غير ما يتحفه به. و بعمل الملك المؤيد أبى الفداء و عمل أسرته من قبل و من بعد أصبحت حماة مدينة علم و أدب و خرجت رجالا يفتخر بهم فى تاريخ العلم و كانت أشبه بالقرى فى القرون الأولى للفتح الإسلامى. و مثل هؤلاء الملوك على صغر ممالكهم كانوا مادة العلم و الأدب فى تلك العصور، و كثيرا ما كان ملوكنا هؤلاء يحتالون

خطط الشام، ج۴، ص: ۴۶

لنشر العلم بطرق غريبة حتى إن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشرى مائة دينار و خلعة فحفظه لهذا السبب جماعة. و من قرأ المفصل تعلم النحو و الأدب معا. و فى أواخر دولة المعظم عيسى هذا و فى دولة أبيه داود اشتهر بدمشق الاشتغال بعلوم الأوائل و كثر ذلك فأخمد فى الدولة الأشرفية. و لعل ما نال أصحاب ابن حزم الظاهرى من الضرب الذى أوعز به ملك مصر إلى فقهاء الشام فى القرن الثامن كان من جملة ما ارتآه الجامدون من الأسباب للنيل من المجددين.

و جاء فى هذا العصر أبو بكر محمد الأنصارى المعروف بشيخ الربوة الدمشقى كان يعرف الرمل و الأوفاق و نحو ذلك من العلوم و هو صاحب نخبة الدهر فى القوزموغرافيا و الجغرافيا المطبوع و السياسة فى علم الفراسة (۷۲۷) و أبو بكر بن عبد اللّه بن أيبك صاحب صرخد له تآليف كثيرة. و محمد الأكمل بن مفلح الدمشقى الفقيه المؤرخ (۷۶۴) و محمد بن شاكر الكتبى صاحب التصانيف منها فوات الوفيات المطبوع و عيون التواريخ (۷۶۴). و عمر بن الوردى المعروف بابن أبى الفوارس صاحب التاريخ و ديوان الشعر و

المقامات المطبوعة كان فقيها أديبا (۷۴۹). و على بن إبراهيم علاء الدين بن الشاطر الفلكى الدمشقى (۷۷۷) و يعرف أيضا بالمطعم الفلكى، كان أوحد زمانه يعرف تطعيم العاج و عالما بالهيئة و الحساب و الهندسة و كانت له ثروة و مباشرات و دار من أحسن الدور وضعا و أغربها، و له الزيج المشهور و الأوضاع الغريبة التى منها البسيط الموضوع فى منارة العروس بجامع دمشق يقال: إن دمشق زينت عند وضعه، و فى تاريخ الصالحية أن ابن الشاطر هو صاحب الأسطرلاب و البسيط و كان له نظر على التوقيت بالجامع و ألف الزيج و الكرة و له الرسالة عليها. و يعرف علم الخيط فى المزولة و تركيبها.

و من المهندسين محمد بن إبراهيم المهندس و المعلم عمر بن نجيم و المعلم محمد الصفدى و المعلم على بن محمد التقى المهندس كان معاصرا لابن فضل اللّه و حدثه بأحاديث عن الجامع الأموى و شهاب الدين أحمد الحموى النقاش كتب الختمة

خطط الشام، ج۴، ص: ۴۷

الشريفة من أولها إلى آخرها على خوصة مفصلة الأجزاء و السور. و من المحدثين الحافظ على بن محمد اليونينى البعلى (۷۰۱) قال الزبيدى و له و لأبيه ترجمة حسنة و إخوته البدر الحسن و القطب موسى و أمة الرحيم حدثوا و من ولده الصدر عبد القادر و عم أبيه الزين عبد الغنى و هم بيت علم و حديث. و عمر بن إبراهيم العجمى الحلبى فقيه فرضى حاسب له مصنفات (۷۷۷) و حسن بن عمر بن حبيب الحلبى له عدة تآليف منها درة الأسلاك فى دولة الأتراك و أكثر كتبه مسجعة (۷۷۹) و على بن مظفر الوداعى المقرئ المحدث الكاتب وقف التذكرة الكندية فى خمسين مجلدا وضعها فى المدرسة السميساطية و هى بخطه فى فنون مختلفة (۷۱۶) و قاضى القضاة بدمشق عبد اللّه المقدسى (۷۳۱) و الجلال القزوينى إمام البيان صاحب المصنفات و المثل السائر فى الخطابة (۷۳۹) و على ابن سليم بن ربيعة الأذرعى فقيه أديب نظم التنبيه فى الفقه فى ستة عشر ألف بيت و شعره كثير (۷۳۲) و عبد اللّه بن مروان الفارقى الخطيب الفقيه (۷۰۳) و أحمد بن إبراهيم بن سباع الفزارى الخطيب النحوى المحدث (۷۰۵) و محمد ابن أبى بكر الأرموى القرافى صاحب التآليف (۷۱۴) و صلاح الدين خليل ابن كيكلدى الدمشقى ثم المقدسى أخذ عن مشايخ الدنيا له عدة مصنفات محررة (۷۶۱) و شيخ قراء دمشق أحمد بن محمد بن أبى الحزم سبط السلعوس (۷۳۱) و أحمد بن البرهان له مصنفات (۷۳۸). و محمد بن عبد الهادى البحر الزاخر فى العلم (۷۴۴) و شيخ القراء ذو الفنون إبراهيم بن عمر الجعبرى بالخليل (۷۳۲) و تصانيفه كثيرة. و محمد بن جماعة الكنانى الحموى له معرفة بفنون و له عدة مصنفات (۷۳۳) و محمد بن على المؤذن المعروف بابن أبى العشائر (۷۸۹) له عدة مصنفات منها تاريخ قنسرين. و عبد الرحمن الفقيه المواقيتى سبط الأبهرى و كان له يد طولى فى الرياضى و الوفق و العمليات و مشاركة فى فنون (۷۳۳) وهبة اللّه البارزى الجهنى الحموى المؤلف العالم المشهور (۷۳۸) و عثمان بن محمد البارزى الحموى شرح الحاوى فى الفقه (۷۳۰) و إسماعيل بن محمد بن جمال الدين بن الفقاع الحموى (۷۱۵) العالم بالقرآات العربية درس فى عدة مدارس بحماة و شهاب الدين السبكى الفقيه له تآليف (۷۷۱) و الكمال ابن الزملكانى الفقيه الأصولى العالم بالعربية صاحب الرسائل (۷۲۷) و الأمير

خطط الشام، ج۴، ص: ۴۸

العالم الشاعر أبو بكر محمد بن صلاح الدين بن صاحب الكرك (۷۳۰) و سليمان ابن أبى العز الأذرعى الفقيه (۷۰۷) و القاسم بن محمد الإشبيلى المحدث المؤرخ (۷۳۹) و محمد بن سليمان الصرخدى المصنف الجامع بين أشتات العلوم (۷۹۲) و قاضى القضاة يوسف المحجى (۷۳۸) و ابن أخيه محمود بن محمد ابن جبلة الخطيب و محمد بن إسماعيل الكفربطناوى من فقهاء المدارس، و قاضى قضاة دمشق إبراهيم بن عبد الباعونى و محمد بن يعقوب المعروف بابن الصاحب الحلبى (۷۶۳) فقيه أديب كاتب و محمد بن عيسى البعلى كان صاحب فنون (۷۳۰) و أسمى بنت محمد بن سالم بن صصرى التغلبية المسندة المحدثة (۷۳۳) و زينب بنت الكمال محدثة قرأ عليها كبار العلماء. و ست العرب ابنة محمد بن على الدمشقية المحدثة كانت حية سنة ۷۶۶ و من الأطباء سليمان بن داود كبير الأطباء بدمشق (۷۳۲) و أحمد بن الصلاح البعلبكى الطبيب فى بعلبك صاحب التآليف.

و من الشعراء و الكتاب علاء الدين بن غانم كاتب شاعر (۷۳۷) و الحسن بن على المحدث الكاتب المجود (۷۳۲) و محمد بن الحسن الصائغ العروضى الأديب الشاعر له تآليف (۷۲۲) و أحمد أبو جلنك الشاعر الحلبى (۷۰۱). و من كتاب هذا القرن الشهاب محمود الحلبى صاحب حسن التوسل فى معرفة صناعة الترسل (۷۵۵) و أحمد الأنصارى. إلى أمثالهم ممن نبطوا العلم و نشروه و أظهروه.

و يلاحظ أن أعلاما من العلماء اشتهروا فى هذا القرن و الذى قبله و بعده، و كثير منهم نشأ من قرى الجنوب و الشمال، و القرى ما زالت مادة المدن فى العلم و الأدب كما هى فى الزرع و الضرع، و من مواطنهم اليوم من لا يعرف شيئا مما يطلق عليه اسم العلم، و بعضها فى جاهلية جهلاء، مثل زملكا و حرستا و كفربطنا و المزة و يلدا و داريا و إزرع و محجة و نوى و الجيدور و يبرود و البقاع و عجلون و صرخد و متان و قمرا و حسبان و الكرك و جبرين و يونين و أنطاكية و صفد و بعلبك و المعرة و كفرطاب و شيزر. و توشك بعض تلك القرى أن تدثر، و أعمال النابغين فيها خالدة خلود الدهر فسبحان من هذا شأنه.

خطط الشام، ج۴، ص: ۴۹

العلوم فى القرن التاسع:

بدأت طلائع الانحطاط فى القرن التاسع، فلم ينبغ فى الشام رجل أحدث عملا علميا عظيما، أو دل على نبوغ فى فرع من فروع العلم، و كثر فيه الجماعون و المختصرون و الشارحون من المؤلفين، و السبب أن حكومة المماليك البرجية و البحرية كانت تشتد فى إرهاق المتفلسفة و المتفقهة على غير الأصول المتعارفة التى لم يشتهر منها سوى أربعة أئمة: الحنفى و الشافعى و المالكى و الحنبلى. فكان المخالف قليلا يعزر على مذهب المالكية، و القتل أيسر مراتب التعزير عندهم، ثم زادت الحال اشتدادا فى أوائل القرن بانسيال جيوش تيمورلنك على القطر، و قتله لبعض العلماء، و حمله إلى سمرقند كل ممتاز بعلم أو صناعة.

و مع هذا نشأ فى هذا القرن أفراد قلائل فى العلم ذكر التاريخ تراجمهم، و منهم أبو بكر بن أحمد ابن قاضى شهبة صاحب الطبقات و غيره (۸۵۱) و أحمد بن علاء الدين حجى الحسبانى الدمشقى الحافظ المؤرخ له كتاب سماه الدارس فى أخبار المدارس و لعله الأصل لكتاب النعيمى فى المدارس و له ذيل على تاريخ ابن كثير و غيره (۸۱۵) و أحمد بن محمد بن عربشاه له عدة مصنفات فى الأدب و التاريخ شاعر كاتب مجيد فى اللغات العربية و الفارسية و التركية و من تآليفه عجائب المقدور فى أخبار تيمور و هو مطبوع (۸۵۴) و صالح بن يحيى صاحب تاريخ بيروت و أمراء الغرب المطبوع كان فى أواسط القرن التاسع و نقل عن أحمد بن شباط الغربى الأديب المؤرخ أيضا.

و من الفقهاء إبراهيم بن محمد العجلونى الفقيه كان فى الشاميين نظير البيجورى فى المصريين (۸۲۵) و إبراهيم بن إبراهيم النووى متميز فى الفرائض و الحساب و متعلقاتهما له تآليف (۸۵۰) و إبراهيم بن على الحسنى البقاعى له مصنفات فى الفقه و النحو و المنطق و الحكمة و أدب البحث و غيرها.

و إبراهيم بن محمد بن مفلح فقيه (۸۰۳) و عبد اللّه بن مفلح رئيس الحنابلة (۸۳۴) و تقى الدين الحصنى عالم له مصنفات فى الفقه و غيره (۸۲۹) و أبو بكر محمد بن مزهر الدمشقى الفقيه انتهت إليه رياسة عصره (۸۳۲) و علاء الدين البهائى الغزولى عالم دمشق (۸۸۵) له كتاب مطالع البدور فى منازل

خطط الشام، ج۴، ص: ۵۰

السرور مطبوع، و إبراهيم البقاعى ترك مائة مؤلف كان إماما بالعربية و الأدب و الدين و التاريخ له نظم الدرر فى تناسب الآى و السور فى التفسير و عدة تواريخ للرجال، و عبد اللّه التنوخى الأمير اللبنانى المعروف بالسيد فقيه أديب مشارك فى الطب و الفلك طبعت بعض رسائله فى الوعظ (۸۸۴)، و محمد بن أحمد الباعونى (۸۷۱) له مؤلفات منها منظومات فى التاريخ.

و نشأ فى هذا القرن أحمد الطولونى كبير المهندسين و كان أبوه وجده مهندسين. و خليل بن جمال الدين الأديب المؤرخ الدمشقى

صنف تاریخا للحوادث و غیره (۸۱۵) و محمود العینی (۸۵۵) الفقیه المؤرخ له عدة مصنفات فی التاریخ و غیره. و عبد الرحمن ابن العینی عالم دمشق فی هذا القرن.

و أحمد المقدسی المشهور بابن زوجة أبی عذیبة (۸۵۶) صاحب تاریخ دول الأعیان.

و أحمد بن حجر العسقلانی الفقیه المحدث المؤرخ (۸۵۲) صاحب تاریخ الدرر الکامنة (المطبوع) و إنباء الغمر. و أحمد بن خلیل المعروف بابن اللبودی له أدب و شعر و بعض تآلیف (۸۹۶) و أحمد بن المحوجب عالم بالدینیات و اللسانیات. و أحمد بن عبد اللّه العامری فقیه أصولی له تآلیف.

و أحمد بن محمد الکشک عالم فقیه (۸۳۷) و زین الدین بن رجب الحنبلی له عدة مصنفات و منها طبقات الحنابلة المطبوع. و أبو العباس المالکی الفقیه العالم المفنن له عدة مصنفات. و عبد الرحیم بن عبد الرحمن الحموی فقیه أدیب له مصنفات. و محمد بن خلیل القباقیبی الحلبی (۸۴۹) إمام فی القراآت صنف فیها. و عبد اللّه ابن قاضی عجلون فقیه عالم بالمعقولات (۸۶۵) و قاضی القضاة العونی الناصری خطیب الخطباء (۸۱۵). و صدقة الجیدوری المقرئ (۸۲۵) و نور الدین أبو الثناء خطیب الدهشة استوطن حماة له تآلیف کثیرة.

و محمد الجزری الدمشقی المقرئ صاحب المصنفات الجلیلة منها کتاب الطبقات، و النشر فی القراآت العشر طبعا (۸۳۳) و عائشة بنت عبد الهادی محدثة دمشق (۸۱۵) و أبو البقاء البدری له تآلیف (۸۸۷) و علاء الدین ابن خطیب الناصریة الحلبی المؤرخ (۸۴۳) و أبو بکر بن علی بن حجة الحموی الأدیب الشاعر صاحب الخزانة و ثمرات الأوراق و غیرهما و هما مطبوعان و کان رئیس أدباء عصره (۸۳۷). و زین الدین ابن الشحنة الحلبی الفقیه المؤرخ (۸۱۵) کتب

خطط الشام، ج۴، ص: ۵۱

فی عدة فنون و له أراجیز فی اللغة و الدین و التصوف و الأحکام و الفرائض.

و محمود ابن الشحنة الفقیه الشاعر الأدیب (۸۹۰) له عدة تآلیف منها الدر المنتخب فی تاریخ حلب طبع مختصره. و أحمد السرمینی الحلبی الفلکی (۸۲۴) کان إماما فی الهیئة و حل الزیج و عمل التقاویم. و عبد الملک البابی الحلبی (۸۳۹) علم بالقراآت له نزهة الناظرین فی الأخلاق. و عز الدین ابن عبد السلام السعدی المقدسی العالم الرحلة صاحب التآلیف (۸۵۰). و البدر البشتکی محمد بن إبراهیم الدمشقی (۸۳۰). و علی بن خلیل الطرابلسی (۸۴۴) له کتاب فی الفقه اسمه معین الحکام. و ابن حبیب الحلبی (۸۰۸) له عدة مصنفات.

و عبد اللّه بن جماعة المقدسی صاحب التآلیف (۸۶۵). و البرهان الحلبی المحدث (۸۴۱) و عبد اللّه توقشندی المقدسی عالم زمانه فی الأرض المقدسة (۸۶۷).

و من علماء السریان نوح البقوفاوی بطریرک الیعاقبة فی حلب. و قد امتاز هذا القرن بکثرة المدارس فی لبنان قال الدویهی فی حوادث سنة ۸۷۵ ه: و قد أحصینا أسماء من کان من النساخ فی ذلک العهد ممن وقفنا علی کتبهم فإذا هم ینیفون علی مئة و عشرة و فی ذلک الوقت أهملوا الخط الاسترنکالی المربع و تمسکوا بالسریانی المدور.

انحطاط العلم و الأدب فی القرن العاشر:

زاد انحطاط العلم فی القرن العاشر، فلم تکن أیام الترک العثمانیین میمونة علی المعارف فی هذه الدیار مثل القرنین السالفین. و کانت الآداب تسیر إذ ذاک بقوة التسلسل منبعثة من قوتها القدیمة، و إذ اختلف لسان الحاکم و المحکوم علیه، و خصت الوظائف الدینیة الکبری بجماعة السلطان من الترک، مالت النفوس عن العلم، اللهم إلا من کانت لهم فطر سلیمة عشقوه لفائدته و قلیل ما هم. ذکر المقدسی أن أهل الدولة العثمانیة کانوا لا یولّون المدارس فی الشام أحدا من أبناء العرب، زاعمین أن العلماء فی العرب کثیر و أنهم

إن ولوا عربيا من غير طريقهم، كثر الطالبون من أبناء العرب و عجزوا عن إرضائهم، و ضاق الأمر على ملازمى الروم. و حصر الترك عنايتهم بالاستانة كما حصروها من قبل ببورصة، فجعل الفاتح القسطنطينية عاصمة العلم، بل جامعة ذاك

خطط الشام، ج۴، ص: ۵۲

العصر، كما قال جودت. و كان العلماء بعد الفتح العثمانى يأتون إلى القسطنطينية زرافات، و لذلك لم يكن حظ للولايات دع البعيدة من عناية الدولة العثمانية بها و ترقيتها فى العلم و الآداب.

و تسلسل العلم الدينى فى بعض البيوت بدمشق فى هذا القرن و الذى بعده على صورة غريبة مثل بنى الغزى و حمزة و فرفور و العمادى و النابلسى و مفلح و ممن نبغ بدمشق محمد بن محمد الغزى العالم بعلوم اللسان و غيرها و له عدة مصنفات (۹۳۵). و محمد بن بدر الدين الغزى الفقيه المفسر النحوى المحدث المقرئ الأصولى النظار المؤرخ و له مئة و بضعة مصنفات (۹۸۴). و عبد الرحمن بن فرفور عالم بالتاريخ و الأدب (۹۹۲). و امتاز فى الدينيات محمد بن حمزة (۹۳۳) و على بن إسماعيل بن عماد الدين (۹۷۱) و إسماعيل النابلسى (۹۹۳). و إبراهيم بن عمر بن مفلح (۹۱۷). و كان فيه محمد بن على بن طولون النحوى الفقيه المحدث المؤرخ صاحب مصنفات كثيرة فى التاريخ على اختلاف ضروبه و منها المطبوع (۹۵۳). و عبد القادر النعيمى المؤرخ المحدث ألف كتبا كثيرة منها الدارس (۹۲۷). و عبد الباسط العلموى اختصر بعض كتب النعيمى و زاد عليها و منها مختصر الدارس (۹۸۱). و ابن سكيكر الدمشقى المؤرخ له زبدة الآثار فى ما وقع لجامعه فى الإقامة و الأسفار (۹۸۷). و بهاء الدين محمد بن يوسف الباعونى و مؤلفاته مثل مؤلفات عمه أراجيز تاريخية (۹۱۰).

و من علماء القرن فى دمشق محمد بن محمد بن سلطان العالم الفقيه صاحب التآليف (۹۵۰). و محمد بن مكى عالم بالطب و الهيئة و الهندسة و الفلك (۹۳۸) و عرف بالمهارة فى الفقه و غيره. و أبو بكر البلاطنسى (۹۳۶). و أبو بكر محمد القارى (۹۳۵) و أبو الفتح البسترى (۹۶۲). و أحمد بن محمد الشويكى له تآليف (۹۶۶) و إسماعيل الكردى البانى عالم بالمعقولات (۹۵۶). و عثمان الآمدى و هو خطيب متفنن (۹۸۵). و محمد بن محمد بن عماد الدين عالم فى الدينيات (۹۸۶). و أحمد بن أحمد الطيبى الفقيه النحوى له عدة مصنفات (۹۷۹) و أسد الشيرازى عالم فى البلاغة و العربية و المنطق و الأصلين و الفقه (۹۹۸).

و محمد بن هشام نحوى (۹۰۷)، و محمد بن منيعة (۹۰۴). و محمد الكنجى له يد فى النحو و الحساب و الميقات و القرآن (۹۳۲). و محمد الكفرسوسى

خطط الشام، ج۴، ص: ۵۳

(۹۳۲). و محمد الميدانى عالم بالقراآت و العربية له عدة مصنفات (۹۲۳).

و إبراهيم بن الهلالى فقيه محدث (۹۱۶). و أبو بكر ابن قاضى عجلون إمام مفنن (۹۲۸).

و جاء فى القدس عبد الرحمن بن محمد مجير الدين العليمى صاحب تاريخ القدس و الخليل المطبوع. و برهان الدين المقدسى الفقيه الأديب له عدة مصنفات (۹۲۲). و فى غزة أبو عبد اللّه محمد بن قاسم الغزى (۹۱۸) له كتب فى الفقه و الأصول و غيرها. و إبراهيم بن يوسف الحنبلى المعروف بابن الحنبلى له عدة كتب (۹۵۹). و فى دمشق يوسف بن عبد الهادى (۹۰۹) الفقيه المؤرخ صاحب الرسائل و الكتب الكثيرة فى الفنون المختلفة و هو أشبه بالسيوطى فى مصر بكثرة تآليفه و تنوع موضوعاته طبع له كتاب مساجد دمشق. و فى حلب محمد ابن الحنبلى المؤرخ العالم له عدة تآليف منها تأليف فى تاريخ حلب (۹۷۱). و عبد البر ابن الشحنة الحلبى الأصولى الفقيه (۹۲۱). و عمر الشماع الحلبى المؤرخ المحدث له عدة مصنفات (۹۳۶). و فى الرملة شمس الدين الرملى العالم الفقيه (۹۲۳). و نشأ فى حلب خليل بن أحمد الشيخ غرس الدين (۹۷۱) عالم بالحساب و الميقات و الهيئة و الوفق و الموسيقى و الطب و هو صاحب شجرة الإفادة بشرقية جامع حلب الأعظم. و فى حماة محمود بن أبى بكر المعرى الحموى الحلبى الفقيه. و فى دمشق هاشم بن السيد الطبيب ناصر الدين السروجى (۹۶۴).

و فی حماة محب الدین بن داود الحموی له تآلیف. و فی دمشق موسی بن یوسف بن أیوب القاضی شرف الدین الدمشقی الشافعی ألف تاریخا فی مجلد و تذکرة فی مجلدین (۱۰۰۰).

و مع انحطاط محسوس فی حرکة العقول فی هذا العصر کان فی الشام بعض النساء العالمات مثل فاطمة بنت قریمزان شیخة المدرستین العادلیة و الزجاجیة معا انتهت إلیها ریاسة أهل زمانها بحلب أخذت العلم عن زوجها (۹۶۶).

و بوران بنت الشحنة الشاعرة الحلبیة (۹۳۸). و عائشة الباعونیة الدمشقیة المحدثة المتصوفة الشاعرة المجیدة لها عدة تآلیف و منها البدیعیة و شعرها لطیف (۹۲۲).

خطط الشام، ج۴، ص: ۵۴

الآداب فی القرن الحادی عشر:

أما القرن الحادی عشر فشبیه بتالیه و سالفه من حیث قلة الإبداع و التجدد و الاکتفاء بالموجود، لکن عدد العالمین و المتأدبین کان أکثر علی ما یظهر أو أنه دوّن کله و لم یفقد، فقد نشأ فی دمشق أحمد بن محمد الغزی فقیه له بعض التآلیف (۱۰۱۷) و محمد أکمل الدین بن مفلح المحدث الرحلة المؤرخ کتب تاریخا ترجم فیه معاصریه و له تعلیقات تاریخیة مهمة (۱۰۱۱). و النجم محمد الغزی محدث الشام صاحب التآلیف منها فی التاریخ و تراجم الرجال (۱۰۶۱). و أحمد بن سنان القرمانی الأدیب المؤرخ صاحب التصانیف و له تاریخ آثار الدول المطبوع (۱۰۱۹). و عبد الوهاب الفرفوری الفقیه (۱۰۷۳).

و أحمد بن أبی الوفاء بن مفلح الحنبلی الفقیه المحدث عارف بالفرائض و الحساب و التاریخ (۱۰۳۸). و من الفقهاء محمد الداودی (۱۰۰۶). و من علماء العربیة محمد الخوخی (۱۰۲۲). و فی الفقه محمد الحصکفی صاحب التصانیف فی الفقه و غیره (۱۰۸۸). و محمود الباقانی له عدة تصانیف (۱۰۰۳). و أبو بکر ابن عبد عرف أبوه بمنلا جامی (۱۰۷۷). و أحمد بن محمد الزریابی فقیه المالکیة (۱۰۵۰). و کمال الدین بن مرعی العیتاوی الفقیه (۱۰۸۶). و رمضان العطیفی الفقیه النحوی الراویة (۱۰۹۵). و عبد الباقی بن فقیه فصة محدث مقرئ أثری (۱۰۹۱). و یحیی الشاوی له تآلیف. و شمس الدین بن بلبان عالم بالسنة (۱۰۸۳). و الشاکر الحموی کان متصوفا ناظما و ناثرا و له دیوان فی ثلاث مجلدات.

و من أدباء هذا القرن و شعرائه أبو بکر بن منصور العمری (۱۰۴۸) و إبراهیم الصالحی الشاعر المعروف بالأکرمی (۱۰۱۲). و عمر بن محمد المعروف بابن الصغیر شیخ الأدب بالشام بعد شیخه أبی بکر بن منصور العمری شاعر مجید عارف بالطب (۱۰۶۵). و إبراهیم الفتال الشاعر (۱۰۹۸). و أبو بکر ابن أحمد المعروف بابن الجوهری. و محمد الکریمی (۱۰۶۸). و عبد الکریم الطارانی الشاعر الکاتب المؤرخ (۱۰۴۱). و عبد اللطیف البهائی شاعر متفنن (۱۰۸۲). و عبد اللطیف بن المنقار شاعر (۱۰۵۷). و الحسن البورینی الشاعر اللغوی له تآلیف منها تراجم رجال عصره و شرح دیوان ابن الفارض المطبوع

خطط الشام، ج۴، ص: ۵۵

(۱۰۲۴). و أحمد العناياتی الشاعر (۱۰۱۴). و أحمد بن الشاهینی الأدیب اللغوی (۱۰۵۳). و أحمد الصفوری الشاعر الأدیب المؤرخ (۱۰۴۳). و أحمد ابن محمد بن المنقار أدیب شاعر (۱۰۳۲) و إسماعیل النابلسی الفقیه له بعض التآلیف (۱۰۶۲). و درویش محمد بن أحمد الطالوی الدمشقی الأدیب (۱۰۱۴) و منجک بن محمد بن منجک صاحب الدیوان المطبوع (۱۰۸۰). و شهاب الدین العمادی شاعر منشئ (۱۰۹۸). و عبد الحی العکری المعروف بابن العماد مصنف أدیب مفنن أخباری أثری له شذرات الذهب فی التاریخ مطبوع (۱۰۸۷). و عبد الرحمن بن النقیب منشئ شاعر (۱۰۸۱). و إبراهیم العمادی أحد بلغاء الشام المذکورین (۱۰۹۸). و أحمد بن المنلا النخجوانی الملقب بالمنطقی شاعر ناثر فقیه ینظم و ینثر فی الألسن الثلاثة العربیة و الفارسیة و الترکیة.

و ظهر فی دمشق فی العلوم و الفنون بضعة أفراد منهم علاء الدین بن ناصر الدین علی الطرابلسی اشتهر بالریاضیات و القراآت و

الفرائض و الفقه و له تآليف (۱۰۳۲). و عمر بن محمد القارى عالم مفنن له باع فى الهيئة (۱۰۴۶).

و عمر بن يحيى المعروف بالدويک كان عارفا بفنون عديدة منها الرياضيات و الفلک و الميقات و له شعر (۱۰۸۳) و محمد بن يونس الطبيب الخطيب (۱۰۰۸) و المنلا- محمود الكردى عالم فى كثير من الفنون (۱۰۴۷). و ابن الحكيم المصاحب أبو بكر بن محمود رئيس أطباء دمشق و خطيب أمويها عالم فى العلوم الغريبة مثل علم الوفق و علم الحرف و له يد طولى فى العقليات (۱۰۰۷). و عبد القادر ابن عبد الهادى رياضى فقيه أصولى (۱۱۰۰). و عبد الحى بن محمد بن عماد عالم بالرياضيات (۱۰۸۹). و إبراهيم بن الأحدب الزبدانى محدث فرضى رحالة أخذ الفرائض و الحساب عن العلامة محمد النجدى و يلحق بابن الهائم فى هذين العلمين (۱۰۱۰). و نشأ فى هذه المدينة أيوب الخلوتى من المتصوفة له فى التصوف رسائل (۱۰۷۱). و من الخطباء الشهاب أحمد بن يحيى البهنسى الخطيب ابن الخطيب ابن الخطيب و أحمد بن محمد البصراوى و يعرف بابن الإمام (۱۰۰۳).

و جاء فى المدن الأخرى أبو الجود عبد الرحمن الحلبى البترونى كان محققا فى المذهب و التفسير و البحث نظارا (۱۰۳۹). و أبو الوفاء محمد بن عمر العرضى الحلبى متفرد بالإتقان و الحفظ و الضبط له تاريخ معادن الذهب و له رسائل

خطط الشام، ج۴، ص: ۵۶

و تآليف (۱۰۷۱). و محمود البيلونى الحلبى كان إذا تكلم فى فن من العلم يقول سامعه لا- يحسن غيره (۱۰۰۷). و فتح اللّه البيلونى الحلبى له عدة مصنفات و حواش و مجاميع و شعر (۱۰۴۲). و نور الدين بن برهان الحلبى صاحب السيرة الحلبية المطبوعة و غيرها من الحواشى و الشروح و الرسائل (۱۰۴۴)، و على البصير له كثير من التآليف فى الفقه و غيره (۱۰۹۰). و محمد بن حسن الكواكبى رئيس حلب فى الفنون و العلوم ألف مؤلفات كثيرة فى الفقه و التفسير و هو شاعر مجيد (۱۰۹۶). و عبد الوهاب بن رجب إمام فى العربية (۱۰۱۵).

و على البصير الحموى له تآليف فى الفقه و غيره. و محمد بن أبى بكر الحموى له تآليف عديدة فى الفقه و التفسير و العربية و رسائل و رحلات و كان عالما بالفرائض و الحساب و المنطق و الحكمة و الزايرجا و الرمل و هو جد الشيخ محمد المحبى مؤلف خلاصة الأثر (۱۰۱۶).

و من علماء السريان أندراوس اخبيجان الحلبى أول بطاركة الكاثوليک.

و أبو السعود الكورانى الحلبى الشاعر الأديب (۱۰۵۶). و أحمد بن خليل الأطاسى الحمصى الفقيه مفتى حمص و عالمها (۱۰۰۴). و أحمد بن النقيب الحلبى الأديب المتفنن (۱۰۵۶). و باكير بن أحمد المعروف بابن النقيب الحلبى لم يكن فى حلب من أدباء عصره أكثر رواية منه للنظم و النثر (۱۰۹۴).

و بشير بن محمد الخليلى القدسى الأديب الشاعر لم يكن فى زمنه من أقرانه من يدانيه فيه إلّا شرف الدين العسيلى (۱۰۶۰). و تقى الدين التميمى الغزى صاحب الطبقات السنية فى تراجم الحنفية (۱۰۱۰). و حسن بن محمد أبو الفوارس الحموى المعروف بابن الأعوج أمير حماة شاعر اجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند أحد من أمراء عصره. و حسين الجزرى الحلبى الشاعر (۱۰۳۳).

و حسين بن عبد اللّه المعروف بالمملوک متصوف (۱۰۳۴). و خير الدين الرملى المفسر المحدث الفقيه اللغوى صاحب التآليف و الفتاوى و منها المطبوع (۱۰۸۱) و رجب بن علوان الحموى أمهر ما كان فى العلوم الرياضية كالهيئة و الحساب و الفلک و الموسيقى و غيرها (۱۰۸۷). و سرور بن سنين الحلبى شاعر (۱۰۲۰) و صالح بن سلوم الحلبى رئيس الأطباء (۱۰۸۱). و صلاح الدين الكورانى الحلبى شاعر (۱۰۴۹). و عبد الحق الحمصى الملقب زين الدين الحجازى

خطط الشام، ج۴، ص: ۵۷

عالم بالمعقولات. و عبد اللّه بن حجازى الحلبى الشهير بابن قضيب البان مطبوع بشعره و إنشائه فى الألسن الثلاثة و له تآليف (۱۰۹۶). و فتح اللّه النحاس الحلبى الشاعر (۱۰۵۲). و محمد القاسمى الحلبى شاعر ناثر (۱۰۵۴). و محمد الكواكبى الحلبى عالم فى المنقول و

المعقول (۱۰۹۶). و محمد بن عبد القادر الشهير بالحادى الصيداوى أديب فقيه (۱۰۴۲). و محمد التمرتاشى الغزى رأس الفقهاء الحنفية له التآليف الكثيرة (۱۰۰۴). و محمد بن على المعروف بالحريرى و بالحرفوشى العاملى الدمشقى اللغوى النحوى الأديب الشاعر صاحب التصانيف الكثيرة (۱۰۵۹). و محمد البيلونى الحلبى راوية الشعر و الوقائع خبير بصنعة النقد أديب (۱۰۸۵)، و محمد بن محمد الحلفاوى الحلبى أديب (۱۰۵۴) و محمد العسيلى القدسى له تصانيف دينية. و موسى الرام حمدانى الحلبى البصير متفنن فى الرياضيات و العلوم الحكمية و علم الحرف و الأخبار و الأدب (۱۰۸۹).

و بهاء الدين العاملى الفقيه الأديب صاحب المخلاة و الكشكول و غيرهما من كتب الأدب المطبوعة. و محمد الفصى البعلبكى الفقيه و آباؤه كلهم رؤساء العلم فى تلك الناحية و له تآليف (۱۰۲۴). و أبو الوفاء بن معروف الحموى له تآليف (۱۰۱۶). و حسين الأشقر كان جامعا لأنواع الفنون (۱۰۴۲).

و عبد القادر بن قضيب البان كان له ما ينيف على أربعين تأليفا (۱۰۴۰).

و عبد النافع بن عمر الحموى كان متضلعا من العلوم شاعرا (۱۰۱۶). و داود الأنطاكى و يعرف بالشيخ الصورى (۱۰۰۵) ألف كتابا فى السب سماه تذكرة أولى الألباب مطبوع. و تقى الدين الغزى التميمى (۱۰۰۵) له الطبقات الحنفية.

العلوم و الآداب فى القرن الثانى عشر:

دخل القرن الثانى عشر و لا تجديد فيه و لا جديد، إلا النظر فى قضايا قديمة لاكتها الألسن قديما لا إبداع فيها و لا اختراع، فالمسائل الدينية المقررة تنتقل خلفا عن سلف، و الآداب العربية تنحط حتى أصبح الشعر و النثر فى حالة مخزية و «صارت الفتوى و القضاء و المناصب العلمية ملعبة و شعبذة و سخرية و المدارس مأوى الحمير». كما قال أحد العارفين بذاك القرن. و جاء فى العاصمة زمرة من العلماء منهم إبراهيم بن حمزة محدث لغوى (۱۱۲۰). و أبو

خطط الشام، ج۴، ص: ۵۸

الإسعاد بن أيوب عارف بعلوم جمة مبرز فى علوم الأبدان (۱۱۰۶). و أبو الصفا المفتى فقيه مفسر نحوى. و أحمد بن حسين باشا الكيوانى أديب كاتب صاحب الديوان المطبوع (۱۱۷۳). قال المرادى: و هو فى هذا القرن أى الثانى عشر كالأمير منجك المنجكى فى القرن الماضى بل أرجح، و إن لم يكن أرجح منه فهو مقارن له. و أحمد بن عبد الكريم الغزى فقيه نحوى له تآليف (۱۱۴۳). و أحمد بن على المنينى المحدث اللغوى النحوى الأديب له تآليف منها شرح تاريخ اليمينى المطبوع (۱۱۷۲). و أحمد شاكر الحكواتى شاعر رحلة (۱۱۹۳). و أحمد الفلاقنسى أديب منشئ (۱۱۷۳). و أحمد المهمندارى فقيه مفنن له شعر و أدب (۱۱۰۵) و أحمد البهنسى فقيه أديب (۱۱۴۸).

و أحمد البقاعى أديب مفنن شاعر (۱۱۷۱). و أسعد الطويل أديب (۱۱۵۰).

و إسماعيل الحائك فقيه عالم (۱۱۱۳). و إسماعيل العجلونى رحلة له يد فى العلوم لا سيما الحديث و العربية و له تصانيف (۱۱۶۲). و حامد العمادى فقيه فرضى شاعر أديب له تآليف. و خليل الحمصانى له يد فى التفسير خاصة (۱۱۲۳). و زين الدين البصروى عالم أديب (۱۱۰۲). و سعيد الجعفرى عالم أديب له شعر (۱۱۸۳). و سعيد السمان لغوى شاعر ناثر له تآليف (۱۱۷۲).

و سعدى العمرى شاعر ناثر (۱۱۴۷). و سعدى بن حمزة محدث فرضى حيسوب مهندس مساح (۱۱۳۲). و سليمان الحموى المعروف بالسوارى كاتب شاعر (۱۱۱۷). و صالح الجينينى محدث فقيه (۱۱۷۰). و عبد الجليل المواهبى عالم فى المعقولات (۱۱۱۹). و عبد الرحمن الصناديقى فقيه أصولى نحوى (۱۱۶۴).

و عبد الرحمن الغزى فقيه فرضى نحوى شاعر (۱۱۱۸). و عبد الرحمن الكيلانى عالم مدقق شاعر ناثر (۱۱۷۲). و عبد الرحمن البهلول شاعر لغوى أديب (۱۱۶۳). و على الطاغستانى عالم محقق مفنن (۱۱۲۹). و محمد الدكدكجى صوفى مقرئ متفنن (۱۱۳۱). و محمد

الکفیری فقیه أدیب (۱۱۵۰). و محمد الغزی فقیه أدیب مؤرخ نسابة (۱۱۶۷). و محمد أمین المحبی عالم أدیب مؤرخ له تآلیف منها خلاصة الأثر المطبوع (۱۱۱۱). و محمود الجزیری عالم فی الزایرجا و الحرف و الأوفاق و الریاضیات (۱۱۴۱). و محمود العبدلانی عالم محقق (۱۱۷۳). و مراد المرادی عالم فی المعقول و المنقول له تآلیف (۱۱۳۲).

خطط الشام، ج۴، ص: ۵۹

و مکی الجوخی عالم أدیب متضلع له شعر و کتابة (۱۱۹۲). و مصطفی اللقیمی عالم فرضی حیسوب ناظم ناثر (۱۱۸۷). و مصطفی البکری عالم بلغت مؤلفاته ۲۲۳ مؤلفا بین مجلد و کراسین و أقل و أکثر و له نظم کثیر و قصائد خارجة عن الدواوین تقارب اثنی عشر ألف بیت (۱۱۶۲). و مصطفی العلوانی الحموی أدیب ناثر ناظم (۱۱۹۳). و مصطفی السفرجلانی متفنن فی العلوم الحکمیة له رسائل فی المنطق و الفلسفة و الحکمة و الکلام و شعر و نثر (۱۱۹۱). و موسی المحاسنی عالم محقق (۱۱۷۳). و عبد الرحیم المخللاتی عالم فی الفرائض و الحساب و الفلک (۱۱۴۰). و عبد الرحمن الکابلی عالم محقق (۱۱۳۵). و عبد الرحیم الطواقی فقیه نحوی فرضی له بعض تآلیف و رسائل (۱۱۲۳). و عبد الرزاق الرومی فقیه له تآلیف. و عبد السلام بن محمد المعروف بالکاملی أو الکامدی فقیه أصولی نحوی أدیب (۱۱۴۷). و عبد الغنی النابلسی إمام فی التصوف و الفقه و التفسیر و علوم الأدب و له تآلیف کثیرة و نظم و نثر المطبوع منها شرح الطریقة المحمدیة و البدیعیة و کتاب فی الزراعة و دیوان و الرحلة القدسیة و الرحلة الحجازیة و غیرها (۱۱۲۶). و عبد الفتاح بن مغیزل أدیب طبیب (۱۱۹۵) عبد القادر التغلبی فقیه فرضی (۱۱۳۵) عبد القادر الکردی عالم محقق له ثلاثون تألیفا (۱۱۷۸). و عبد اللّه البصروی عالم محقق فی العلوم و الفنون مؤرخ (۱۱۷۰) عبد اللّه الطرابلسی أدیب شاعر له تآلیف و رسائل (۱۱۵۴) عبد اللّه المکتبی محقق فی الحساب و الفلک و الهیئة و التقویمات (۱۱۶۲). عثمان الشمعة عالم بالدینیات و علوم الأدب (۱۱۲۶). عثمان القطان عالم بالعقلیات و النقلیات (۱۱۱۵). عمر البغدادی عالم متصوف له رسائل (۱۱۹۴). عمر الرجیحی کاتب أدیب (۱۱۳۰). علی العمادی عالم أدیب (۱۱۱۷). علی التدمری فقیه نحوی فرضی عالم بالحرف و الزایرجة و الوفق (۱۱۳۱). علی کزبر عالم رحلة مقرئ (۱۱۶۵). محمد بن عیسی بن کنان مؤرخ أدیب (۱۱۵۳). یوسف ابن محمد الطرابلسی رئیس الأطباء.

هذا غایة ما یقال فی رجال دمشق أما فی المدن الأخری فقد نشأ فی حلب طه الجبرینی المفسر المحدث العالم بالمعقولات (۱۱۷۸). أحمد الکواکبی الفقیه المفسر الشاعر الأدیب (۱۱۲۴). أبو السعود الکواکبی العالم المحقق

خطط الشام، ج۴، ص: ۶۰

الشاعر (۱۱۳۷). و بنو الکواکبی و بنو الشحنة فی حلب من البیوت التی تسلسل فیها العلم عدة قرون. المطران جرمانوس فرحات (۱۱۴۵) کان یحسن عدة لغات و له تآلیف بالسریانیة و العربیة (طبع منها کتابه فی النحو) و هو تلمیذ عالم عصره سلیمان الحلبی. عبد اللّه زاخر (۱۱۶۲) مترجم الإنجیل و طابعه. عبد اللطیف الأطاسی الحمصی الأدیب عالم بالکیمیاء و الأوفاق و غیرها و له شعر کان حیا سنة ۱۱۴۰. البطریرک میخائیل جروة الحلبی. الایکونیموس بطرس التولوی. القس یوحنا زندو الحلبی. و عطاء اللّه زندو عبد المسیح لبیان الشاعر. و الشاعران میخائیل جبارة و أنطون ذکری. و یوسف الشراباتی.

و یواکیم البعلبکی الواعظ له تآلیف (۱۷۸۲ م).

و أحمد العکی العالم الفقیه له تآلیف کثیرة و شعر و أدب (۱۱۴۷) عبد اللّه الاطرابلسی المعروف بالأفیونی الفقیه له عدة تآلیف و شروح (۱۱۵۴). عبد المعطی الخلیلی له فتاوی و رسائل کلها منتخبة (۱۱۵۴). إبراهیم الحاقلی له عدة تآلیف ترجم عدة کتب من العربیة إلی اللاتینیة منها کتاب ابولونیوس فی الهندسة و مختصر فی الفلسفة الشرقیة و عدد تآلیفه ۶۴ (۱۶۶۴ م). البطریرک اسطفان الدویهی العالم المؤرخ صاحب التاریخ المطبوع (۱۷۰۴ م)، علی البرادعی البعلی الواعظ کان جده الأعلی جلال الدین من العلماء الأجلاء. و محمد التاجی الحنفی صاحب الفتاوی التاجیة الفقیه (۱۱۱۴). السمعانی اللبنانی کتب بالعربیة و اللاتینیة منها المکتبة الشرقیة (۱۷۶۸ م) و له شهرة فی ایطالیا و إسبانیا و تآلیفه کثیرة قال الدبس بعد أن عدد تآلیفه: و أعجب بهذا الرجل الذی یعجز رجل و إن

كان مغرما بالمطالعة عن أن يقرأ فى حياته ما ألفه هو فى أوقات فراغه.

و القس يوسف البانى الحلبى ترجم عدة كتب إلى العربية فى الدين المسيحى.

و البطريرك مكاريوس الحلبى نبغ فى أواسط القرن السابع عشر للميلاد و هو صاحب الرحلة إلى القسطنطينية و بلغاريا و روسيا.

العلم و الأدب فى القرن الثالث عشر:

كان القرن الثالث عشر تتمة القرن الثانى عشر، و لكن فيه بطء و ضعف، نشأ فيه من دمشق محمد بن حسين الحلبى العطار العالم بالرياضيات و الفنون

خطط الشام، ج۴، ص: ۶۱

(۱۲۴۳) اتهم بالتساهل فى دينه فالتزم بيته فألف عدة رسائل بالفنون الحربية و الفلك و الحساب طبع بعضها. و أحمد الكزبرى العالم بالكتاب و السنة (۱۲۴۸).

أحمد المنينى الفقيه المحدث (۱۲۵۶). أحمد بن إسماعيل بيبرس فقيه (۱۲۴۷) أسعد المنير فقيه (۱۲۴۲). حامد العطار المحدث المفسر (۱۲۶۳). كمال الدين الصمادى الجرائحى الدمشقى له تآليف فى التاريخ (۱۲۰۹). حسن جينة فقيه أديب له رسائل فى الأخلاق (۱۲۰۶). خليل الخشة فقيه (۱۲۴۲).

رضاء الدين الحلبى فقيه (۱۲۸۶). شاكر العقاد الشهير بمقدم سعد الفقيه الحكيم الأديب (۱۲۲۲). صالح الدسوقى له بعض رسائل فى الفقه و الأدب (۱۲۴۶). عبد الرحمن الكزبرى الفقيه المحدث (۱۲۶۲). مكسيموس مظلوم له خمسون تأليفا و معربا (۱۸۵۵ م). يوسف مهنا الحداد عالم بالدينيات و التاريخ و الرياضيات يعرف اليونانية و العبرانية (۱۸۶۰ م). حسين الغزى الحلبى أديب (۱۲۷۱). جبرائيل بن يوسف المخلع أديب يحسن الفارسية ترجم الكلستان للشيخ سعدى مطبوع (۱۸۵۱ م). عبد القادر العمادى فقيه (۱۲۲۸). عبد الغنى السقطى عالم مفنن (۱۲۳۶). عمر الغزى فقيه (۱۲۷۷). قاسم الحلاق فقيه مفسر محدث شاعر ناثر (۱۲۸۴). كمال الدين الغزى عالم مؤرخ شاعر صاحب التذكرة (۱۲۱۴). محمد المخللاتى فرضى موقت فلكى (۱۲۰۷).

نجيب القلعى فقيه (۱۲۴۱). محمد عابدين صاحب التآليف و الرسائل المتقنة منها حاشيته المشهورة و رسائله و فتاويه و كلها مطبوع.

عبد الغنى الميدانى عالم بالأصول و الفقه و فنون العربية (۱۲۹۹) عبد السلام الشطى شاعر فقيه (۱۲۹۵). مصطفى المغربى التهامى عالم أديب شاعر (نحو سنة ۱۲۸۰).

عبد القادر الحسنى الجزائرى عالم بالتصوف و الأخلاق و له شعر و نثر و تآليف و منها المواقف و رسائل منها مطبوع (۱۳۰۰).

و نشأ فى حلب محمد نور الترمانينى (۱۲۵۰) له عدة شروح على بعض كتب الآلات و الأدب و له شعر و أخوه أحمد الترمانينى (۱۲۹۳) خلّف عدة تآليف و حواش و شروح و منها كتاب الجامع فى الكيمياء. رزق اللّه حسون (۱۸۸۰ م) كاتب شاعر ضليع بالعربية و فنونها و له رسائل جيدة و هو أول من أنشأ صحيفة عربية بالاستانة. و فرنسيس مرّاش الأديب له عدة تآليف

خطط الشام، ج۴، ص: ۶۲

و ديوان شعر (۱۸۷۳ م). عمر الأنسى البيروتى الشاعر الأديب له ديوان مطبوع (۱۲۹۳). أمين الجندى الشاعر الرقيق له ديوان مطبوع (۱۲۵۷).

بطرس كرامة الشاعر له ديوان مطبوع (۱۸۵۱ م). ناصيف اليازجى الشاعر اللغوى الأديب صاحب المقامات و الديوان و غيرهما من كتب النحو و البيان و كلها مطبوعة اشتهر فى هذا العصر كثيرا (۱۸۷۱ م). نقولا الترك شاعر أديب له ديوان شعر و تاريخ حملة الفرنسيس على مصر و الشام مطبوع و غيره. حسين بيهم البيروتى أديب له ديوان شعر (۱۲۹۲). محمد النصرى كان فى حدود المائتين و ألف له مؤلفات كثيرة أشهرها شرح قصيدة كعب. نصر اللّه الطرابلسى شاعر (۱۸۴۰ م). أحمد البربير البيروتى شاعر عالم كبير له

عدة مؤلفات طبع بعضها (۱۲۲۶). حيدر أحمد الشهابى اللبنانى (۱۸۳۴ م) مؤرخ أديب له التاريخ المنسوب إليه المطبوع. محمد أرسلان اللبنانى له مؤلفات فى الفلك و التاريخ (۱۸۶۴ م). ناصيف المعلوف الأديب الكاتب ألف ۳۶ مؤلفا طبع أكثرها.

نوفل نعمة اللّه نوفل الطرابلسى له كتب فى التاريخ و الأدب. عمر اليافى متصوف له ديوان شعر (۱۲۳۴). محمد الدباغ له عدة مصنفات (۱۲۸۸).

العلوم المادية فى منتصف القرن الثالث عشر:

و فى النصف الثانى من هذا القرن بدأت تباشير العلوم الرياضية و الطبيعية، و كانت انحطت انحطاطا أشبه بالاندراس، تقبل على الشام من طريق الديار المصرية، بواسطة النهضة التى انبعثت بعناية محمد على عزيز مصر فإنه أنشأ مدارس للهندسة و الطب و الترجمة و الفنون الجميلة و الحربية و البحرية و غيرها، فتخرج فيها كثير من المصريين و بعض أفراد من الشاميين. و أخذت تسرى من أنوارها أشعة نافعة إلى الشام.

ثم إن الدولة العثمانية أنشأت المدارس العالية فى الاستانة و لا سيما المدرسة الحربية و الطب، و بعد حين أحدثت مدارس الملكية و الحقوق و الزراعة و الهندسة فأخذ بعض أفراد من الشاميين يدرسون فيها و لكن بالتركية، فكان ذلك إلى آخر عهد العثمانيين فى ديارنا من العوائق الكبيرة فى سبيل نشر العلم، لأن الدولة كانت تحرص على نشر لغتها، و أبناء العرب أو من يريد أن يسلك مسالك الجيش و الطب و الإدارة و الهندسة و الزراعة أرغمتهم الحالة على التخلى عن

خطط الشام، ج۴، ص: ۶۳

لغتهم، فجاء أكثرهم ضعافا حتى فى العلم الذى أخصوا فيه، و كانوا أضعف من ذلك فى لغتهم، فلم ينبغ منهم رجال اشتهروا و أفادوا كما نبغ من مدارس الوطنيين النصارى مثل مدرسة عين ورقة الأكايركية التى أنشئت سنة (۱۷۸۹ م) و نبغ فيها كثير من البطاركة و المطارنة و الكهنة من الموارنة فى القرن التاسع عشر. قال الدبس: و من هذه المدرسة خاصة انبعثت علوم اللغتين العربية و السريانية بين نصارى الشام و غيرها من العلوم و الفنون، و مثل مدرسة كفتين للروم الأرثوذكس، و المدرسة الوطنية فى بيروت، و الجامعة الأميركانية فى بيروت التى علّمت زمنا طويلا العلوم بالعربية و منها الطب، فجاء من تلامذتها أفراد خدموا الآداب العربية.

و نشأ فى لبنان بطرس البستانى صاحب دائرة المعارف و محيط المحيط و قطر المحيط و كان يعرف العربية و السريانية و الإيطالية و اللاتينية و العبرانية و اليونانية، و وجد من خديوى مصر إسماعيل و غيره من ملوك المسلمين و أمرائهم تنشيطا على إتمام عمله، كما نشأ فى تلك الحقبة أحمد فارس الشدياق اللغوى المحقق صاحب جريدة الجوائب و كتاب الساق على الساق و كشف المخبا و الجاسوس على القاموس و سر الليال و غيرها و كلها مطبوع، و وجد هذا من عزيز مصر و باى تونس و ملك باهوبال تنشيطا كثيرا. و هنا يقضى الواجب أن نشير بالتكريم للأسرة العلوية المصرية أسرة محمد على الكبير فإن رجالها فى كل دور قد تقيلوا آثار جدهم الأعظم فى الأخذ بأيدى المعارف و بر المؤلفين و الصحافيين و الشعراء فعدوا من دعائم النهضة العربية الأخيرة و العاملين على الأخذ بأيدى العاملين فيها.

العلوم و الآداب فى أواخر القرن الثالث عشر و أوائل الرابع عشر:

و من علماء القرن الأخير و الذى بعده فى دمشق سليم العطار محدث فقيه محمود الحمزاوى فقيه أديب له مصنفات. بكرى العطار إمام العربية و لا سيما النحو و التصريف ثم الفقه و الحديث. حسن البيطار فقيه متفنن. محمد الطنطاوى عالم بالعربية و الأصول و الفقه و الفلك و الميقات. حسن الشطى فقيه. محمد الجوخدار فقيه. عبد اللّه الحلبى فقيه أصولى. أحمد الحلوانى شيخ القراء.

محمد الخانى متصوف فقيه. عمر العطار فقيه عالم بالعربية. عبد الرحمن الطيبى فقيه. محمد المرعشلى أديب و فقيه. عبد الرحمن

البوسنوی عالم بالعربیة.

خطط الشام، ج۴، ص: ۶۴

أحمد فوزی الساعاتی عالم بالعلوم المادیة و الدینیة. عبد المجید الخانی أدیب شاعر. عبد الحکیم الأفغانی عالم بالفقه و الأصول. ملا عیسی الکردی فقیه أصولی. محمد محمود الأتاسی فقیه أصولی. علاء الدین عابدین فقیه أدیب.

صالح قنباز عالم بالتربیة و الطب له عدة رسائل و کتب. عبد اللّه السکری فقیه.

محمد المنینی فقیه محدث. و فی بیروت یوسف الأسیر عالم بالعربیة و الفقه و له شعر و أدب و عدة تآلیف نشر العلوم الإسلامیة و العربیة بین نصاری لبنان (۱۳۰۷). إبراهیم الأحدب عالم بالتفسیر و الحدیث و الأصول و الفقه و اللغة و الأدب و له عدة تآلیف ثلاثة منها دواوین باسمه و نحو ثمانین مقامة و نظم مجمع الأمثال للمیدانی و شرح رسائل بدیع الزمان و هما مطبوعان و غیر ذلک من المقالات فی الصحف (۱۳۰۸). أمین الشمیل حقوقی مؤرخ له عدة تآلیف (۱۸۹۷). إسکندر ابکاریوس له تآلیف فی التاریخ (۱۸۸۵) یوحنا ابکاریوس (۱۸۸۹) له قطف الزهور فی تاریخ الدهور و معجم إنکلیزی مطول. محمد الحوت (۱۲۷۶) فقیه محدث له کتاب فی الحدیث. عبد الغنی الرافعی الطرابلسی (۱۳۰۹) شاعر متصوف. محمد المیقاتی الطرابلسی (۱۳۰۲) شاعر. إبراهیم الحورانی الحمصی (۱۹۱۶ م) أدیب ریاضی فلکی له عدة تآلیف و مقالات و تحقیقات. سلیم کساب لغوی أدیب له عدة مصنفات (۱۹۰۹ م). میخائیل مشاقة الدمشقی ریاضی فلکی موسیقی مؤرخ من رجال الإصلاح الدینی فی النصرانیة (۱۸۸۹ م) له تآلیف. سلیمان الصولة شاعر هجاء له دیوان (۱۸۹۱ م).

یوسف الدبس (۱۹۰۹ م) أدیب له تاریخ سوریة المطبوع. جرجس همام ریاضی أدیب له المعجم العربی الانکلیزی و الکتب المدرسیة و الهندسیة (۱۹۲۰ م).

سعید الخوری الشرتونی لغوی أدیب صاحب معجم أقرب الموارد و غیره من الکتب اللغویة و الأدبیة کان متقنا للفقه الإسلامی. رشید الشرتونی أدیب نحوی کاتب له عدة کتب مدرسیة و غیرها. رشید الدحداح اللبنانی له عدة تآلیف فی التاریخ و نشر تآلیف فیه (۱۸۸۹ م). أدیب إسحاق کاتب مترسل شاعر سیاسی (۱۳۰۳). إبراهیم سرکیس أدیب له بعض الرسائل و المصنفات.

سلیم شحادة مؤرخ و هو أحد مؤلفی کتاب آثار الأدهار المطبوع. أنطون الصقال شاعر کاتب. قاسم أبو الحسن الکسیّ الشاعر الأدیب له دیوان مطبوع

خطط الشام، ج۴، ص: ۶۵

(۱۳۲۲). حسین الجسر فقیه أدیب له عدة مصنفات منها الرسالة الحمیدیة فی الرد علی الدهریین و غیرها من المقالات فی الصحف و منها فی الأخلاق و الأدب (۱۳۲۷). یوسف ضیا الخالدی المقدسی له عکاظ الأدب و التحفة الحمیدیة فی اللغة الکردیة. روحی الخالدی له عدة تآلیف منها علم الأدب عند الأفرنج و العرب. طاهر الجزائری العالم بالتفسیر و الحدیث و الفقه و الأصول و الفلسفة و التاریخ و الأدب و اللغة له بضعة و عشرون مصنفا مطبوعة فی فنون مختلفة و له التفسیر و معجم اللغة و غیره مما لم یطبع و کنانیش فیها آراؤه و مطالعاته یحسن الفارسیة و التورکیة و یلم بالحبشیة و السریانیة و العبرانیة و الفرنسیة (۱۳۳۹).

محمد المبارک متصوف أدیب لغوی شاعر ناثر له رسائل أدبیة مطبوع بعضها (۱۳۳۰). محمد مرتضی متصوف فقیه أدیب کاتب شاعر. عبد الرزاق البیطار فقیه أدیب له تاریخ رجال عصره مخطوط. جمال الدین القاسمی فقیه محدث أصولی أدیب شاعر کاتب له تفسیر القرآن و عدة کتب فی الإصلاح الإسلامی و تاریخ دمشق و بعضها مطبوع (۱۳۳۲). عبد اللّه الحموی شیخ القراء. شاکر الحمزاوی فقیه. شبلی شمیل فیلسوف کاتب أدیب طبیب له تآلیف و آثار فی النشوء و الارتقاء و الفلسفة. جرجی زیدان مؤرخ کاتب قصصی له عدة مصنفات منها روایات تاریخیة و تاریخ التمدن الإسلامی و آداب اللغة العربیة (۱۹۱۴). رفیق العظم مؤرخ اجتماعی کاتب له عدة مصنفات منها أشهر مشاهیر الإسلام (۱۳۴۳). سلیم التنیر کاتب باحث له تآلیف و رسائل.

و مات من الفقهاء خالد الأتاسی. أبو الخیر عابدین. أمین السفرجلانی أدیب له بعض تآلیف. أحمد الزویتینی الحلبی (۱۳۱۶) الفقیه. أحمد صلاح.

محمد الزرقا. صالح الرافعی. أحمد الصدیقی. طاهر الحسینی. یوسف الإمام.

خلیل التمیمی. محیی الدین الحسینی. ابراهیم أبو رباح. بشیر الغزی. مصطفی کرامة. صلاح الدین الدین تفاحة. محیی الدین الیافی. حسین العمری إلی أمثالهم.

و هلک فی هذا القرن من الشعراء و الکتاب و الکاتبات و الأدیبات سلیم قصاب حسن شاعر له دیوان مطبوع. نجیب حداد شاعر کاتب قصصی (۱۸۹۱ م) (۴- ۵)

خطط الشام، ج۴، ص: ۶۶

داود عمون شاعر أدیب. یوسف خطار غانم، محمد الهلالی شاعر. إسکندر عازار. نعوم شقیر له مؤلفان فی تاریخ سینا و السودان مطبوعان. أمین حداد.

نعوم لبکی. أنطون رباط. أبو الخیر الطباع. محمد علی حشیشو. جرجی دیمتری سرسق. فرح أنطون له عدة تآلیف و ترجمات مطبوعة. إسکندر شاهین له عدة کتب مترجمة. شاکر شقیر کاتب شاعر. محمد أرسلان.

عمر حمد شاعر. عمر الیافی. محمود الشهال شاعر. نقولا رزق اللّه. جمیل مدور. نوفل نوفل. أمین الشمیل. صلاح الدین القاسمی. شاکر الخوری له کتاب هزلی. أحمد الصابونی له تاریخ حماة مطبوع. محیی الدین الخیاط کاتب له عدة کتب مدرسیة. حسن رزق. حسن بیهم کاتب متفنن. سلیم سرکیس کاتب هزلی. عبد الوهاب الإنکلیزی. سلیم الجزائری. شکری العسلی له عدة رسائل اجتماعیة و أدبیة. رشدی الشمعة شاعر کاتب. أحمد طبارة. عارف الشهابی. عبد الغنی العریسی. جرجی حداد. سعید عقل.

باترو باولی. رفیق رزق سلوم. فیلیب الخازن. فرید الخازن. محمد المحمصانی عبد الحمید الزهراوی. عبد القادر المؤید. حسین وصفی رضا. بشارة زلزل له عدة کتب فی الطب و غیره. محمد عبد القادر الحسنی. محیی الدین الحسنی له مؤلفات. شاکر عون. سلیم بسترس. سلیم تقلا. سلیم عباس. سلیم البستانی.

أسعد الشدودی. عبد الغنی الرافعی. شاکر أبو ناضر. خلیل باخوس. سلیم باز.

سلیم جدی. فیلیب جلاد. نجیب حبیقة. یوسف حرفوش. أمین الخوری.

یوسف دریان.

و هلک من النساء فی العهد الأخیر عفیفة کرم. وردة الیازجی. عفیفة اوزون. زینب فواز. وردة الترک. هیلانة البارودی. سلمی قساطلی. هنا کسبانی. مریانا المراش. سارة نوفل. فریدة عطیة.

المعاصرون من العلماء و الأدباء:

و من شیوخنا و کهولنا و شبابنا و نسائنا من اشتغلوا بالعلوم و الآداب علی اختلاف أنواعها و ممن اشتهر منهم: (۱) علماء الدین و الفقه و القضاء: سلیم البخاری. رشید رضا. بدر الدین الحسنی. عبد اللّه العلمی. عبد اللّه الجزار.

خطط الشام، ج۴، ص: ۶۷

مسعود الکواکبی. سعید العرفی. سعید مراد الغزی. مصباح محرم. عبد المحسن الأسطوانی. أحمد عباس. محسن الأمین. جرجس صفا. عطا الکسم. سعید النعسان. سعید البانی. بهجة البیطار. طاهر الأتاسی. یوسف النبهانی. محمود منقارة. عبد الکریم عویضة. عبد اللطیف نشابة. عبد الحمید الجابری. عبد القادر بدران. عبد القادر القصاب. طاهر المنلا الکیالی. أحمد النویلاتی.

خالد النقشبندی. نجیب قبانی. عبد الکریم حمزة. محمد الأسطوانی. محمد الکستی. إبراهیم هاشم. سلیمان أحمد. طاهر أبو السعود.

یوسف الإمام الحسنی. محیی الدین الخانی. عیسی العکرماوی. منیب هاشم. نمر الداری فهمی الحسینی. عادل زعیتر. أحمد الزرقا. نجیب أبو صوان. مصطفی برمدا. حسن الشطی. عونی عبد الهادی. معین الماضی. یوسف الخیری.

أمین عز الدین. إسماعیل حافظ. میخائیل عید البستانی. مصطفی الخانی. مصطفی نجا. فوزی الغزی، فتح اللّه أدیب. علی الکیالی. عبد المجید المغربی. محمد الحسینی. محاسن الأزهری. توفیق الدجانی. خلیل الخالدی.

و من المتفردین بالقراآت فی دمشق: محمد الحلوانی. عبد اللّه المنجد.

أحمد دهمان. محمد القطب. عبد الرحیم دبس وزیت و غیرهم.

(۲) العلوم الفلسفیة و المادیة: یعقوب صروف. منصور جرداق. جودت الهاشمی. مصباح حولا. فارس الخوری. سعید البحرة. رشدی سلهب.

درویش أبو العافیة. شکری خلیفة. أمین معلوف. عبد الوهاب المالکی.

أمیل خاشو. یوسف افتیموس. إبراهیم الدادا. وجیه الجابری. فیکتور کورنلی. إسماعیل باقی. أحمد رستم. مصطفی الشهابی. وصفی زکریا.

جمال الفرا. یوسف قدورة. محمد الترمانینی. صلاح الدین الکواکبی. مصطفی تمر. هاشم الفصیح. عبد الوهاب القنوانی. أسعد الحکیم. سعید شقیر. أحمد حمدی الخیاط. مرشد خاطر. جمیل الخانی. حسنی سبح. محمد محرم. شوکة الشطی. جمیل صلیبا. جعفر الحسنی و غیرهم.

(۳) العلوم الاجتماعیة و التاریخیة و الحقوقیة: شکیب أرسلان. فارس نمر. داود برکات. خلیل ثابت. عیسی إسکندر المعلوف. نقولا حداد.

محمد رستم حیدر. نسیم صیبعة. سعید حیدر. جرجی یی. عمر الصالح البرغوثی

خطط الشام، ج۴، ص: ۶۸

خلیل طوطح. میخائیل ألوف. قسطنطین الباشا. سلیم شحاده. نجیب صلیبا.

رفیق التمیمی. أسد رستم. راشد طبارة. أسعد منصور. سعید المحاسنی.

زکی الخطیب. عارف الخطیب. قسطنطین زریق. حبیب الخوری.

روحی عبد الهادی. حسن فهمی الدجانی. أحمد سامح الخالدی. ساطع الحصری. حسن یحیی الصبان و غیرهم.

(۴) الأدباء: عبد اللّه البستانی. لویس شیخو. أسعد خلیل داغر. سلیم الجندی. إسعاف النشاشیبی. عارف النکدی. کامل الغزی. قسطاکی الحمصی.

الخوری بطرس البستانی. مصطفی الغلاییینی. رشید عطیة. أمین ظاهر خیر اللّه.

حنا صلاح. رشید بقدونس. أنیس المقدسی. جبر ضومط. جرجس منش.

أحمد رضا. سلیمان ظاهر. عزة دروزة. بندلی الجوزی. عبد الرحمن سلام.

عبد القادر المغربی. عبد القادر المبارک. إبراهیم منذر. أنیس الخوری المقدسی.

میخائیل صقال. نجیب میخائیل ساعاتی. جرجس شلحت. سامی جریدینی.

حسنی عبد الهادی. راغب الطباخ. سامی الکیالی. عز الدین علم الدین. عبد اللّه النجار. عمر الأتاسی. أبیفانیوس زائد. علی ناصر الدین.

عبد اللطیف صلاح. عبد اللّه مخلص. عمر الزعنی. حبیب کحالة. عارف الزین. فیلیب طرازی. راجی الراعی. جمیل معلوف. عمر الفاخوری.

جرجی باز، أحمد صلاح الدین. أحمد عبد المهدی. یوسف زخم. جمیل الشطی. صبحی القوتلی. توفیق ناطور. أنطون جمیّل. نزیه المؤید. لویس معلوف. شکری الجندی. وصفی الأتاسی. أمین الحشیمی. أنیس النصولی.

أدیب التقی. جودت الکیال. محمد الداودی. أحمد عبید. حمود الزبرؤتی.

منح هارون. فائز الغصین. سامی العظم. خالد الحکیم. وجیه بیضون.

نجیب الریس. شریف عسیران. أدیب الصفدی. أدیب فرحات. سعید الصباغ جمال الملاح. أدیب وهبة. عبد الغنی باجقنی. عارف التوام. فوزی العظم.

حسن الحکیم. الیاس القدسی. عبد اللّه رعد. صبحی أبو غنیمة. میشل بیطار.

إبراهیم حرفوش. توفیق حمادة. عبد اللّه خیر. سلیم خطار الدحداح. حکمة المرادی. یوسف الیان سرکیس. یوسف صادر. أنطون صالحانی. جودت المارديني. نعیم صوایا. إسکندر طحینی. بولس عبود. إمیل عرب. یوسف

خطط الشام، ج۴، ص: ۶۹

علوان. یوسف غصوب. جبرائیل قرداحی. یوسف قیقانو. نجیب مخلوف.

فیلیب مسک. أمین مشحور. حلمی مصری. عیسی بندک. شکری کنیدر.

عبد اللّه صفیر. حبیب زیات. أحمد عمر المحمصانی. محمد علی الطاهر.

یوسف حیدر. أنطون شعراوی. توفیق الحلبی. توفیق جانا. أسعد ملکی.

رزق حداد. عباس أبو شقرا. طه مدور و غیرهم.

(۵) الکتاب: عبد الباسط فتح اللّه. خلیل زینیة. خلیل سعادة. خلیل سعد. سامی قصیری. نعوم مکرزل. یوسف الخازن. عبد اللّه الأسطوانی.

نجیب شاهین. أمیل زیدان. إبراهیم سلیم النجار. یوسف العیسی. بدر الدین النعسانی. عادل أرسلان. محمد الجسر. توفیق الیازجی. ادوارد مرقص.

أمین الریحانی. مصطفی الخیری. محمد علی السراج. محب الدین الخطیب. سلیم قبعین. میخائیل نعیمة. بولس الخولی. جبران توینی. جبران خلیل جبران.

شحادة شحادة. أمین غریب. فؤاد صروف. سعید أبو جمرة. یوسف البستانی خلیل السکاکینی. عادل جبر. نجیب نصار. رشدی الحکیم. عیسی العیسی.

سلیم ابکاریوس. أمین الکیلانی. سعید الزهور. خلیل بدوی. خلیل بیدس.

بطرس غالب. ناجی أدیب. وجیه الکیلانی. سعید الأفغانی. صلاح الدین المنجد نجیب الریس. سامی کبارة. جبران تونسی. خلیل کسیب. علی الطنطاوی.

کاظم الطاغستانی. عمر الطیبی. أمین الحلبی. راشد البیلانی. عبد الهادی الیازجی. فارس فیاض. أحمد شاکر الکرمی. أحمد کرد علی. معروف الأرناؤط. عبد الحسیب الشیخ سعید. نجیب الیان. ایلیا زکا. نجیب شقرا.

زکی مغامز و أمثالهم.

(۶) الشعراء: فؤاد الخطیب. أمین ناصر الدین. خلیل مطران. خیر الدین الزرکلی. خلیل مردم بک. شفیق جبری. سلیمان التاجی. عبد الحمید الرافعی. مصباح رمضان. طانیوس عبده. الیاس فیاض. سلیم عنحوری.

محمد الشریقی. نوفل الیاس. محمد البزم. جرجی عطیة. بشارة الخوری.

شبلی ملاط. أمین تقی الدین. رشید نخلة. محمد سلیمان. أسعد رستم. فخری البارودی. نسیب أرسلان. إیلیا أبو ماضی. حلیم دموس.

أبو السعود مراد.

عبد الرحمن القصار. كامل شعيب. عارف الرفاعى. نديم الملاح. محمد

خطط الشام، ج۴، ص: ۷۰

الفراتى. عبد الرحيم قليلات. جميل العظم. إبراهيم الشدودى. حسين الحبال.

أمجد الطرابلسى. جميل سلطان. زكى المحاسنى. عمر أبو ريشة و غيرهم.

(۷) الخطباء: عبد الرحمن شهبندر. أسعد الشقيرى. أسعد عفيش.

نقولا- فياض. غريغوريوس حداد. حبيب أسطفان. أنيس سلوم. فيلكس فارس. حنا خباز. عبد الرزاق الدندشى. مصطفى الشماع. محمود النحاس.

بدر الدين الصفدى. أفرام أبيض. عبد الرحمن الكيالى. سامى السراج و غيرهم.

(۹) الكاتبات و الشواعر و الخطيبات: مارى زيادة. مارى عجمى. سارة خطيب. لبيبة هاشم. نجلا أبو اللمع. سلمى صائغ. جوليا طعمة. عفيفة صعب. عنبرة سلام. مسرة الأدلبى. مارى ينى. هيلانة البارودى. فاطمة سليمان. ابتهاج قدورة. بهيجة المؤيد. خيرية ترمانينى و غيرهن.

تأثيرات الأجانب فى التربية:

من المعاهد التى خرجت أناسا بالعربية و الفرنسية كلية القديس يوسف اليسوعية فى بيروت، و كان أول نزول الآباء اليسوعيين فى الشام سنة (۱۶۵۳ م)، فأسسوا مدرسة عينطورا بلبنان التى أخذها الآباء اللعازريون بعد مدة (۱۸۳۴ م) و خرجت كثيرا من الأدباء باللغة الفرنسية فقط. و قد ضعفت فى هذا القرن ملكة البيان فى المسلمين. و هم يتلون القرآن و لكن بدون أن يتدبروا معانيه و يفهموا إعجازه، حتى أصبح الفقيه و المحدث و النحوى و المنطقى لا يحسن كتابة سطرين إلا بصعوبة. و يتعاصى عليه فهم الكلام الفصيح دون الرجوع فى المفردات البسيطة إلى المعاجم، و ضعف الشعر على تلك النسبة بحيث لم ينبغ إلا أفراد قلائل من الشعراء يستحق شعرهم أن يسمع و يدون، بل كانوا إذا أرادوا الخطب فى الجوامع و المساجد يحفظون شيئا منها لأهل العصور التى سلفت و يوردونها بدون مناسبة، بل إن الإجازات التى يكتبها الشيوخ و غيرها من التحميدات و التقاريظ و أدعية المواسم ينقلونها عن الأقدمين و يحرفونها على صورة مستكرهة، و قد قويت فى هذا العصر قاعدة خبز الأب للابن، و كان المفتى أبو السعود من مشايخ الإسلام فى الإستانة أول من ابتدعها و أخرجها للناس، فأصبح التدريس و التولية و الخطابة و الإمامة و غيرها من المسالك الدينية

خطط الشام، ج۴، ص: ۷۱

توسد إلى الجهلة بدعوى أن آباءهم كانوا علماء، و هم يجب أن يرثوا وظائفهم و مناصبهم و إن كانوا جهلة، كما ورثوا حوانيتهم و عقارهم و فرشهم و كتبهم.

بل بلغت الحال بالدولة إذ ذاك أن كانت تولى القضاء للأميين، و كم من أمى غدا فى دمشق و حلب و القدس و بيروت قاضى القضاة، أما فى الأقاليم فربما كان الأميون أكثر من غيرهم، لأن أخذ القضاء فى دار الملك كان متوقفا على بذل شىء من الرّشى، فيصل إليه أجهل الناس و بذلك فترت الهمم، و انصرفت الرغبات عن تعلم علوم الدين، لأن الجاهل و العالم سواء، و من يحسن المصانعة و الرشوة و يمتّ إليهم بأسلوب من أساليب الشفاعة.

و أصبح الشعر عبارة عن شبكة يتعلم صاحبها نصبها ليتزلف بها إلى الكبراء و أرباب الدولة، و الشاعر كطبال أو زامر أو قرّاد يغنى و يلعب أمام من يعطيه دريهمات قليلة. و هناك شبكة رسمية أخرى يصطاد بها المال و هى أن من حفظ قواعد النحو و الصرف فى كتب لهم معينة و انقطع إلى مدرسة من المدارس، و جاز الامتحان ست سنين على أسلوب لهم مخصوص يعفى من الخدمة

العسكرية، فتعلم بذلك كثيرون، و من فهموا ما تعلموه جاء منهم بعض فقهاء و أدباء، ثم أبطل ذلك فى العقد الثانى من القرن الرابع عشر.

و بينا كانت مدارس العلم فى حلب و حماة و دمشق و طرابلس و القدس و غيرها آخذة بالأفول و الاندراس، و المسلمون أو الذين خرجوا من الأمية بعض الشىء من أهل هذه الديار يولون وجوههم قبل المناصب الدينية و الإدارية و العسكرية، كان إخوانهم المسيحيون يتعلمون فى مدارس نظامية فى الجملة، جعلت تدريس العربية و آدابها و اللغات الحية أول بند من منهاج الدراسة فيها، فجاء من أبنائهم و من أخذ العلم عنهم من سائر الطوائف جماعات يذكرون فى التاريخ بحسن بلائهم فى خدمة الآداب، و منهم أفراد نزحوا إلى مصر و اميركا و تولوا الأعمال الكبرى و أظهروا آثار قرائحهم و نبوغهم و لا سيما فى القرن التالى، و بطلت القاعدة التى كان وضعها بعض ضعاف النظر من تقبيح نحو النصارى و غناء اليهود، فأصبح بالتعلم من النصارى نحاة ثقات، و من اليهود مغنون و مغنيات، أى أن الزمن أبطل ذاك الزعم.

خطط الشام، ج۴، ص: ۷۲

الآداب فى القرن الرابع عشر:

اختص القرن الرابع عشر بأن تجلت فيه فائدة العلم لعامة الشعب، فصار المقتدرون من الناس يلقون بأولادهم لأى مدرسة كانت ليأخذوا العلم منها، و دبت الغيرة فى نفوس المسلمين فأنشأوا بعض المدارس الأهلية مثل مدارس المقاصد الخيرية و غيرها فى بيروت و صيدا و دمشق و حماة و حمص و حلب و طرابلس فخرّجت هذه المدارس مئات من المتأدبين كما خرّجت المدارس الطائفية مثل مدرسة البطريركية الكاثوليكية و مدرسة الحكمة المارونية فى بيروت.

و كان الفضل فى هذه النهضة الشامية أولا لمدارس لبنان و بيروت و عناية بطاركة الموارنة و مطارنتهم و أساقفتهم و قسيسيهم بالعلم و اللغة. أما العلوم الطبيعية و الرياضية و الطبية فانبعثت جذوتها من الجامعة الاميركية أكثر من غيرها، و لو لم تبطل تدريس العلوم بالعربية و تجعله إنكليزيا لتضاعفت الفائدة التى نشأت من هذه المدرسة العالية، و كان من أستاذين من أساتذتها الدكتور فانديك الاميركانى و الدكتور و رتبات الأرمنى فضل على العربية بما كتباه فى العلوم المختلفة باللغة العربية و كذلك كان شأن بوست الامبركانى فإنه ألف كتبا علمية نافعة بلغتنا فعدّ منا، و كذلك فعل بورتر و غيره.

إن المدارس الطائفية و مدارس المرسلين من الأميركيين و اليسوعيين و غيرهم من الأمم ذات المطامع فى الأرض المقدسة قد جعلت التربية متلونة فأصبح كل متعلم يخدم الغرض الذى أنشئت له مدرسته، و انقسمت الأمة بهذا الضرب من التعلم أقساما، و تباعدت مسافة الخلف بين أبناء البلد الواحد، لاختلاف المذاهب بل للاختلاف فى المذهب الواحد مما لم يكن له أثر يذكر فى غابر العصور، و لأن معظم المدارس التى أنشأها غير الوطنيين من الشاميين كان العامل فى تأسيسها مذهب خاص فى الدين و السياسة، فالإنجيليون أو البرتستانت تنتشر دعوتهم كل يوم، و اليسوعيون ينزعون منزعا آخر فى التربية الدينية و السياسية، و هكذا لو أردنا أن نعدد أسماء الجمعيات الدينية التى تعلم المسيحيين فى الشام لما رأيناها تقل عن ثمانين إرسالية. و منها ما ينزع من المتعلم حب قوميته

خطط الشام، ج۴، ص: ۷۳

و بلاده، و كم رأينا رجالا و نساء درسوا فى تلك المدارس فجاؤوا لا عرب و لا إفرنج، يتكلمون فى بيوتهم بغير لغتهم، و لا يشعرون شعور الشامى، بل يبغضون تقاليدهم و تاريخهم، و لذلك صح أن يقال إن تلك المدارس لم تنفع النفع المطلوب، بل نفعت الشركة التى قامت بتأسيسها بأن هيأت لها فى هذه الديار أنصارا.

و بينا نرى بعض المسلمين يكتبون التركية كأهلها و شعورهم تركى صرف و لم ينفعوا الشام بشىء كثير من علمهم، نشاهد كثيرين ممن درسوا فى مدارس الرهبان و القسيسين و الحاخامين و المدارس العلمانية الفرنسية يكتبون الفرنسية أو الإنكليزية أو الألمانية أو

الروسية أو اليونانية أحسن من كتابتهم لغتهم بدرجات و كل هؤلاء لم يستحق أحدهم اسم العالم و الأديب، بل إن معظمهم قد اسودت الشام الجميلة فى عينه، و هجرها إلى أرض أخرى. إن الشامى المتأدب فى الجملة بآداب قومه يحب لغته و يغار عليها، و لذلك أسس عدة صحف و مجلات راقية فى مصر و المهجر من أميركا الشمالية و الجنوبية و حبب المطالعة بالعربية إلى من نزل عليهم، أو إلى من هاجروا من الشاميين بحيث لا تقل صحفنا و مجلاتنا العربية خارج الديار الشامية عن خمسين جريدة و مجلة حية، و ما ندرى إن كانت هذه الهمة تظل على حالتها بعد انقراض هذا الجيل، فإن الجيل الجديد من الشاميين فى أميركا الشمالية و الجنوبية قلما يعرف العربية بل هو يتكلم بالإنكليزية أو الاسبانية أو البرتغالية. و أعظم نقص فى المدارس الأميرية و الطائفية و الأجنبية أن الأولى تصوغ موظفين و الثانية و الثالثة تهىء المتخرجين على معلميها إلى الهجرة، و تباعد بين أبناء الوطن الواحد و تبث مبادىء اجتماعية لا تنطبق على حالتنا.

نعم تمت بالشاميين كما قلنا مرة (المقتبس المجلد الخامس) دواعى التفريق فى الوطنية و ضعفت ملكتها فيهم بقوة المدارس غير الوطنية فى ديارهم. فإن كانت هذه المدارس قد نفعت الشام بما أدخلته إليها من النور، فقد أضرتها بانحلال عقدة الوطنية، فمدارس الأميركان و الروس و اليونان و الفرنسيين و الإنكليز قد أصلحت و أفسدت. أصلحت بتلقين من تخرجوا فيها شيئا من معارف الغرب، و أضعفت فى نفوسهم حب الوطن بتحبيبها إليهم أوطانا غير أوطانهم،

خطط الشام، ج۴، ص: ۷۴

و تعريفهم إلى رجال غير رجالهم. و العاقل من حرص على نفع أمته قبل كل نفع، و انتفع بما عنده قبل أن يتطال إلى ما عند غيره. و من زهد فى لغة آبائه و جدوده كان حريا بالزهد فى وطنه و وطنيته. و اللغة و الوطن يصح أن يكونا اسمين لمسمى واحد. جنت مدارس الأجانب و الحكومة أعظم جناية، لأن المتخرجين فيها و معظمهم من الذكاء على جانب لم ينفعوا الدولة و لم ينفعوا الأرض التى ولدوا فيها. إن المدارس غير العربية فى الشام أشبه بالسارق الذى يسرق الأعلاق و نفائس المتاع، أستغفر اللّه بل إن من يسرق فلذات الأكباد، ليخرجها على ما أراد، أشق على النفس و طأة، و أعظم فى المغبة أثرا. و هل يقاس سارق الأموال بسارق الأطفال و الرجال؟ أوليست الأرواح أثمن من كل بضاعة، و هل أعز من الولد على قلب أبويه. إن المدارس التى تعلم على غير الأسلوب الوطنى هى التى تسلب من الشام اليوم بعد اليوم روحها، و ناهب الروح ماذا يدعى فى الشرع و العقل. و لم يبلغ البشر درجة من التمدن حتى تتساوى فى عيونهم اللغات و العناصر كلها، و تتجرد أمة فتفنى لإحياء غيرها، و تقلل جنسيتها لتزيد سواد أخرى، و لا تهمها دارها و تريد هدمها لتعمر بأنقاضها دار جارها.

فى نحو سنة (۱۲۷۸) فتحت حكومة حلب المدرسة المنصورية و هى أول مدرسة أميرية أنشئت فى حلب. و أنشأ مدحت باشا فى دمشق سنة (۱۲۹۵ ه) ثمانى مدارس ابتدائية للذكور و الإناث و دار صنائع، و أسس مثل ذلك فى أعمال ولايته الواسعة، و ما برحت المعارف مذ ذاك العهد تعلو و تسفل و الحكومة لا تطلب من المدارس الابتدائية و الثانوية إلا أن تخرج لها طبقة من الموظفين ملكيين و عسكريين يكونون أتراكا بألسنتهم لا بقلوبهم، عثمانيين بتربيتهم لا بأصولهم، و قد أخذ دعاة تتريك العناصر يقاومون العربية سرا، فما هى إلا أعوام حتى أصبح معظم الدارسين فى مدارس الحكومة يخرجون بعد درس عشر أو خمس عشرة سنة، و هم لا يحسنون لغتهم و لا لغة الدولة الرسمية،

خطط الشام، ج۴، ص: ۷۵

فضلا عن اللغة الفرنسية التى كان تعلمها إذ ذاك رسميا فى الظاهر صوريا فى الحقيقة، على مثل ما كانت اللغة العربية فى مدارس الحكومة، و كان يندر بين من تخرجوا فى هذه المدارس من يعانى الصناعات الحرة، و معظم من أتموا تعلمهم فى مدارس الحكومة العثمانية نشأوا مستعدين للوظائف فقط.

و ما فتئت مدارس الحكومة بعد خمسين سنة من تأسيسها غير وافية بالغرض من بعض الوجوه. و جعل التعليم بالعربية عقبى خروج

الدولة العثمانية من هذا القطر، و روحها لم تبرح تلك الروح التركية، لأن معظم المعلمين ممن تعلم بالتركية و تخلق بالأخلاق التركية، و قد حاولت إدارات المعارف فى الديار الشامية نزع الروح القديم و تنشئة المعلمين نشأة عربية، و ليس فى الوسع أن يشيب المرء إلا على ما شب عليه، و فاقد الشيء لا يعطيه، و لم تهتد مدارس الحكومة حتى اليوم إلى إيجاد مثال من التربية يلتئم مع ماضى الأمة العربية و ينفعها فى حاضرها و مستقبلها، و تغذية العقول غذاء كافيا ينفعها فى استخراج ثمرات الأرض و كنوزها و التفنن فى صنعها و وضعها، و تجديد برامج التعليم من الزوائد التى يستغنى عنها فى باب تربية الفتاة و الصبيّ. أما التعليم الدينى عند المسلمين فهو أحط تعليم، أصيبوا بذلك بعد خراب المئات من المدارس الدينية فى القطر و أكل أوقافها، و قد تغافلت الدولة التركية عن إنهاضها، و لم يتهيأ لها فى الدور الحديث من يفكّر حقيقة فى إصلاحها، و إذا درس المشايخ الدروس النظامية، و تأهلوا للقضاء و الفتيا و التعليم أهلية حقيقية، تنحل بتعليمهم التاريخ و الرياضيات و الطبيعيات و الاجتماعيات مشاكل كثيرة. و من العجيب أن مدينة كدمشق لا يقل سكانها عن ثلاثمائة ألف نسمة كان فيها فى الثلث الأول من القرن العاشر نحو ثلاثمائة مدرسة و معهد مختلفة الشكل- عدا الكتاتيب الملحقة بالجوامع- تقرأ فيها دروس العلم و الأدب و الطب و الهندسة، ليس فيها اليوم درس دينى واحد يقرأ بصورة مطردة، و لذلك بلغت العلوم الشرعية درجة من الضعف تضحك و تبكى، و بلغت أكثر وظائف الوعظ و التدريس و الخطابة و الإمامة من السخف ما نسأل اللّه معه السلامة.

و قد جبرت حلب هذا النقص فتولى مفتيها بمعاونة ناظر أوقافها كبر هذا الأمر، فوضع برنامج لتدريس العلوم الآلية و الدينية مدة اثنتى عشرة

خطط الشام، ج۴، ص: ۷۶

سنة، و نزل الطلبة فى المدارس: المدرسة الخسروية و المدرسة العثمانية و الشعبانية و القرناصية و الإسماعيلية، و ربطت لهم رواتب تعاونهم بعض الشيء على ما هم بسبيله، يتقاضونها من أوقاف تلك المدارس و يقرأ الطلبة اليوم على أساتذة تلك المدينة على نظام فى الجملة و يرجى أن يكون منهم علماء دينيون و متأدبون.

أما علماء الدين عند المسيحيين و الإسرائيليين فأخذوا يتعلمون فى مدارس لهم نظامية فى روسيا أو إيطاليا أو أميركا و غيرها فلا يرقى فى الأغلب إلى الرئاسة الدينية عندهم إلا من توفرت فيه شروط العلم و النباهة، و يكون على الأغلب بانتخاب أقرانه، و لذلك جاء البون شاسعا بين عقلية علماء الدين من المسلمين و عقلية غيرهم من أرباب الأديان، و غدا أرباب الإنصاف يقولون بالرئاسة الدينية فى الإسلام على النحو الذى هى فى النصرانية، لأنه ثبتت فوائدها فى تثقيف العامة و جمع كلمة الخاصة، و لأن الحكومات ليس من شأنها أن تعلم إلا البسائط العامة المشتركة، و الأمور الأخرى من شأن زعمائها الذين تعتقد فيهم صلاحها. و من أغرب الحالات أن مدارس الحكومة فى جميع المقاطعات الشامية لا يتعلم فيها غير المسلمين، أما سائر الطوائف فلا يعتمدون فى تعليم أبنائهم على غير مدارسهم أو على مدارس المبشرين. و بهذه الطرق المختلفة فى مناحى التربية يستحيل أن يجتمع أبناء الوطن على مقصد واحد، لأن كل فرد يتعلم النفرة من مخالفه فى معتقده، و خصوصا فى مدارس بعض الرهبنات التى تهزأ بالإسلام و العرب، و تحرّف التاريخ الصحيح و لا تعلم منه إلا- ما ينطبق مع رغائبها، و لا يفيد شيئا فى تكوين الوطنية و القومية، و لو اتحدت التربية و اشترك جميع أبناء الشام فى التناغى بها و الاعتماد عليها، لا تلبث هذه الأمة خمسين سنة أن تخرج سماؤها سلسلة طويلة من الرجال يرفعون مستوى العقل فيها، ارتفاعه عند أمم الحضارة فى الغرب، و يؤثرون فيها كما أثر أجدادنا فى مجموع الحضارات الحديثة. و عندنا أن لا نهضة فى الأخلاق و العلم و الشؤون الاقتصادية و الاجتماعية إلا إذا تعلم المسلمون تعليما صحيحا، لأنهم ستة أسباع السكان، و الثروة الثابتة ملكهم، و هذا لا يتم إلا إذا تعلم أبناء غير المسلمين مع أبناء المسلمين تعليما وطنيا واحدا.

خطط الشام، ج۴، ص: ۷۷

الجامعات و الكليات:

احتفل الصهيونيون (سنة ۱۳۴۳ ه) بإنشاء جامعتهم العبرية فى القدس يعلمون العلوم باللغة العبرانية و لا تمضى خمس عشرة سنة حتى تنبعث الديانة اليهودية و المدنية اليهودية من مراقدها، كما انبعثت منذ القرن الماضى فى بيروت شعلة المدنية الأميركية و المذهب الإنجيلى من الجامعة الأميركية، و انتشرت المدنية الفرنسية و الكثلكة من كلية القديس يوسف اليسوعية.

و فى (۱۵ حزيران ۱۹۲۳ م) أسست فى دمشق الجامعة السورية و هى ذات فرعين الطب و الحقوق لتكون جامعة عربية للشام بالمعنى الذى يفهمه العلماء من الجامعات ثم أضيفت إليها شعبة الآداب و ألغيت بعد سنين، و ما زالت اللغة العامية شائعة فى مدرستى الطب و الحقوق، لأن معظم المدرسين من الطبقة التى لا تقيم للعربية وزنا، فقد تخرجت فى مدارس الترك لتكون من الموظفين فى الحكومة العثمانية، و لم تعن بالمطالعة و البحث و لا بالتأليف و الترجمة، و بعض الشهادات التى كان العثمانيون يعطونها من مدارسهم مشهور أمرها، و من الغريب أن توسد هذه الأعمال العلمية الجليلة إلى أناس هم أتراك فى تربيتهم و أفكارهم و منازعهم فى صميم بلاد العرب، و فى جامعة عربية يراد منها تكوين أمة عربية. و يرجى إدخال الإصلاح المنشود إلى هاتين المدرستين العاليتين إذا و سدت مناصب التعليم فيهما إلى كفاة، يحسنون العربية إحسانهم العلم الذى يدرسونه و أن تصقل أماليهم بأيديهم صقلا متقنا بحيث تصدر دروسهم عن علم أتقنوه و تمثلوه و هضموه و صار لهم ملكة خاصة، لا مترجمة فى الأكثر عن التركية ترجمة جذماء عوجاء كما يفعلون إلى اليوم، و متى كانت اللغة التركية لغة علم و عنها يؤخذ فى مثل هذا العصر، و المعلوم أن لغات العلم ثلاث الإنكليزية و الفرنسية و الألمانية ليس إلا، و متى كانت تربية الأعاجم تصلح للأمة العربية التى يجب أن تتكون بحسب تاريخها و منافعها الحاضرة و المقبلة.

و بعد عشرين سنة مضت على هذا التدوين ارتقى مستوى التعليم فى الجامعة السورية و ارتقت اللغة العربية فيها باعتزال من ربوا تربية تركية و وسد إليهم أمر التعليم لأول إنشائها و جاء أساتذة أتقنوا العربية و آدابها و هم اليوم يلقون دروسهم

خطط الشام، ج۴، ص: ۷۸

بلغة أقرب إلى الفصحى و قد وضعوا التآليف فى الطب و الحقوق بلغة عربية مقبولة.

و لا سبيل إلى الانتفاع بالجامعة السورية نفعا حقيقيا يتفق مع شهرة الديار الشامية القديمة بالعلم- إلا إذا تمت فروعها فأنشئت فيها مدرسة للآداب و أخرى للعلوم و ثالثة للإلهيات، و بذلك تتم فروعها و تنبعث منها أنوار الحكمة المشرقية و المغربية، و لا غضاضة علينا إذا جئنا من مصر و ديار الغرب بعلماء إخصائيين فى الفروع التى لا نحسنها من ضروب العلم، نتعلم منهم طريقتهم فى البحث و الدرس و التحليل و التركيب، فالقطر المصرى و هو أسبق منا فى العلوم ما زال إلى اليوم يأتى من الغرب بعلماء يوسد إليهم الإدارة و التعليم فى جامعته. و على ذكر القطر المصرى لا بأس بأن نشير إلى أن المتعلمين من الشاميين ما برحوا يفزعون إلى مصر منذ أواخر القرن الماضى يخدمون الآداب و يرزقون منها، فكان لمصر الفضل على الشام و بنيه لأنها كانت منبعث قرائحهم. و كان فى هذه المقايضة العلمية بين الشام و مصر من الفوائد ما لا يمكن أحدا جهله.

و بعد ذلك يرجى أن لا يضيق كثيرا نطاق اللغة العربية، بعد أن رأى الناس أمرها يضعف الحين بعد الآخر فى الغرب و الجنوب، و هى إلى ضؤولة فى الشرق و الشمال و الوسط على ما يبذله المجمع العلمى العربى منذ سنة (۱۳۳۷ ه) من العناية بنشرها و تهذيب ألفاظ الكتاب و تراكيبهم، و الأخذ بأيدى المؤلفين و المترجمين، و تحبيب المطالعة إلى الجمهور، و تعليمه فى محاضرات و دروس عامة، و عرض آثار مدنية الأسلاف على أنظاره لبعث عقليته من رقدتها.

و إذا توفرت الجامعة السورية العربية على صياغة علماء الهيين و علماء مدنيين و أدباء و مهندسين و طبيعيين و كيماويين و زراعيين و أطباء و حقوقيين و أثريين يعرفون كيف يبحثون و يعلمون، نخدم المدنية خدمة حقيقية.

الإخصاء:

و بعد فإن أهمّ ما ينبغى صرف العناية إليه اليوم نشر العلوم الانسيكلوبيدية، أى المشاركة فى العلوم المتعارفة، ثم الانقطاع إلى فرع واحد، أى إلقاء النظر على المعارف التى تنير الفكر من العلوم الطبيعية و الرياضية و الاجتماعية و التاريخية

خطط الشام، ج۴، ص: ۷۹

و الأدبية ثم معالجة موضوع واحد: «إذا كانت القرون الوسطى قرون التعميم فى التعليم، فإن هذا العصر عصر التخصص. فقد اتسعت معارف البشر النظرية و العملية فدعت الحاجة إلى أن يقسموها بحسب استعدادهم و حاجاتهم إلى أقسام ينقطع إليها أفراد. فالأصول من المعارف هى المعلومات العامة و تفرعاتها هى الإحصائيات. كان بادئ بدء كل شىء مفهوما فى الفلسفة، فكانت لفظة عام عند الأمم الجاهلة تتناول جميع العلوم، و تنقسم إلى قسمين: المحسوسات و المعقولات. و دعيتا علوم الطبيعة و علوم ما وراء الطبيعة. أما الصنائع اليدوية فلم تكن منظمة تنظيما معقولا- و لا- جارية على طريقة معقولة، و كان أرباب الأفكار يحتقرونها فلا يمارسها إلا الصعاليك يخلفون فى تعلمها آباءهم، بدون وقوف على القوانين الميكانيكية أو الطبيعية التى كانوا يعملون بها على الدوام.

ثم حسنت الحال بالتدريج و دخلت الأعمال فى طور نظام، و انتظمت العلوم الرئيسة. لا سيما الآداب و الفنون و علوم النظر و العلوم العملية أى التجارة و الصناعة و الحرف، و نشأ الإخصاء فى كل فرع من فروع هذه الطبقات. فالطبيب مضطر إلى تعلم أمور كثيرة، و لا يخصى فى تعاطى فرع واحد إلا فى المدن، أما فى القرى فيمارس كل فرع من فروع الأمراض الباطنية و الخارجية. و هكذا الحال فى الأعمال التجارية و الصناعية فإن كل حرفة أو مهنة تنقسم إلى أقسام.

و قد دخل كل علم اليوم فى دائرة الإخصاء حتى ما يلزم الطاهى و البائع من المعارف، فأصبح من الضرورى بالنظر لتكاثر أعمال البشر، أن يزيد أبدا الإخصاء فى كل علم و شأن. و إذا نظرت إلى الإخصاء من حيث العلم فإنه دليل الكفاءة و بدونه لا يكون عالم، فان المبادئ الأولية من جميع العلوم هى و لا شك نافعة لكل الناس، و متى حاز المرء قسطا من هذه العلوم و رأى أن يتبحر فيها يجب عليه تعيين الموضوع الذى سينصرف إليه و بدون ذلك يتقدم المرء فى عمله تقدما بطيئا، و يخلط و يبقى متوسطا و إلى ضعف. و الإخصاء ضرورى أيضا فى العلم العملى أى فى المعامل و الأعمال اليدوية و ذلك للسرعة فى الإنتاج و بهذا يرى أرباب معامل الابر و الخياطة فى لندرا أن فى تقسيم الأعمال اقتصادا كبيرا.

خطط الشام، ج۴، ص: ۸۰

إذا قسمت الأعمال و أخصى المشتغلون بالعلوم و توسعوا فيها، فالإخصاء يؤدى و لا جرم إلى الضعف الأدبى، و ذلك أن العاملات مثلا- إذا قضين نهارهن فى عملهن السهل اللطيف فى الظاهر، كأن يتوفرن على إدخال الخيوط فى إبرهن فإنهن لا يفقدن شيئا من حواسهن، و لكنه ثبت أنهن يفقدن حاسة النظر فى أقرب وقت. أما القوى العقلية و القوى المماثلة لها فإنها تتأذى أيضا. و من ينصرفون فى العلم المحض إلى الإخصاء ككثير من الرياضيين و المهندسين و الفلكيين يعيشون فى العالم كأنهم ليسوا منه، و يدهشون من عاصروهم بغرابة أخلاقهم، و تشتت أفكارهم، و بالجملة فيقضى على كل مخص فى العلم أو فى الصناعة أن يحرز حظا من المعارف لأول أمره، و أن يخصى فى علمين أو ثلاثة، فإذا مارس أحدها أراح غيره ا ه.

الصحافة العربية:

نشأت الصحافة، أى نشر صحف الأخبار، بعد انتشار فن الطباعة الحديثة عام (۱۵۶۶ م) فى مدينة البندقية، و لم تلبث أن انتشرت فى أوربا، و لكنها لم تعرف فى ديار العرب إلا فى سنة (۱۷۹۹ م) أنشأها فى مصر نابوليون بونابرت، و لم تصل إلى الشام إلا فى أوائل منتصف القرن التاسع عشر، ففى بدء سنة (۱۸۵۱ م) أنشأ المرسلون الأميركان فى بيروت أول مجلة عربية اسمها «مجموع فوائد». و للشاميين الفضل الأول فى إنشاء الجرائد، جمع جريدة، و هو الاسم الذى وضعه أديب لبنانى للتعبير عن Journal أو Gazette ثم وضع لغوى لبنانى آخر اسم «مجلة» للتعبير عن Revue أو Bulletin أطلقه على هذه الرسائل الدورية التى تضم بين صفحاتها

مختلف الفوائد فی شتی الموضوعات. و ما زال للشاميين الفضل الأكبر فی إنشاء الجرائد و المجلات. و قد أنشأوا فی الاستانة و مصر و تونس و أوربا و أميركا صحفا عربية كثيرة، و آزروا فی صحف كثيرة، كما أنشأوا فی الشام صحفا كانت تعلو و تسفل بحسب مقدرة القائمين بها، ذلك لأن الأمية كانت غالبة، و لم يكن الإقبال على مدارس المرسلين و المدارس الطائفية و هی التی سهلت درس العربية قبل غيرها، هذا الإقبال الذی شوهد من بعد،

خطط الشام، ج۴، ص: ۸۱

و خرّج مئات من الطلاب الذين كان أقل ما ثقفوه فيها تعلم مبادئ لغتهم و مبادئ اللغات الأجنبية.

و لما احتل البريطانيون مصر و زاد الضغط على الصحافة العربية فی الشام، هبط مصر كثير من نبهاء الكتاب الشاميين من أرباب الصحف و من المترجمين و غيرهم، و أنشأوا جرائد و مجلات و منها إلى اليوم جريدتا الأهرام و المقطم و مجلات المقتطف و الهلال و غيرها من الجرائد و المجلات التی نشرها الشاميون و عاشت مدة ثم احتجبت. و كلها أبلت بلاء حسنا فی خدمة الأفكار و نشر الآراء العلمية و التهذيبية و الأدبية و الدينية. و قد نشرت فی الشام و فی مصر بأقلام الشاميين أنفسهم صحف و مجلات كثيرة لم يكتب لها البقاء، و إن كان بعض القائمين بها على حصة موفورة من العلم و الأدب، و قضى عليها لقلة القراء، أو لوفاة أصحابها كمجلة الضياء و المنار و لم يأت من يخلفهم فی موضوعهم. و أخرى أن المجلات المفيدة لم تجد من الحكومات و الجمعيات معاضدة فعلية.

ظلت الصحف السياسية و المجلات العلمية مستندة إلى قوى أصحابها فقط، و لو كان فی القوم أناس يحبون حقيقة معاضدة الآداب لألفوا شركات برؤوس أموال كبيرة لإنشاء بضع صحف و مجلات تخدم الخدمة اللازمة، و لا تسف إلى تناول ما يسد بعض عوزها من الحكومات أو من أفراد أو من أرباب المظاهر يعطون المجلات أو الجرائد ما تيسر حتى تسبح بحمدهم و تنشر محامدهم و صورهم فالجرائد و المجلات بذلت الجهد إذا فی نشر الأفكار و التهذيب فی الشام على قلة الوسائط، و كان صوتها يسمع أكثر مما سمع لو بذلت الأمة العناية بتعهدها أكثر مما بذلت، نعم كانت خير معلم و أجمل مدرسة للناس، ترشدهم فی جميع ما تشتد إليه حاجتهم من المعارف، و تغرس فی نفوسهم روحا وطنيا لا تقوم الأمم بغيره، و تلقن الجمهور على اختلاف نزعاته تربية سياسية صالحة فی الجملة لأمة لم تستقر حالتها السياسية.

دخل منذ ثمانين سنة كثير من النبهاء فی الصحافة، و لكن المتوسطين الذين خاضوا غمارها كانوا أوفر عددا، فأفسد المتوسطون عمل الذين كان يرجى من أقلامهم رفع مستوى المعارف. و مع كل الضعف الذی تجلت أعراضه فی كل أدوار الصحافة الشامية كان منها أن علمت الناس ما لم يكونوا يعلمونه، (۴- ۶)

خطط الشام، ج۴، ص: ۸۲

علمتهم أن وراء حياتهم المادية حياة معنوية. لا تبقى لهم مادياتهم بدون الأخذ بحظ وافر منها، علمتهم بسائط من التاريخ و حال الأمم و سياسات السياسيين و قوانين المشرعين و استعمار المستعمرين و تدليس المدلسين، و أن أمتهم كانت شيئا مذكورا فيما مضى، و لا حياة للأحفاد بدون الأخذ من سيرة الأجداد، و الاقتباس من المدنية الحديثة كل ما لا ينزع منهم مشخصاتهم و مقدساتهم، و أصبح بعض العامة ممن أدمنوا تلاوة الصحف و تفهمها. أرقى عقلا من كثير ممن كانوا يسمونهم بالخاصة منذ مئة أو مئين من السنين. علمتهم أن لا قيام لأمرهم إلا بالقومية العربية، و أن نغمة الدين وحدها لا تنجيهم مما هم فيه لأن التساهل بأمور الدنيا يذهب بالدين و الدنيا معا. علمتهم أن الغرب لا يريد خيرا للشرق، و الشرق شرق و الغرب غرب، و أن الأقليات التی كانت تصرفها أوربا بحسب أميالها السياسية لا تعيش إلا بالاندماج فی الأكثريات، و توحيد المقاصد الوطنية. و كل أمة تحكم برأی السواد الأعظم من أبنائها.

علم معظم الناس، إلا أناسا مأخوذين بتعصبات مذهبية و نعرات طائفية، أن الغرب لتحقيق أغراضه يفادی بكل من يمتون إليه بصلة من صلات القربى المذهبية، و أن الاعتبار عنده للمصلحة كيفما كانت و كان السبيل إلى الحصول عليها، و قاعدتهم كلهم الغاية تبرر الواسطة. و لقد عرفت الحكومات التی استولت على هذه الديار منذ نشأة الصحافة الشامية كيف تستفيد من هذه القوة، فكانت تحتال

فی أول دور أن تشرّف صاحب الجریدة برتبة لها و وسام، و من خالف الصدع بأمرها تکسر قلمه و تشرده و تسجنه و تنزل علیه غضبها، و قد تجلی ذلک فی الثلث الأخیر من الدور الحمیدی، فلما أعلن القانون الأساسی أخذ الأتراک الذین قبضوا بعده علی زمام المملکة یتوسعون فی هذا المبدإ مبدإ السیر بقوة الصحافة إلی الغرض الذی یرمون إلیه، فصانعوا بعض أربابها و ضحکوا من بعضهم بإکرامهم و إعطائهم مالا. و لما جاءت الحکومات المنتدبة و هی من أعرف الأمم بتأثیر الصحافة فی الأفکار لم تقصر فی اتخاذ هذه النظریة علی طریقة جمعت أیضا بین الرغبة و الرهبة و العطاء و المنع. و لم تخل الشام فی کل دور من أناس باعوا فی خدمة صاحب القوة ضمائرهم. شأن کل أمة جدیدة فی الحیاة السیاسیة، و لکن ظهر ذلک جلیا فی صحافتنا لأن الدعاة للقوة ضعاف،

خطط الشام، ج۴، ص: ۸۳

حتی فی فهم ما انتدبو إلیه، فکانت تنکشف أعمالهم منذ أول یوم یسبحون بحمد من استهووهم.

و بعد فالصحافة العربیة فی الشام تحتاج إلی أربع أو خمس صحف و بضع مجلات علی النمط العالی من نوعها فی أمم الحضارة، تصدر فی أمهات حواضر الشام (القدس و بیروت و دمشق و حلب) و ترجع فی شؤونها إلی شرکات منظمة تدیر ماليتها، أو أحزاب سیاسیة ثابتة تدیر حرکتها، و یوکل أمرها إلی کفاة ینسجون فیها علی أحسن منوال نسجته صحافة أوربا و أمیرکا، و نحن لا نتطال إلی أن یکون للشام الیوم صحافة کصحافة بریطانیا العظمی بوفرة مادتها، و صدق لهجتها لأمتها، و سرعة تناولها الأخبار، و تنویع أسالیب التعلیم و التفهیم، بل نرجو أن تکون لنا صحافة متناسبة مع ماضینا و حاضرنا، بحیث لا تکون الشام أحط من مصر فی هذا الشأن علی الأقل. الصحافة عنوان ارتقاء الأمة، و لیس ما یمنع من إبرازها فی قوالب مقبولة لجمیع الأذواق، و هذا لا یتم إلا إذا وسدت أعباء الصحافة للعارفین.

قلنا فی سنة ۱۳۲۸ ه (۱۹۱۰ م) من مقالة (المجلد السادس من مجلة المقتبس):

و قد رأینا هذا التهالک علی إنشاء الصحف و المجلات حتی کان لنا منها نحو مئة صحیفة فی هذا القطر الصغیر، نأسف لأکثرها علی الورق الذی تطبع فیه و الوقت الذی یصرف علیها، و هی خلو من الفوائد اللازمة، و لو لا بضع جرائد و مجلات لا بأس بها فی الجملة، لقلنا إننا بعد اشتغال ستین سنة فی الصحافة لا نزال فی حالة ابتدائیة، قلنا: إن للنجاح فی الأعمال أسبابا کثیرة، منها ما هو مادی و منها ما هو معنوی، إذا اختل أحدها تعذر النهوض بالشق الآخر. و إنشاء الجرائد و المجلات لا یخرج عن هذا الحد المقرر. و هل فی الأرض عمل لا یحتاج إلی علم و تجارب و مال و استعداد؟ و لطالما رأینا مصر فی الثلاثین سنة الأخیرة، و الشام فی عهدها الدستوری و غیرهما من الأقطار و الأمصار التی یتکلم أهلها بالعربیة، تتجرأ علی إصدار الصحف بدون حساب و لا رویة، و أدرکنا العامة أجرأ من الخاصة علی اقتحام هذا المرکب الصعب، و لیس لدیهم فی الأغلب من وسائط النجاح کبیر أمر، فلا یلبث ما ینشئون أن یظهر إلی الوجود حتی یختفی اضطرارا لا اختیارا. و هذا هو السبب فی تعدد الجرائد و قصر أعمارها و اشمئزاز

خطط الشام، ج۴، ص: ۸۴

الناس منها، إذ توهموها بما تمثل لهم من حال بعض من أقدموا علیها آلة للتکسب و التدجیل لا أداة للوعظ و الإرشاد و التعلیم.

«ما رأینا صناعة من الصناعات استسهل الناس أمرها کالصحافة، فلم یعهد معلم فی النجارة أو الحدادة أو البناء أو الهندسة یحترف هذه الحرف بدون سابق ممارسة و یتصدر للاعتیاش منها و هو لا یعرف من أسرارها سرا، و لکن فن الصحافة فی هذه الدیار الذی یتوقف النجاح فیه علی أسباب کثیرة أهمها العلم و التجربة و المال، قد رأینا أناسا من الأغمار یدّعونه بدون خشیة و أکثرهم لا یعرفون قراءة الجرائد و المجلات دع تألیفها و إصدارها.

«کان جمهور الناس إلی عهد قریب یشارک الأطباء فی طبهم، فتری الکبیر و الصغیر إذا عرض لهما مریض من خاصتهما و معارفهما لا یتوقفان فی وصف علاج یشفیه، مدعین أن ذلک من مجرباتهما أو مجربات أصحابهما، و لما کثر الأطباء و استنارت الأمة بعض الشیء خفت هذه العادة فی التعدی علی الأطباء فی طبهم إلا عند الطبقة الجاهلة. أما الصحافة فیدخل فیها بالفعل أناس لیسوا منها و

ليست منهم، و يصفون للأمة أدوية تقيها الأسواء و الأرزاء، و يعترضون على العالمين و الحاكمين و السلاطين بلا خشية و لا حياء، كأن طب الأرواح ليس أصعب من طب الأشباح، أو كأن الصحافة من العلوم اللدنية لا الكسبية، يتعلمها المرء بالذوق و توحى إليه إيحاء.

«من أجل هذا احتقرت الأمة الصحافة لما رأت من ضعف بعض أدعيائها فى أخلاقهم و معارفهم و قد شانوا اسمها و عبثوا بجمالها، تذرعا إلى مطمع ينالونه، وصيت بالباطل يحصلونه، و مقام عال ينزلونه. نعم لم نشهد العطار بيطارا، و لا الإسكاف نجارا، و لا الحطاب رساما، و لا الفحام نظاما، و لا الجوهرى حجاما. و لكن شهدنا الفلاح صحافيا، و المتشدق مؤلفا، و الثرثار محاميا، و المكثار خطيبا. كما نشهد الأغبياء قد يحاولون مجاراة الأذكياء، و الفقراء يقلدون الأغنياء.

«بيد أن سنن الفطرة التى لا تغالب، و نظام هذا الكون البديع الذى قلما اختل. يعاقبان المعتدى على ما لا يعلم بما جنته يداه، كما قيل فى الأمثال الإفرنجية كل خطاء يحمل عقوبته فيه. و ندر جدا فى الناجحين من تيسر لهم الوصول إلى ما وصلوا إليه إلا باتخاذ الذرائع المنجحة، و نسج حلل مجدهم بأيديهم.

خطط الشام، ج۴، ص: ۸۵

رأينا كثيرا و لا سيما فى مصر و الشام التصقوا بالصحافة و أنفقوا ثرواتهم فى سبيلها فلم ينجحوا، و رجعوا بعد العناء الطويل و خسارة المال صفر الأيدى خائبين، لأن مائدة العلم لا يجلس إليها طفيلى، و لأن التمويه إن صعب فى عمل فهو فى الأعمال العلمية أصعب ...

«و لقد شاهدنا عيانا أن معظم الصحف التى كتب لها البقاء فى هذين القطرين الشقيقين خاصة هى التى قام بأعبائها أناس متعلمون تخرجوا فى الكتابة و تدربوا فى السياسة و تذوقوا لماظة من العلوم التى لا يسع صاحب جريدة و مجلة جهلها.

و معظم من لم يخادنهم التوفيق أخفقوا لأسباب ناشئة من ضعفهم و قلة معارفهم فى صناعة يلزمها ما يلزم لكل صانع من الأدوات إن لم نقل إنها تتوقف على أدوات أكثر. و لو كان قومنا يبالغون فى انتقاء الرجال للأعمال، لوضع فى قانوننا بند يلزم كل من تصدّر لمعاناة صناعة القلم، أن يمتحن فى الفن الذى يخوض عبابه، كما يمتحن المتطببون و الصيادلة، فإنشاء الصحف إن لم يكن أحق بالعناية من معرفة الأمراض و العلل و العقاقير، فلا أقل من أن يكون على مستواها، فكم من جاهل قتل نفسا زكية، و من صحافى جرع قراءه السم الزعاف، على حين ينتظر منه الترياق النافع».

هذا ما قلناه و نزيد عليه أن الإخصاء أو الاختصاص العلة الأولى فى نجاح الغرب فى صحافته يجب أن يكون له فى صحفنا المقام المحمود، و فى اليوم الذى أصبحت فيه توسد فى مصر أعمال الصحافة إلى أمثال هؤلاء من الحقوقيين و الكتاب و السياسيين دخلت مصر فى حياة جديدة، و هذا قريب المنال على الشام التى كان لبعض أبنائها خدمة تشكر فى تاريخ الآداب و الصحافة. و من أهم مجلاتنا التى تصدر فى الشام «المشرق» «مجلة المجمع العلمى العربى» «المجلة الطبية» «مجلة المعهد الطبى» و من المجلات المحتجبة «الرئيس» «الطبيب» «المقتبس» «الآثار» «الكلية» «الحارس» «الخدر» «المرأة الجديدة» و من صحفنا اليومية «لسان الحال» «الأحرار» «القبس» «ألف باء» «فتى العرب» «الرأى العام» «البلاغ» «الاستقلال» «الجوائب» «فلسطين» «العهد الجديد» «البرق» «الأحوال» «النهار» «النضال» «الكفاح» «الأيام» إلى ما هنالك من جرائد أسبوعية و منها الجدى و الهزلى المصوّر و غير ذلك.

خطط الشام، ج۴، ص: ۸۶

و بعد فالواجب على الصحافى قبل كل شىء أن يحسن الكتابة العربية كأحسن منشئيها، و أن يكون قادرا على النقل و الاحتذاء من أفكار الغربيين، أى عارفا بلغة أو لغتين من لغات السياسة و العلم، و أن يكون ممن عانى البحث ملما بالقوانين الدينية و الزمنية و تاريخ الأمة و لا سيما تاريخ هذا القطر عارفا الاقتصاد و الاجتماع و حياة الأمم و تاريخها و ثوراتها و نهضاتها و نقاباتها و ألوان أحزابها و أوضاعها كل هذه المسائل أقل ما يجب للصحافى المشاركة التامة فيه. أما المباحث المالية و الزراعة و التجارة و الفنون و الأدب و الشعر و الآثار و التاريخ و غيرها مما يجعل من الصحيفة مدرسة تامة الأدوات لإنارة الأفكار و بث الصحيح منها، فيجب أن يوكل

شأنها لأهل الإخصاء من العارفين بها. و بذلك يصح أن يقال إن لنا صحافة راقية، و ما دامت الصحيفة الواحدة ينشئها واحد أو اثنان أو ثلاثة على الأكثر، تضطر الصحف إلى أن تكون ناقلة ضعيفة فى مادتها و أخبارها و أفكارها و إذا زاد عليها خدمة غرض سياسى لا يحسن صاحبها التصرف فيه، فهناك البلاء الذى يحول دون الرقىّ.

الطباعة و الكتب:

لم يصل إلينا فن الطباعة الحديث أفضل اختراع تم فى أوائل النصف الثانى من القرن الخامس عشر للميلاد، إلا فى القرن السابع عشر، و من أوائل الكتب العربية التى طبعت فى رومية فى القرن الخامس عشر الإنجيل الشريف و قانون ابن سينا، و قام بتأسيس مطبعة فى الشوير من لبنان عبد اللّه زاخر الراهب المارونى سنة (۱۱۴۵) و طبعت هذه المطبعة ۳۴ مؤلفا خلال ستين سنة و أكثرها دينى و هى مطبعة يدوية على الحجر، و قد طبعت مطبعة الشوير المزامير سنة (۱۶۱۰ م)، و دخلت الطباعة الاستانة سنة (۱۱۳۵ ه) و أول مطبعة أنشئت فى بيروت مطبعة القديس جاورجيوس فى أواسط القرن الثامن عشر، بل إن فن الطباعة بهذه الحروف المتعارفة لم تثبت قدمه إلا بمجيء الإرساليات و الرهبنات الدينية من الغربيين، و إلى اليوم لا تزال المطبعتان العظيمتان فى بيروت بل فى الشام كله هما لتلك الجمعيات (الأميركانية أسست سنة ۱۸۳۴ م و اليسوعية ۱۸۴۸ م) التى كان الغرض الأول منها نشر الكتب المقدسة و الدعاية إلى إنجيل المسيح فى هذا الشرق

خطط الشام، ج۴، ص: ۸۷

القريب بين أبناء العرب، ثم خدمة التهذيب و الثقافة الإنكليزية و الفرنسية و بعد ذلك تعليم شيء من العربية. و الكتب العلمية الحديثة التى ظهرت فى هذه المطابع باللغة العربية شاهد عدل على أنه لا يتأتى نشر المبدإ الذى يريدونه قبل أن يخدموا القطر بلغته.

ربما بلغ عدد المطابع فى الشام ثمانين مطبعة من أهمها المطبعة الأدبية فى بيروت، و قلّ جدا فيها المطابع التى طبعت الكتب النافعة و لاحظت نفع جمهور الناس قبل منفعتها الخاصة. طبعت قصصا معربة و أشعارا و دواوين قديمة و حديثة و كتبا دينية و رسائل علمية فى المعارف العامة و قليلا- من كتب العرب التى لا- يزال ألوف منها محفوظا فى خزائننا و خزائن الغرب مما يقبل الغريب على طبعه و يجود العناية به من حيث التصحيح و التعليق. و نحن قلما كتب لمطابعنا أن تتأسى بهم و تتعلم منهم. و لو لا ألوف من كتبنا طبعت فى مصر و الإستانة و الهند و أوربا لما وجدنا بين أيدينا من تركة السلف الصالح ما فيه الغناء فى العلوم و الآداب القديمة، ذلك لأن بعض من يرجى منهم خدمة الطباعة بنشر الكتب النافعة لا يجدون من يطبع لهم ما يريدون إحياءه من كتب القدماء، أو ما يؤلفونه هم على النمط الحديث، لأن الطابعين ينظرون إلى أرباحهم أولا، و أرباحهم موقوفة على كثرة ما ينصرف من مطبوعاتهم، و الجمهور بالطبع كما هو فى كل بلد لا يقبل على الجد إقباله على الهزل، و لا يقدر أن المنفعة له فى الصعب قبل السهل، و أكبر الظن أن كثيرا من أرباب المطابع هم من العامة أو يقربون منهم فى الفكر و التعلم.

و لقد شاهدنا أناسا من الغير على العلم طبعوا مصنفاتهم بأنفسهم فافتقروا إذ لم يعرفوا تصريفها، و المؤلف غير التاجر، ثم هم لم يجدوا فى الأغنياء و الحكومات من يناصرهم و لو بابتياع نسخ معدودة من كتبهم. و رأينا أناسا طبعوا كتبا سخيفة من تأليفهم فروّجوها هم أو أحبابهم بالتجبية و القحة فدرّت عليهم أرباحا لا يستهان بها. فلا عجب إذا أصبح الطابعون و المصنفون يهتمون لمنافعهم الخاصة و لو كان فى الطابعين من يخاطرون بطبع كتب العلم و الأدب التى لها قراء مخصوصون لزاد عدد الراغبين فى المسائل الجدية أكثر من الآن و لارتفع ميزان العقل أكثر مما ارتفع.

نعم لم يطبع كثير من الكتب الخالدة سواء كانت للمعاصرين أو لمن قبلهم فى عهد ارتقاء العلم فى العرب، و قل أن طبع كتاب بذاك الإتقان الذى تطبع

خطط الشام، ج۴، ص: ۸۸

به الكتب فى أرض المدنيـة اللهم إلاـ فى بضع مطابع لا يهتم أهلها ربحت أم خسـرت لأنها لجماعات لا لأفراد. و ما عـدا عشـرات من الكتب التى طبعها فى بيروت خاصة علماء المشـرقيات أو من أخذوا عنهم طرائقهم فى الطبع و النشر. لم يكد يطبع فى سائر مدن الشام كتاب يعـد نموذجا فى إتقانه و وضـعه و تأليفه. و غايـة ما نشـروه كتب قصـص و كتب مـدارس ابتدائيـة أو أشـعار أناس تهجموا على التـأليف تهجمـا، و لمـا يسـتعدوا لـه الاسـتعداد الكـافى، و لـم يجـوّدوا مصـنفاتهم بإنضاجهـا بـالبحث و التنقيب، و إيراد الطريـف من المباحث.

فالشام مقصـر فى هذا الشأن من وجوه كثيرة، و لو لا مئات من المجلدات خلفها لنا أجدادنا، و ما زالت تطبعها مطبعة ليدن فى هولاندة منذ أكثر من ثلاثة قرون بمعرفة أفاضل علماء المشـرقيات فى الغرب، و لو لا ما طبعته جمعيات المستشرقين فى ممالك أوربا و أميركا لفاتنـا الوقوف على أمور كـثيرة فى مدنيـة العرب و تـاريخهم، و إلى اليوم لم تبلغ مصـر على كثرة مـا يطبع فيهـا من الكتب، و بعضـها باتقان زائد فى الطبع، كمطبوعات المطبعة الأميرية و دار الكتب المصرية و مطبعة جمعية التأليف و الترجمة و النشر مبلغ مطبعة ليدن و ليبسيك فى الإجادة، و لا سيما فى الفهارس و الشروح و الهوامش و الأمانة فى النقل الذى أصبحوا به قدوتنا و عنهم يجب أخذه

تأملنا مليا فيما تصـدره المطابع من الكتب فرأيناها مصـنفات هوائيـة موقتـة إلا قليلا، تخـدم فكرا خاصا و لا يتوقع منها إلا الشـهرة على الأغلب لا عموم الفائـدة، و معظم من يعـدونهم من المؤلفين هم فى الحقيقـة مترجمون، و منهم من لا يجيد الترجمة، و كم من تأليف نظرت فيه فانقبضت نفسك مما فى تضاعيفه من ضـعف التأليف ورداءة الطبع. و مع هـذا كان الناس يؤلفون على عهـد النهضة الأدبية الأـولى أى فى أواخر القرن الماضـى أكـثر من اليوم، و لقـد تسـربت روح التفرنـج إلى طائفـة ممن تلقنوا اللغـات الأجنبيـة، و غـدوا لا يهتمون إلا بالأخـذ من كتب اللغة التى يحسـنونها من لغات الغرب، و فى الغالب تكون الفرنسـية أو الإنكليزية و قلما رأينا رجلا كفوءا من هؤلاـء الـذين لاـ يعتمـدون على غير كتب الإفرنـج أن نقـل، لمن حرموا معرفـة اللغات الغربيـة من بنى قومه، موضوعا نافعا لهم فى اجتماعهم و صناعتهم و تمدنهم، لأن الأثرة زادت بزيادة المدنية.

خطط الشام، ج۴، ص: ۸۹

و قـد زاد فى رداءة التـآليف المطبوعـة كـون المؤلفين، و منهم الوسـط فى علمه و تـأليفه، يخـافون نقـد الناقـدين عليهـا، و كون بعض الصـحف و المجلات تصـانع فى الأـكثر هؤلاء الـذين وضـعوا أنفسـهم موضع المؤلفين، و تـدهن دهانا عجيبا لمن كان من أهل دين صاحب الجريدة و المجلة أو على مشربه السياسى!.

أو يكون ممن يتوقع منه أن يكتب له ذات يوم مقالة أو يعاونه أدنى معاونة مادية.

و لذلك استشرى الفساد و ظن كل من طبع شيئا أنه خدم الأمة خدمة صالحة.

و النقـد الذى هو من أهم الذرائع فى السير نحو الكمال إلى بحابح المدنية مما لا يؤبه له، و ربما تعرض صاحبه لمقت هؤلاء الطابعين و المؤلفين. قسم السيد أسعد داغر من يعرضون فى سوق الأدب بضاعتهم من ترجمة و تأليف و تصنيف إلى فريقين فريق المحترفين و فريق الهواة، فالمحترفون هم الذين يعملون بالقلم ليتقوا شر المتربة، و يعيشوا من شق تلك القصبة، و الهواة هم الذين يشتغلون بالعلم و الأـدب لأـن لهم فيهما حفاوة صـحيحة مجردة عن المآرب، و رغبـة حقيقيـة منزهـة عن حب الأرباح و المكاسب، و معظم هؤلاء هواة كانوا أم محترفين يشق عليهم أن تنقد كتبهم و مؤلفاتهم و ينظرون إلى الانتقاد و المنتقد بعين الشانئ الكاشح.

ليس فى كل ما طبعته المطابع الشاميـة منـذ النصف الأول من القرن التاسع عشـر، و هو عصـر النهضـة عنـدنا، سوى كتب قليلة تسـتحق العنايـة و تسـتوقف القـارئ للأخـذ منها مثل كتب محمـد عابـدين، أحمـد فارس، فانـديك، ورتپات، پوست، پورتر، لامنس، شـيخو، مشاقة، إبراهيم اليـازجى، إبراهيم الحورانى، طـاهر الجزائرى، عبـد الرحمن الكواكبى، سـعيد الشـرتونى جمال الـدين القاسـمى، رفيق العظم، شـبلى شـميل، شـكيب أرسلان، نجيب الحداد، يعقوب صروف، عيسى المعلوف، إسعاف النشاشيبى، إبراهيم الأحدب، يوسف الأسير، بطرس و سـليمان و عبد اللّه البسـتانى، أحمد حمدى الخياط، مرشد خاطر، جميل الخانى، شـفيق جبرى، سـليم الجندى، خليل

مردم بـک، أمين الريحـانى، خليل سـعادة و أضـرابهم ممن أبرزوا تآليف منقحـة، و فى بعضـها إبـداع و إيجاد، و ذلک لأنهم هضـموا العلوم التى عرفوا بها، و جاءوا بالجديد، و فيها أفكار علمية أو مدنية أو دينية صحيحة.

خطط الشام، ج۴، ص: ۹۰

الفنون الجميلة

تعريف الفنون الجميلة:

الفنون الجميلة أو الصـنائع النفيسة، و أسماها بعضهم نواضر الفنون و قيل إن العرب أطلقوا عليها اسم «الآداب الرفيعة» هى الصنائع التى من شأنها إدخال السـرور بجمالها و جلالها على النفوس البشـرية، و تربى ملكة الذوق و الشـعور، و هى سبعة أقسام: الموسيقى، الغناء، التصوير، النقش، البناء، الشعر و الفصاحة، الرقص. و أرجعها بعضهم إلى ثلاثة فروع فقط: التصوير و الشعر و الموسيقى.

و لقـد كان لهـذه الديار حظ كبير من هذه الفنون بقدر ما ساعدتها بقعتها و طاقتها، و ربما تم فيها أشـياء لم تصـلنا أخبارها، أما الدول التى تعـاقبت على الشـام بعـد الإسـلام، فـإن مـا وصـلنا من أنبـاء هـذه الفنون فيهـا قـد تعرّض له كـاتبوه بالعرض كأن يكون المشـتغل بالموسـيقى أو التصوير مثلا ذا مشاركـة فى فنون أخرى من أدب و شـعر، و طب و فلک، و حديث و فقه، أو أن القوم دوّنوا عامة سير الموسيقيين و المغنين و المصورين و النقاشين مثلا فضاع ما دونوه فى جملة ما ضاع من أخبار حضارتنا.

الموسيقى و الغناء:

نشـأت الموسـيقى مع البشـر و لازمتهم فى جميع ما عرف من أدوارهم فى حياتهم الخاصـة و العامـة، و فى مظاهر سـلمهم و حربهم، و سعادتهم و شـقائهم، و أفراحهم و أتراحهم، و سفرهم و حضرهم، و تعبهم و راحتهم، و دينهم و دنياهم و المرء من طبعه أن لا يستغنى عن رفع صوته، ليطرب نفسه و جليسه، و قلبه

خطط الشام، ج۴، ص: ۹۱

يصـبو بـالفطرة إلى سـماع أوتـار تهزه و تطربه. فالموسـيقى تجمع الحواس و تنشط لها النفوس، و بها يجسـر الجبان، و يعطف اللئيم، و يرقّ الكثيف، و يلين القاسـى و يقوى الضـعيف، و يكف الظالم، و يعتـدل المائل، فهى مدعاة السـرور، مجلبة الطرب، مسـلاة الحزين، مفرّجـة الكروب، مهوّنـة الخطـوب، عنوان الحيـاة الداخليـة، مظهر الأخلاـق القوميـة، مصورة الانفعالاـت النفسـية، أصـدق عامـل على التحمس، أقوى دافع إلى النهوض و التحسـس، معلمـة أنفع الـدروس الشـريفة مـذكرة بالمطـالب العاليـة، فيهـا يتجلى العقـل البشـرى بإشارات و حركات، تعمل عملها فى الأفئدة و الوجدانات.

و لقـد ثبت أن العنصـر السـامى من أكثر العناصـر و لوعـا بالطرب و الخيال، و قيل: إن الحثيين من أقـدم شـعوب الشام كانوا أقل عناية بالموسـيقى و الغنـاء من جيرانهم البابليين و الأشوريين و الآراميين، و مع هـذا كان لهم من الغناء ما ابتـدعوه بفطرتهم، و منه ما أخـذوه من مجـاوريهم. و كان الآراميون مولعين بالغناء و الضـرب بالإيقاع على آلات لهم يبوّقون بها و يزمرون، و يطرّبون بها فيطربون، و هى بالطبع على حالة ابتدائية على مثال الشعوب التى سبقتهم إلى سكنى هذا القطر.

و مثل هـذا يقال فى الفينيقيين الـذين اقتبسوا مدنية الفراعنة، و هم من أصل سامى، فإنهم كانوا يعرفون الموسـيقى، و منها ما نقلوه عن المصـريين لتمازج مدنية السلائل المصرية بمدنية فينيقية الصغيرة، و إذ كان للمصريين عناية فائقة فى معابدهم بالموسيقى على ما ظهر من تماثيلهم التى مثلت بها الضاربين و المغنين، تعلم جيرانهم أهل فينيقيـة بعض هذه العناية، و لكن على طريقة الاحتذاء لا إبداع فيها، و يقـال ذلـک فى الكنعـانيين و الإسـرائيليين فقـد أولعوا بهـا و ظهرت آثارها فى معابـدهم و بيعهم، و أمام أربابهم و معبوداتهم، و فى

حروبهم و غاراتهم و أعيادهم و مآتمهم و اجتماعاتهم، على ما فهم من نصوص التوراة. و مزامير داود مشهورة مذكورة، و الآلات التى اشتهرت عند الشعوب القديمة و عانت استعمالها، ترجع فى الأكثر إلى شبابة و بوق و صنج و طبل و دف.

و لقد دلت بعض النقوش التى عثر عليها فى وادى موسى و جرش و تدمر أن العمالقة و النبط و العرب لم يكونوا أقل من الشعوب التى سبقتهم إلى نزول هذه الديار و لوعا بالتلحين و الإيقاع و الضرب على القيثار و النفخ بالمزمار، و قد

خطط الشام، ج۴، ص: ۹۲

نقل اليونان و الرومان إلى هذا القطر موسيقاهم و أصول غنائهم على الأرجح كما نقلوا أربابهم، و اقتبسوا أربابا مع أربابهم، و إذ طال عهد دولتيهم كثيرا تأصلت موسيقاهم، و ثبتت مصطلحاتهم، و ربما نقلوا بعض مصطلح الأمة التى حكموا عليها فى غنائها و موسيقاها.

و لما انتشرت النصرانية فى الشام فى القرن الثالث للميلاد عنى منتحلوها بالموسيقى فى كنائسهم عناية اليهود بها من قبل فى بيعهم، و إذ اقتبست النصرانية كثيرا من عادات الروم و مصطلحاتهم لم تقصر فى اقتباس الموسيقى و التلحين و الغناء لثبوت فوائدها الروحية.

و لما جلت بعض القبائل العربية إلى الشام يوم سيل العرم و قبله و بعده، حملت معها ما ألفت أن تفزع إليه من اللحون، و تضرب عليه من الآلات، حتى إذا كان الإسلام، و كانت مدنية الفاتحين إلى السذاجة و الفطرة، و كان غناؤهم لا يتعدى الحداء و الإنشاد يوم الغارة و الحفل، و فى ظل الخيام و الآطام، أخذت موسيقاهم تقتبس من الموسيقى الشامية الرومية كما تقتبس من الموسيقى الفارسية.

و قال بعض العارفين: كان اقتباسها من الموسيقى الفارسية فقط. و زعم بعضهم أن أخذها كان من الرومية أكثر. و لا يعقل أن يتأخر العرب فى نقل الموسيقى إلى القرن الأول للهجرة و استعدادهم لها كاستعدادهم لغيرها من الفنون، و لهم من فطرتهم و مناخ أرضهم أعظم دافع للولوع بها، و هم المعروفون بحب الارتحال و كانت لهم صلات مع جيرانهم من الأمم الأخرى منذ الزمن الأطول «و لم تكن أمة من الأمم بعد فارس و الروم أولع بالملاهى و الطرب من العرب».

و مع هذا فنحن مضطرون أن نشايع القائلين بأن أول من غنى هذا الغناء العربى بمكة ابن مسجح، نقل غناء الفرس إلى غناء العرب، ثم كثر الموالى من الفرس فكانوا يتعلمون فى مكة و المدينة، و منها ينتقلون إلى الشام و العراق و مصر و غيرها من الأصقاع التى استظلت راية الإسلام. و فى الأغانى أن سعيد ابن مسجح أبو عثمان مولى بنى جمح و قيل إنه مولى بنى نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، مكى أسود مغن متقدم، من فحول المغنين و أكابرهم، هو أول من وضع الغناء منهم، و نقل غناء الفرس إلى غناء العرب، ثم رحل إلى الشام، و أخذ ألحان الروم.

و قيل: إن أول من أخرج الغناء العربى جرادة، جارية ابن جدعان و فيه نظر

خطط الشام، ج۴، ص: ۹۳

فإن الغناء معهود من عهد عاد، حتى كان من جملة مغنياتهم الجرادتان اللتان يضرب بهما المثل فيقال غنته الجرادتان. و كان النضر بن الحارث بن كلدة أول من ضرب على العود أخذه عن الفرس و علمه أهل مكة فانتشر فى الحجاز و كان يتغنى أيضا.

و فى القصة التى ساقها صاحب الأغانى فى الدعوة التى دعى إليها حسان بن ثابت فى آل نبيط و قد أتوا بجاريتين إحداهما رائقة و الأخرى عزة فجلستا و أخذتا مزهريهما و ضربتا ضربا عجيبا و غنتا بقول حسان:

انظر خليلى بباب جلق هل تبصر دون البلقاء من أحد

و رواية حسان نفسه أنه كان فى الجاهلية مع جبلة بن الأيهم، و قد رأى عنده عشر قيان: خمس يغنين بالرومية بالبرابط (الأعواد) و خمس يغنين غناء أهل الحيرة، أهداهن إليه إياس بن قبيصة و كان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة و غيرها. فى ذلك كله إشارة إلى أن الغناء العربى فى الشام أقدم من الإسلام.

موسيقى كل أمة ملازمة لها كروحها، و هى مظهر من مظاهر حياتها، فلا يعقل أن تخلو أمة من روح حتى تجىء أمة أخرى فتقبسها روحها. و لكن الأمة إذا اختلطت بأخرى، و كان عند الثانية فضل على الأولى فى شىء، و فى الثانية طبيعة الاقتباس و مرونة على

الاحتذاء و التشبه، قد تحمل الأولى إلى الثانية ما ينمى فيها ذاك الروح فتعدله على أسلوبها و مناحيها.

و لقد زعم بعضهم أن الإسلام لم يحلّ الموسيقى محلها اللائق بها، و ادعى بعضهم أنه حرمها، فكان الحظر أسهل من الإطلاق فى نظرهم، بيد أن الإسلام و هو دين الفطرة لا يخرج عن حد قيود العقل، إلا أنه لا يقول بالإفراط فى شىء حتى و لا بالعبادة، لأنه يكون قد دعا إذ ذاك إلى البطالة و اللهو، و هما مخالفان للشرع، و بذلك تكون الموسيقى و بالا على من يأخذ نفسه بها، و مصيبة على من ينصرف إلى سماعها، و لو صح ما قالوا فلماذا رأينا جلّة من الصحابة و التابعين لحنوا و تغنوا، و سمعوا الألحان و طربوا لها، و لو لم يجزها الشارع الأعظم فى أوقات معينة و حوادث وقعت، هل كان يجرأ أحد من أصحابه و من بعدهم على الجلوس فى مجالس الطرب، و الدين غض و العهد بصاحبه غير بعيد، قال عبد اللّه بن قيس: كنت فيمن يلقى عمر مع أبى عبيدة مقدمه الشام، فبينما عمر يسير إذ لقيه المقلّسون من أهل أذرعات بالسيوف و الرّيحان فقال عمر:

خطط الشام، ج۴، ص: ۹۴

امنعوهم فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين هذه سنتهم، أو كلمة نحوها، و إنك إن منعتهم منها يروا أن فى نفسك نقضا لعهدهم فقال: دعوهم. و التقليس الضرب بالدف و الغناء و استقبال الولاة عند قدومهم المصر بأصناف اللهو. و قيل المقلس هو الذى يلبس القالس أو القلنسوة و هى أشبه بقبعات الروم.

و لما استقر الملك لأمية فى الشام و دخلت الحضارة كان فى جملة ما دخل إليه الغناء على صورة لا خنا فيها و لا تبذل، و لقد روى المبرّد أن معاوية استمع على يزيد ذات ليلة فسمع من عنده غناء أعجبه، فلما أصبح قال ليزيد: من كان ملهيك البارحة فقال له يزيد: ذاك سائب خاثر، قال: إذا فأخثر له من العطاء. و قالوا: إن معاوية قال لما دخل على ابن جعفر يعوده فوجده مفيقا و عنده جارية و فى حجرها عود: ما هذا يا ابن جعفر؟ فقال: هذه جارية أروّيها رقيق الشعر فتزيده حسنا بحسن نغمتها قال: فلتقل، فحركت عودها و غنت و كان معاوية قد خضب.

أليس عندك شكر للذى جعلتما ابيض من قادمات الريش كالحمم

وجددت منك ما قد كان أخلقهريب الزمان و صرف الدهر و القدم

فحرك معاوية رجله فقال له ابن جعفر: لم حركت رجلك يا أمير المؤمنين قال: كل كريم طروب.

و رأينا بعض خلفاء بنى أمية فى دمشق و أمراءهم و ساداتهم، يضعون ألحانا و يسمعون الغناء و يولعون بالموسيقى، و يجيزون أربابها و يواسونهم من غير نكير:

و منهم عمر بن عبد العزيز، و ناهيك به من كامل، فى جميع الفضائل. فقد دوّنت له صنعة فى الغناء أيام إمارته على الحجاز سبعة ألحان يذكر سعاد فيها، و كان أحسن خلق اللّه صوتا. قال أبو الفرج: و أما الألحان التى صنعها فهى محكمة لا يقدر على مثلها إلا من طالت دربته بالصنعة و حذق فى الغناء. و ممن صنع فى شعره غناء يزيد بن عبد الملك الأموى و ممن غنى و له أصوات صنعها مشهور و كان يضرب بالعود و يوقع بالطبل و يمشى بالدف على مذهب أهل الحجاز، الوليد بن يزيد. و قد ذكروا أنه كان للخلفاء من بنى العباس غناء، و منهم من كان يضرب بالعود، و من خلفاء العباسيين السفاح و المنصور و الواثق و ابن المعتز و المعتضد و كثير غيرهم من أبناء الخلفاء، دع سائر الطبقات من أهل

خطط الشام، ج۴، ص: ۹۵

الرفاهية و السعة، ممن كانوا فى كل زمان ينشطون إلى سماع الأغانى، و يبرون الرجال و النساء من أرباب الموسيقى و الغناء، و يغالون بابتياع الجوارى اللائى حذقن الغناء، و برعن فى الموسيقى و شدون شيئا من الأدب.

و كانت تغلو فى العادة قيمة مثل هذه الطبقة من الجوارى. و السواذج منهن أى غير المثقفات دون من عنى أولياؤهن بثقافتهن فى الرتبة و القيمة مهما بلغ من جمالهن، و الموسيقى و الشعر فى مقدمة ما كان يطلب منهن. و ذكر المسعودى أن كثيرا من الجوارى

اشتهرن بالغناء بالمدینة، و کان یقصدهن بعض الناس من بغداد، و ربما وافی الواحدة وجوه أهل المدینة من قریش و الأنصار و غیرهما، و منهن القارئة القوّالة، و لم تکن محبة القوم إذ ذاک لریبة و لا فاحشة. و کان لبعض الموسیقیین و الموسیقیات و المغنین و المغنیات من أرباب النباهة و الفضل، ید فی إصلاح بعض الأحوال و تخفیف النوازل عند العظماء، و لطالما ارتجلوا ألحانا و أبیاتا ظاهرها طرب و غرام و سلوی، و باطنها وعظ و عبرة و تعریض، ذلک لأن الموسیقی عندهم کانت علی الأغلب مرافقة للشعر و الأدب، و کم من شاعر تدفقت الحکمة علی قلبه، و جاش بها صدره، فهذّب نفسا بل نفوسا بأبیات یقولها.

جاء أبو النصر الفارابی الفیلسوف إلی الشام علی عهد سیف الدولة بن حمدان فأدهشه و من عنده من الموسیقیین علی إتقانهم لها، و أقام فی دمشق و مات فیها، قال ابن أبی أصیبعة: إن الفارابی المعلم الثانی وصل فی علم صناعة الموسیقی و عملها إلی غایاتها، و أتقنها إتقانا لا مزید علیه، و إنه صنع آلة غریبة یسمع عنها ألحانا بدیعة، یحرّک بها الانفعالات، و یحکی أن القانون الذی کان یضرب علیه للطرب هو من وضعه، و أنه کان أول من رکّب هذه الآلة ترکیبها المعهود الیوم. و قد ذکر المؤرخون من تنافس سیف الدولة بن حمدان مع الوزیر المهلبی للاستئثار بمغنیة أدیبة مشهورة اسمها الجیداء ما یدلّ علی و لوع القوم بالموسیقی، و کان لجیداء فی مجالس سیف الدولة من ارتجال الألحان و الأدب البارع ما اشتهر أمره، و فی عصره اشتهرت فی انطاکیة المغنیة المشهورة «بنت یحنا».

و لم تبرح الشام تخرج من رجال الموسیقی و الغناء رجالا کانوا بهجة

خطط الشام، ج۴، ص: ۹۶

عصورهم، و منهم أبو المجد بن أبی الحکم من الحکماء المشهورین من أهل القرن السادس، کان یعرف الموسیقی و یلعب بالعود، و یجید الإیقاع و الغناء و الزمر و سائر الآلات، عمل أرغنا و بالغ فی إتقانه و حاول أیضا عمل الأرغن و اللعب به أبو زکریا یحیی البیاسی من أطباء الناصر صلاح الدین.

و کان من البارعین فی هذا الفن من العلماء قسطا بن لوقا البعلبکی و عبد المؤمن بن فاخر و نجم الدین بن المنفاخ المعروف بابن العالمة و فخر الدین الساعاتی. و کان رشید الدین بن خلیفة أعرف أهل زمانه بالموسیقی و اللعب بالعود، و أطیبهم صوتا و نغمة حتی إنه شوهد من تأثیر الأنفس عند سماعه مثل ما یحکی عن أبی نصر الفارابی، فکثر إعجاب المعظم به جدا و حظی عنده. و منهم علم الدین قیصر أخذ الموسیقی عن الفیلسوف کمال الدین بن یونس فی الموصل.

و کان أحمد بن صدقة طنبوریا مقدما حاذقا حسن الغناء و محکم الصنعة، و کان ینزل فی الشام فاستدعاه المتوکل إلی بغداد و أجزل صلته. و کان خلفاء بنی العباس کلما سمعوا بنابغة فی هذا الفن حملوه من القاصیة و أغدقوا علیه الهبات ذکرا کان أم أنثی، و لهم فی ذلک نوادر إن لم تصحّ کلها ففی بعضها إشارة إلی ما کانوا فیه من حب هذا الفنّ.

و منهم الجمال البستی کان یلعب بالجغانة (الأصل الصغانة و هی القیثارة) ولی خطابة جامع التوبة بدمشق علی عهد الملک الأشرف، فلما توفی تولی موضعه العماد الواسطی الواعظ و کان یتهم باستعمال الشراب، و صاحب دمشق یومئذ الصالح عماد الدین إسماعیل. فکتب إلیه عبد الرحیم المعروف بابن زویتینیة الرحبی أبیاتا، یعرّض بها بالرجلین و یرجو أن یعاد جامع التوبة إلی ما کان علیه محله من قبل، و هو خان للفسق و الفجور، لأن حظه حتی بعد أن صار جامعا أن یتولاه موسیقار، و شرّیب عقار، فقال:

خطط الشام، ج۴، ص: ۹۷ یا ملیکا أوضح الحقّ لدینا و أبانه

جامع التوبة قدقلّدنی منه أمانه

قال قل للملک الصالح أعلی اللّه شانه

یا عماد الدین یا من حمد الناس زمانه

کم إلی کم أنا فی ضّرو بؤس و إهانه

لی خطیب واسطی بعشق الشرب دیانه

و الذى قد كان من قبل يغنى بجغانه

فكما نحن فما زلنا و لا أبرح حانه

ردّنى للنمط الأوّل و استبق ضمانه

و كان محمد بن على الدهان المتوفى سنة ۷۳۱ شاعرا موسيقيا ملحنا قانونيا دهانا، و كان الكمال القانونى من المشهورين فى عصره بقانونه، وصفه عبد الرحمن بن المسجف (۶۳۵) الدمشقى فقال:

لو كنت عاينت الكمال و جسّه‌أوتار قانون له فى المجلس

لرأيت مفتاح السرور بكفه اليسرى و فى اليمنى حياة الأنفس

و ذكر ابن حجر فى أخبار سنة (۷۷۹) أن دنيا بنت الاقباعى المغنية الدمشقية اشتهرت بالتقدم فى صناعتها، فاستدعاها الناصر حسن على البريد إلى مصر فأكرمها، ثم وفدت على الأشرف فحظيت عنده، و هى كانت من أعظم الأسباب فى إسقاط مكس المغانى، سألت السلطان فى ذلك فأجابها إليه، و استمر إبطاله فى الدولة. و اشتهرت فى القرن الثامن بدمشق فرحة بنت المخايلة المغنية كما اشتهرت المغنية المعروفة بالحضرمية و هى التى كانت مع عرب آل مرا يوم وافوا دمشق لحرب التتر فى زهاء أربعة آلاف فارس، فكانت تغنيهم من الهودج سافرة و كانوا يرقصون بتراقص المهارى و تقول:

و كنا حسبنا كل بيضاء شحمةليالى لاقينا جذاما و حميرا

و لما لقينا عصبة تغلبيةيقودون جردا للمنية ضمّرا

(۴- ۷)

خطط الشام، ج۴، ص: ۹۸ فلما قرعنا النبع بالنبع بعضهببعض أبت عيدانه أن تكسرا

سقيناهم كأسا سقونا بمثلهو لكنهم كانوا على الموت أصبرا

و منذ الزمن الأطول إلى أيامنا ما خلت الشام من عوادة و طنبورية و كراعة و ربابية و صناجة و رقاصة و زفانة. و لم يخل عصر بعد زهو الشام على عهد الأمويين و العباسيين و من بعدهم من المماليك و غيرهم من مبرزين فى الغناء و الموسيقى. و اشتهر فى دمشق بضرب القانون و كان أستاذا فيه أحمد التلعفرى (۸۱۳) كان كاتب المنسوب. و من النابهين ابن القاطر الدمشقى من أهل القرن الحادى عشر كانت له شهرة عند أرباب هذا الفن فإذا حضروا معه مجلسا عظّموه و تراخوا فى العمل حتى يشير إليهم، ذكر ذلك المحبى و ترجم له و لرجب بن علوان الحموى و قال: إن هذا كان يعرف الموسيقى على اختلاف أنواعها و هو أعرف من أدركه و سمع به، و له أغان صنعها على طريقة أساتذة هذا الفن. و منهم برسلوم الحلبى رئيس أطباء الدولة العثمانية و نديم السلطان محمد بن إبراهيم كان حسن الصوت عارفا بالموسيقى. و اشتهرت أسرة بنى فرفور فى القرنين الماضيين بدمشق بالشعر و الآداب و قد أخرجت رجلين من أبنائها عارفين بالموسيقى و هما جمال الدين و عبد الرحمن.

و فى تراجم أهل الغناء الذى كتبه الكنجى المتوفى سنة ۱۱۵۰ ه ترجمة ستة و عشرين مغنيا من معاصريه فى دمشق و فيهم المؤذن و المنشد فى الأذكار و المغنى على الآلات الموسيقية، مما يدل على الإقبال على الموسيقى حتى فى أعصر الظلمات فإذا كانوا فى عصره على هذا القدر فى دمشق فقط فكم كان فى حلب و غيرها من المدن، و حلب مشهورة من القديم بغرام أبنائها بالموسيقى منذ عهد سيف الدولة بن حمدان، دع الموسيقيات و المغنيات ممن غفل المؤرخون عن ذكرهم أمثال علوة محبوبة البحترى فى حلب التى ذكرها كثيرا فى شعره الخالد.

و من الموسيقيين من كانوا يمارسون الموسيقى للتكسب و هم المحترفون، و منهم من كان يخدم هذا الفن المهمّ حبا به و هم الهواة، و من هؤلاء طبقة من الرجال و النساء لا يستهان بها و لكنها كانت و لا زالت متكتمة، و منهم من تستعمل من الموسيقى أو تسمع منها ما لا يعبث بوقارها إن كانت من أرباب

خطط الشام، ج۴، ص: ۹۹

المظاهر الدينية أو الدنيوية مخافة أن ترمى بما يثلم الشرف، لأن بعض الفقهاء شددوا على الغناء و الموسيقى، و كان بعضهم يعد ساقطا من العدالة كل من يغنى بأجرة من الموسيقيين و المغنين، و يتسامحون مع من يغنى فى جماعة من أصحابه، و يعدون الغناء فنا يفقر صاحبه، و جاء فى الأمة مثل شيخ الإسلام عبد العزيز ابن عبد السلام (۶۶۰) و كان على نسكه و ورعه يحضر السماع و يرقص و يتواجد و الناس تقول فى المثل «ما أنت إلا من العوام و لو كنت ابن عبد السلام».

و صناعة الغناء كما قال ابن خلدون: آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع لأنها كمالية، و أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله و تراجعه.

و لقد أدركنا و أدرك أجدادنا أن الشام كلها كانت لا تخلو معظم طبقاتها من موسيقيين، و كل مجلس من مجالسهم أو سهرة من سهراتهم، أو نزهة من نزهاتهم، كانت تضم أناسا أتقنوا هذا الفن حتى صار لهم ملكة، فكان السرور يملأ القصور و الدور، و الموسيقى و الإنشاد من الأمور المألوفة لا يستغنى عنها بحال، أما فى القرى و البوادى فكان لهم الغناء و الحداء، و ضرب الرباب و القيثارة و المزمار و الدف و الكوبة، أى أن لهم ما يطرب آذانهم و ترتاح إليه أرواحهم و تسهل معاناته و ممارسته، و من مشاهير الموسيقيين فى النصف الأول من القرن الماضى محمد السؤالاتى الدمشقى أخذ عنه أرباب الموسيقى فى عصره من المصريين و الشاميين ذكره فى سفينة الملك.

و من أهل المظاهر الذين عرفوا بالموسيقى فى أوائل هذا القرن الشيخ أبو الهدى الصيادى من حلب و عبد الرزاق البيطار من دمشق و كانا من أساتذة هذا الفن الجليل، و منهم من عنوا بالموسيقى فبرزوا فيها من أبناء هذه الديار مثل محمود الكحال. أحمد السفرجلانى. على حبيب. عمر الجراح. عبد القادر الحفنى. محيى الدين كرد على. سامى الشوا. رحمون الحلبى. توفيق الصباغ.

على الدرويش. باسيل الحجار. محمد الشاويش. نجيب زين الدين. مصطفى سليمان بك. شفيق شبيب. محمد على الأسطه. رضا الجوخدار. مصطفى الصواف حمدى ملص. رجب خلقى. يوسف الزركلى. محمد الأنصارى، محمد محمود الأتاسى. ميشل اللّه و يردى. مدحت الشربجى. اليكسى بطرس. اليان نعمة.

إسكندر معلوف. بولس صلبان. نصوح الكيلانى. تحسين يوقلمه‌جى. عباد الحلو. طلعت شيخ الأرض. حسن التغلبى. جميل البربير، أحمد التنير. أمين

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۰۰

النقيب. محيى الدين بعيون. و ديع صبرا. عزت الصلاح. قسطندى الخورى.

أحمد الشيخ. محمد الجراح. إبراهيم شامية. فريد الأطرش. و غيرهم ممن جعلوا الموسيقى حرفة أو للتسلية فى خلواتهم و منهم من كانوا صلة بين الموسيقى القديمة و الموسيقى الجديدة. و من المنشدات المطربات فريدة مخيش. رمزية. جمعة.

خيرية السقا. نادرة. سارينا. فيروز. أسمهان الأطرش. مارى جبران.

مارى عكاوى. لور دكاش.

و لقد أنبغت بيروت و حلب كثيرين من المغنين و الغالب أن فى هاتين المدينتين خاصية حسن الصوت. سألت صديقنا الشيخ كامل الغزى من أساتذة حلب عن المغنين و الموسيقيين فى بلده فكتب لى رسالة قال فيها:

إن حلب لا تخلو فى أكثر أوقاتها من الشداة و المترنمين الذين يعدون بالمئات و يعرف عند الحلبيين من يأخذ على غنائه أجرة باسم ابن الفن، و من رجال أواسط القرن الماضى مصطفى يشبك، فتح ناديا لممارسة الفنون الموسيقية دعاه بقاعة بيت مشمشان، كان يختلف إليه فى أوقات معينة كثير من المولعين بالموسيقى ليتلقوها عن أستاذها. و ما زال الحلبيون يضربون المثل بالمكان الذى تتوفر فيه دواعى الطرب فيقولون: (و لا قاعة بيت مشمشان). و من رجال أواسط القرن الماضى عبد اللّه البويضاتى و من رجال القرن

الماضى و أوائل القرن الحالى محمد بن عبده. إسماعيل السيخ. جبرا الأكشر. آجق‌باش. طاهر النقش.

محمد الوراق. الدرويش صالح قصير الذيل. محمد غزال. باسيل حجار. أحمد سالم. أحمد بن عقيل. و ممن أخذ عن هذا بعض فصول الرقص المعروف بالسماح السيد أحمد أبو خليل القبانى الممثل الموسيقار الدمشقى و السيد عبده الحمولى المطرب المصرى و هما من المشاهير. و من تلامذته امرأة قنصل إيطاليا فى حلب كانت تقول إن السيد أحمد بن عقيل يقل نظيره فى هذا الفن حتى فى أوربا قال: و من الأحياء فى حلب عبده بن محمد عبده و شرف الدين المعرى و من قينات القرن الماضى و أوائل القرن الحالى الحاجة عائشة المسلمينية.

و قال: إن العود المعروف بالبربط لم يكن معروفا فى حلب فى القرن الماضى حتى جاء حلب سنة (۱۲۹۳ ه) رجل من أهل دمشق اسمه سعيد الشامى فأخذ

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۰۱

الناس عنه. و من العازفين على الكمنجة أوائل هذا القرن شعيا الكمنجاتى و إسحاق عدس و نيقولاكى الحجار. و من الأحياء سامى الشوا و والده أنطون موسيقار أيضا. و العازفون بالناى المعروف عند العرب باليراعة كان نابغة فيه أوائل القرن عبده زرزور و كل من فى حلب اليوم خريجوه و تلاميذه ا ه. و من الموسيقيين الحلبيين أيضا عبد الكريم بلّة و حبيب العبدينى و أحمد مكانس و عمر البطش و مصطفى طمرق توفوا فى أوائل هذا القرن.

و لقد بدأت الموسيقى التركية تنازع الموسيقى العربية فى أواخر القرن الماضى لأنها خدمت أكثر من موسيقانا، ثم جاءت الموسيقى الإفرنجية، فأصبحت الموسيقى الشامية مزيجا لا يقام له وزن، لم يحتفظ بالقديم و هو من روحه و عاداته و لم يحسن اقتباس الجديد لأنه ليس من مصطلحه. و لا يفوتنا القول إن الموسيقى فى العصور المتأخرة كان لها فى أذكار بعض أرباب الطرق الصوفية مقام رفيع. و منهم من أتبعها بالصنوج و الأوتار، و منهم من شفعها برقص، و قد قام منهم مبرزون فى صنعتهم، و ماتت شهرتهم، يوم سكنت نأمتهم، و الموسيقى فى الكنائس على اختلاف الطوائف المسيحية و تباين العصور، ما زالت شائعة معتبرة و كم من موسيقار عندهم تقلبت به الحال حتى رقى بفضله إلى أرقى درجات الكهنوت.

التصوير:

أخذ الحثيون التصوير على الأغلب كما أخذوا النقش و البناء عن جيرانهم من البابليين و الأشوريين، و ربما أخذوا عن المصريين أيضا، لكنهم لم يجودوه كل الإجادة على ما رأينا من تصاويرهم المكتشفة، و خالفنا رأى بعض المشتغلين بآثارهم المعجبين بمدنيتهم، فإن الآثار التى اكتشفت للحثيين فى جرابلس تدل على مبلغ تلك الأمة من الإتقان فى النقش و التصوير. و قد قال لنا الاستاذ هروزنى التشكى و هو إخصائى بآثار الحثيين: إن عادياتهم مما يعجب منه، و لا تقلّ بجمالها عن بقية آثار الأمم الأخرى، و كذلك فعل الكنعانيون و الفينيقيون و الإسرائيليون، أخذوا عن أشور و بابل و مصر هذا الفن، و لم يعرف أنه كان لهم طرز خاص فى التصوير، و كانوا على ما ظهر دون من اقتبسوا عنهم. أما

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۰۲

التدمريون فأجادوا فى تصويرهم و كانوا ينقشون على القبور صور من دفن فيها من الرجال و النساء، مثل أهل جنوة فى إيطاليا فى العصور الأخيرة، و منها صورة جاريتين رآهما أوس بن ثعلبة التيمى فى القرن الأول و قال فيهما أبياته المشهورة:

فتاتى أهل تدمر خبرانى‌ألّما تسأما طول المقام

قيامكما على غير الحشاياعلى جبل أصم من الرخام

و فى دار الآثار بدمشق مجموعة تماثيل من قبور تدمر كأنها تنطق، و منها صورة فتاة مزينة الرأس يستدل منها على صورة تصفيف

الشعور فی ذاک العصر، و کیف کانت أزیاء نساء تدمر و بهرجة رؤوسهن و أقراطهن و عصباتهن، و فیما ظهر مؤخرا فی مدینة تدمر من تماثیل صاحبتها زینب و وصیفاتها و فی غیر ذلک من الشخوص دلیل علی تبریز التدمریین فی هذا الشأن.

أما التصویر عند الروم و الیونان فی الشام فإن منه نموذجات تأخذ بمجامع القلوب قال الثعالبی: لم یبدع التصویر إبداع الروم و الرومان أحد من الأمم، فقد کان لهم إغراب فی خرط التماثیل و إبداع فی عمل النقوش و التصویر، حتی إن مصورهم یصور الإنسان و لا یغادر شیئا إلا الروح، ثم لا یرضی بذلک حتی یصوره ضاحکا، ثم لا یرضی بذلک حتی یفصل بین ضحک الشامت، و ضحک الخجل، و بین المتبسم و المستغرب، و بین ضحک المسرور و ضحک الهازئ، فیرکب صورة فی صورة، و صورة فی صورة.

و المصانع الشامیة من العهد الرومانی هی ذات أشکال معتادة فی تلک الأعصر لها نقش ظاهر خاص بها من النقوش النباتیة الکبیرة المنقولة عن نباتات القطر و لا سیما فی فلسطین علی عهد الملوک و القضاة و منها ما یستعمل فیه صور الطیور.

قال دوسو: إن فی الکتابات التی وجدت فی الصفا صورة فرسان مسلحین برماح طویلة علی مثال بدو هذه الأیام، و أحیانا تمثلهم و هم یطاردون غزالا- أو و علا- أو یصطادون أسدا، و منهم الفرسان یحملون الرماح و المشاة مسلحون بالقوس و النشاب. و لقد غصت فلسطین علی عهد الامبراطور قسطنطین بالمصانع التی تذکر بالحوادث الخطیرة التی وردت فی الإنجیل و قد زینت هذه المصانع بالفصوص التی تمثل هذه المشاهد.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۰۳

جاء الإسلام للقضاء علی الوثنیة و عبادة الأصنام، فحاذر المسلمون إذا أجازوا الرسم المجسم أن یکون فی عملهم مدرجة للعرب إلی الرجوع إلی عبادة الأصنام، فجعلوا فی التجویز بعض القیود الخفیفة، و لما ذهبت تلک الخشیة أخذت مسألة التصویر تنحل شیئا فشیئا و یعمد إلی ما فیه مصلحة منه. ذکر المقریزی أن الرسول علیه السلام أقر نقود العرب فی الجاهلیة التی کانت ترد إلیهم من الممالک الأخری و الدنانیر قیصریة من قبل الروم مصورة و أن عمر ضرب الدراهم علی نقش الکسرویة و شکلها و بأعیانها و ضرب معاویة دنانیر علیها تمثال متقلدا سیفا.

و رأینا زید بن خالد الصحابی استعمل الستر الذی فیه صور و لم ینکر الناس عمله. قال صدیقنا السید محمد رشید رضا فی المنار: و من الآثار فی حکم التصویر و صنع الصور و التماثیل اتخاذ أحد أعاظم أئمة التابعین القاسم بن محمد ابن أبی بکر (رض) الحجلة التی فیها تصاویر القندس و العنقاء، و هو ربیب عمته عائشة الصدیقة و أعلم الناس بحدیثها و فقهها، و منها استعمال یسار بن نمیر مولی عمر بن الخطاب (رض) و خازنه الصور فی داره، و منها صنع الصور فی دار مروان بن الحکم و سعید بن العاص و کل منهما ولی إمارة المدینة و کانا من التابعین قال: و عمل مروان یدل علی أن التصویر کان مستعملا فی عصر الصحابة، فمن عرض مسألة التصویر و اتخاذ الصور علی هذه القواعد الشرعیة علم منها أن دین الفطرة الذی قرن کتابه و وصف بالحکمة، و رفع منه الحرج و العسر عن الأمة، لم یکن لیحرم صناعة نافعة فی کثیر من العلوم و الأعمال و یحتاج إلیها فی حفظ الأمن و فنون القتال، و إنما یحرم ما فیه مفسدة أو ما کان ذریعة إلی مفسدة ا ه.

و یعجبنی ما کتبه أستاذنا الإمام الشیخ محمد عبده مفتی الدیار المصریة فی وصف رحلته إلی صقلیة عام ۱۳۲۲ ه (۱۸۹۴ م) فی مجلة المنار و قد ذکر تنافس الغربیین فی حفظ الصور المرسومة علی الورق و النسیج فقال: «إذا کنت تدری السبب فی حفظ سلفک للشعر و ضبطه فی دواوین و المبالغة فی تحریره خصوصا شعر الجاهلیة، و ما عنی الأوائل رحمهم اللّه بجمعه و ترتیبه، أمکنک أن تعرف السبب فی محافظة القوم علی هذه المطبوعات من الرسوم و التماثیل، فإن الرسم

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۰۴

ضرب من الشعر یری و لا یسمع، و الشعر ضرب من الرسم الذی یسمع و لا یری. إن هذه الرسوم و التماثیل قد حفظت من أحوال الأشخاص فی الشؤون المختلفة، و من أحوال الجماعات فی المواقع المتنوعة، ما تستحق به أن تسمی دیوان الهیئات و الأحوال

البشرية. يصورون الإنسان أو الحيوان فى حال الفرح و الرضى، و الطمأنينة و التسليم، و هذه المعانى المدرجة فى هذه الألفاظ، متقاربة لا- يسهل عليك تمييز بعضها من بعض، و لكنك تنظر فى رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهرا باهرا، يصورونه مثلا فى حالة الجزع و الفزع و الخوف و الخشية.

و الجزع و الفزع مختلفان فى المعنى، و لم أجمعهما هنا طمعا فى جمع عينين فى سطر واحد، بل لأنهما مختلفان حقيقة، و لكنك ربما تعصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما و بين الخوف و الخشية، و لا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع و متى يكون الجزع، و ما الهيأة التى يكون عليها الشخص فى هذه الحال أو تلك. أما إذا نظرت إلى الرسم و هو ذلك الشعر الساكت فإنك تجد الحقيقة بارزة لك تمتع بها نفسك، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك.

قال: «ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام، و هى ما حكم هذه الصور فى الشريعة الإسلامية، إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر فى انفعالاتهم النفسية و أوضاعهم الجثمانية، هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب أو واجب؟ فأقول لك: إن الراسم قد رسم، و الفائدة محققة لا نزاع فيها، و معنى العبادة و تعظيم التمثال أو الصورة قد محى من الأذهان، فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة، و إما أن ترفع سؤالا إلى المفتى فهو يجيبك مشافهة، فإذا أوردت عليه حديث إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون أو ما فى معناه مما ورد فى الصحيح، فالذى يغلب على ظنى أنه سيقول لك إن الحديث جاء فى أيام الوثنية، و كانت الصور تتخذ فى ذلك العهد لسببين: الأول اللهو و الثانى التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين، و الأول مما يبغضه الدين و الثانى مما جاء الإسلام لمحوه، و المصور فى الحالين شاغل عن اللّه أو ممهد للإشراك به، فإذا زال هذان العارضان و قصدت الفائدة، كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات و الشجر فى المصنوعات، و قد صنع ذلك فى حواشى المصاحف و أوائل السور، و لم يمنعه أحد من العلماء مع أن الفائدة

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۰۵

فى نقش المصحف موضع النزاع، أما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذى ذكر .... و بالجملة فانه يغلب على ظنى أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين لا من جهة العقيدة و لا من جهة العمل ا ه.

لما جاء الفاتحون إلى الشام كانت فى تصويرها عالة على الروم و الفرس و بقيت على ذلك مدة قليلة لأن التصوير لم يكن يعرف أنه كان فى متفرق أقطار جزيرة العرب اللهم إلا فى اليمن، برع فيه أهلها براعة أثبتتها الآثار و المصانع، و كانت الأثواب اليمانية المزركشة المبرقشة المصورة مما يحمل إلى الحجاز و سائر أرجاء الجزيرة و ما إليها منذ عهد الجاهلية، و أول ما عرف التصوير فى الشام على عهد المسلمين كان فى زمن الوليد بانى الجامع الأموى بدمشق و المسجد الأقصى فى القدس و غيرهما، و ما نظن أن جميع من صوروا له ما أراد من الحيوان و النبات و الشجر و المدن و الأصقاع كانوا من أصول عربية بل كان فيهم الفرس و الروم الذين دخلوا فى خدمة الدولة العربية، و منهم من بعثت به مملكة بيزنطية ليساعدوا الخليفة على عمله النافع، و قد وجد الأثرى موسيل التشكى فى قصير عمرة على سبعين كيلومترا من قصر المشتى فى البلقاء كتابات و نقوشا تشير إلى فتح الأندلس فى أيام الوليد و فيه من النقوش الزاهية و التصاوير العجيبة ما يأخذ بالأبصار.

قال صاحبنا شيخو: و فى هذه القصور من الآثار الهندسية و من التصاوير و من تمثيل أحوال البادية كالصيد و الغزوات و المآدب و المصانع ما أذهل العلماء لوجوده فى البرارى. و يقول ريسون: إن العرب قد نهجوا فى الفنون الجميلة نهج البيزنطيين، و لم يخالفوهم إلا بعدم تجسيم الحيوان، و لكنهم استعاضوا عنه بالنقش النباتى من تشبك أوراق و أقواس باهرة و فصفصة زاهرة و آكام و معاهد ساحرة.

و فى التاريخ العام أن الإسلام حظر تمثيل الصور الآدمية و لكن هذا الحظر لم يمنع الخلفاء من أن يكون فى قصورهم صور و تماثيل.

و مع هذا لم يخلف العرب فى النقش و لا فى الرسم آثارا خارقة للعادة، و ما بقى من آثارهم و عادياتهم الحجرية و أنواطهم المنقوشة، و عاجهم و مجوهراتهم، يشهد باستعدادهم الفنى، فإنهم نقلوا عن غيرهم فى هذا الشأن أولا ثم أخذوا يمرنون أنفسهم على حسن

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۰۶

الهندسة بالنقل عما عثروا عليه بادئ بدء و لا سيما عن الآثار البيزنطية، فكانوا يخشون أول أمرهم ثم أخذوا يجرأون فيعدلون ما يريدون احتذاءه بل يخترعون و يبدعون، فظهر لهم علم جديد مستقل على غير مثال، قال: و لا نعلم هل كان للعرب قبل الإسلام طرز من البناء الخاص بهم، لأنه لم يبق من الزمن السابق للإسلام سوى خرائب مبعثرة، و من الهجرة إلى القرن العاشر كان عهد الطرز اليونانى العربى، و على مثاله جاء بناء المسجد الأقصى فى القدس، و الجامع الأموى فى دمشق، و الجامع الأعظم فى قرطبة، و التأثيرات اليونانية ظاهرة فيها ا ه.

و بعد أن ترجم العرب كتب الفنون و الصناعات عن الروم و الفرس و القبط و السريان و الهند، منذ أول النصف الثانى من القرن الأول، أخذوا يزينون كتبهم ببعض الصور، يصورونها لتمثيل المسائل العلمية للأبصار، و لا سيما كتب النبات و البيطرة و الحيوان و الجراحة و الهندسة و الفلك و الجغرافيا و بعض كتب الأدب و المحاضرات و المقامات، فاستعملوها بحسب الحاجة و أجادوا بالنسبة لعصورهم، على ما ثبت ذلك بشهادة المحفوظ من مخطوطات العرب فى متاحف الشرق و الغرب، و أكثر من أثر عنهم التصوير و الإجادة فيه و صنع التماثيل و وضعها فى قصورهم خلفاء بنى أمية فى الأندلس، و من جاء بعدهم من الملوك، و الصور- كما قال ابن أبى أصيبعة- إنما جعلت لارتياح القلوب إليها و اشتياق النظر إلى رؤيتها، و الصبيان يلازمون بيوت الصور للتأديب بسبب الصور التى فيها، و كذلك نقشت اليهود هياكلها، و صورت النصارى كنائسها و بيعها، و زوق المسلمون مساجدهم.

نعم زوّق المسلمون مساجدهم، و كانوا أوائل الإسلام يكتفون بالصلاة فى مساجد أشبه بالأرض القفراء، و يفضلون السجود على الحصا و يعدون فرشها بالبوارى بدعة، و ذلك لئلا تشتغل العين بشىء يبعد النفس من الخشوع لبارئها، ثم أخذوا يتأنقون فى مساجدهم، و يفرشونها بالطنافس و الزرابىّ، و يصورون حيطانها، و ينقشون فيها آيات ثم مشجرات و أماكن جميلة، و معظم ما انتهى إلينا أو بلغنا خبره فى العصور العشرة الأخيرة فى الشام تصوير المسائل العلمية، و الأمصار و الأشجار، و السفن تمخر فى البحار، ثم تصوير الحيوان و الإنسان و لكن على قلة.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۰۷

لا جرم أن التصوير فى هذه الديار كان ضعيفا بعض الشىء لأن مسألته كان فيها نظر عند بعض الفقهاء الذين جمدوا على ما فهموه من الشريعة، و التصوير عارض على الملة غير مغروس فى فطرتها، و لكن المسلمين تطوروا بطور الأمصار التى نزلوها. و لم يتوقف ملوكهم و أمراؤهم على فتاوى الفقهاء لإقامة المعالم و اقتباس الحضارة، فقد ذكر ابن بطريق أن بطريق الروم فى قنسرين طلب إلى أبى عبيدة ابن الجراح الموادعة على نفسه سنة حتى يلحق الناس بهرقل الملك، و من أقام فيها فهو فى ذمة و صلح، فأجابه أبو عبيدة إلى ذلك، فسأله البطريق وضع عمود بين الروم و المسلمين، و صوّر الروم فى ذلك العمود صورة هرقل جالسا فى ملكه فرضى أبو عبيدة، و مرّ بالصورة أحد العرب، و وضع زج رمحه فى عين تلك الصورة ففقأ عين التمثال عن غير قصد، فأقبل البطريق و قال لأبى عبيدة: غدرتمونا يا معشر المسلمين، و نقضتم الصلح، و قطعتم الهدنة فقال أبو عبيدة:

فمن نقضه؟ فقال البطريق: الذى فقأ عين ملكنا. فقال أبو عبيدة: فما تريدون؟

فقال: لا نرضى حتى نفقأ عين ملككم. فقال أبو عبيدة: صوروا بدل صورتكم هذه صورتى ثم اصنعوا بى ما أحببتم و ما بدا لكم، فقال: لا نرضى إلا بصورة ملككم الأكبر فأجابهم أبو عبيدة إلى ذلك فصورت الروم تمثال عمر بن الخطاب فى عمود، و أقبل رجل منهم ففقأ عين الصورة برمحه فقال البطريق: قد أنصفتمونا.

و ذكر المقريزى أن خمارويه بن أحمد بن طولون أمير مصر و الشام المتوفى سنة (۲۸۲ ه) عمل فى داره فى القاهرة مجلسا برواقه سماه بيت الذهب، طلى حيطانه كلها بالذهب المجال باللازورد، المعمول فى أحسن نقش و أظرف تفصيل، و جعل فيه على مقدار قامة و نصف صورا فى حيطانه بارزة من خشب معمولة على صورته و صورة حظاياه، و المغنيات اللاتى يغنينه بأحسن تصوير و أبهج تزويق، و جعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الإبريز الرزين و الكراذن المرصعة بأصناف الجواهر، و فى آذانها الأخراص الثقال الوزن، المحكمة الصنعة، و هى مسمّرة فى الحيطان و لونت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة. فكان هذا البيت من أعجب مبانى الدنيا.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۰۸

كانت هذه القاعة المصورة فى القرن الثالث. و ظهر فى عصر الأيوبيين و المماليك مصورون شاميون أبدعوا فى التصوير على الجدران و على الكتب، و منها ما كان إلى القرن السابع فى دير باعنتل قرب حمص، كان فيه على رواية ياقوت عجائب منها آزج (بيت مستطيل) أبواب فيها صور الأنبياء محفورة منقوشة فيها، و صورة مريم فى حائط منتصبة، كلما ملت إلى ناحية كانت عينها إليك. و منها ما كان فى هيكل دير مران فى سفح قاسيون بدمشق من صورة عجيبة دقيقة المعانى. و ذكر ابن جبير أنه كان فى كنيسة مريم بدمشق فى القرن السادس من التصاوير أمر عجيب، و كان مثل ذلك فى كنيسة القيامة و غيرها من كنائس فلسطين.

كان اليازورى من وزراء الفاطميين يفضل كثيرا على المصورين الشرقيين و كانوا من المسلمين. و قد جعل الظاهر بيبرس رنكه أى شعاره الأسد، و جعل دراهمه على صورته، و جعل أقوش الأفرم رنكه فى غاية الظرف و هو دائرة بيضاء يشقها شطب أخضر كأنه مسن عليه سيف أحمر يمر من البياض الفوقانى إلى البياض التحتانى و قال فيه نجم الدين هاشم البعلبكى:

سيوف سقاها من دماء عداتهو أقسم عن ورد الرّدى لا يردها

و أبرزها فى أبيض مثل كفهعلى أخضر مثل المسنّ يحدها

قالوا: و قد كان الخواطئ ينقشن رنكه على معاصمهن و فى أماكن مستورة من أجسامهن.

و من أجمل ما أبقت الأيام و إن لم يتم لها إلى الآن قرنان، الصورة الباقية فى دار أسعد باشا العظم فى حماة من أبدع ما حوت من النقوش العجيبة و غيرها، و هى صورة رسمت على قطعتين من الخشب جعلتا فى حائط القاعة الكبرى و نقشت عليهما صورة حماة فى ذلك العهد بجوامعها و مدارسها، و نواعيرها و قصورها، ظهر منها أن حماة كانت أعمر مما هى عليه الآن عرفنا ذلك بفضل التصوير.

أخذت العرب نقوش الفسيفساء عن الروم و بالغت فيها و لا يزال إلى اليوم قطع فى الدور و غيرها، و أهمها ما لا يزال فى كنيسة مادبا فى البلقاء من مصوّر فلسطين و نهر الأردن يشقها من وسطها و الأسماك تعوم فيه، و المدن التى كانت

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۰۹

عامرة لعهد واضعها، و لا يزال القسم الأعظم منها بحاله لم يصب بأذى الأيام.

و آثار الفسيفساء كثيرة مبعثرة فى دور مادبا لم تزل على بريقها، و فى دار سليم الصناع فى مادبا بركة ماء معمولة بالفسيفساء الملونة أيضا تخال ما فيها ماء حقيقيا و على جوانبها الثلاثة الباقية رسوم بالفسيفساء تمثل الحيوانات و الطيور البرية و الداجنة، تسرح فى جنينة زاهرة و الطيور المائية واقفة فى وسط الماء على آنية تشبه الزهرية، و فى كل زاوية من زواياها صورة إنسان تخالف الأخرى. و فى هذه البليدة عدة قاعات فرشت أرضها بالفسيفساء يطلق الماء عليها لتغسل كما يغسل بلاط القاعات و أفنية الدور.

قال فى مسالك الأمصار: و الفسيفساء مصنوع من زجاج يذهب ثم يطبق عليه زجاج رقيق و من هذا النوع المسحور (المسجور) و أما الملون فمعجون و قد عمل منه فى هذا الزمان (۷۴۰- ۷۵۰) شىء كثير برسم الجامع الأموى و حصل منه عدة صناديق و فسدت فى الحريق الواقع سنة أربعين و سبعمائة و عمل منه قبل للجامع التنكزى ما على جهة المحراب، غير أنه لا يجىء تماما مثل المعمول القديم فى صفاء اللون و بهجة المنظر، و الفرق بين الجديد و القديم أن القديم قطعه متناسقة على مقدار واحد و الجديد قطعه مختلفة

و بهذا يعرف الجديد و القديم ا ه.

و وصف ابن فضل اللّه هذا يمكن أن يستنتج منه أن الفسيفساء كانت تعمل فى الشام، و أن هذه الصناعة اللطيفة و إن اختصت بها القسطنطينية قد نقلت إلى الشام وجوّد عملها. و كان الوليد بن عبد الملك يحمل الفسيفساء على البريد من القسطنطينية إلى دمشق حتى صفح بها حيطان المسجد الجامع و مكة و المدينة.

و كانت الفسيفساء فى الجامع الأموى قبل حريقه الأول فى القرن الرابع ملونة مذهبة تحوى صور أشجار و أمصار و كتابات، على غاية الحسن و الدقة و لطافة الصنعة، و قلّ شجرة أو بلد مذكور إلا و قد مثل على تلك الحيطان قاله المقدسى و قال غيره: إنه مثلث فى صور الجامع صفات البلاد و القرى و ما فيهما من العجائب و أن الكعبة المشرفة صوّرت فوق المحراب كما قال فيه بعض المحدثين:

إذا تفكرت فى الفصوص و مافيها تيقنت حذق واضعها

أشجارها لا تزال مثمرةلا ترهب الريح فى مدافعها

كأنها من زمرد غرستفى أرض تبر يغشى بفاقعها

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۱۰ فيها ثمار تخالها ينعتو ليس يخشى فساد يانعها

تقطف باللحظ لا بجارحة الأيدى و لا تجتنى لبائعها

و تحتها من رخامه قطعلا قطع اللّه كف قاطعها

أحكم ترخيمها المرخم قدبان عليها إحكام صانعها

قال صديقنا أحمد تيمور فى رسالته التصوير عند العرب بعد كلامه على محاسن الجامع الأموى و ما فيه من التصاوير: «و لا نعلم إن كانت هذه الصور من عمل العرب فتدخل فيما قصدناه، أو من عمل صناع الروم الذين استعان بهم الوليد بن عبد الملك عند بناء المسجد» و قد علل المقدسى زخرف الجامع الأموى فقال: قلت يوما لعمى: يا عم لم يحسن الوليد حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق، و لو صرف ذلك فى عمارة الطرق و المصانع و رمّ الحصون، لكان أصوب و أفضل، قال: لا تغفل بنىّ، إن الوليد وفق و كشف له عن أمر جليل، و ذلك أنه رأى الشام بلاد نصارى، و رأى لهم فيها بيعا حسنة قد افتن زخارفها و انتشر ذكرها كالقمامة و بيعة لدّ و الرّها فاتخذ للمسلمين مسجدا شغلهم به عنهن، و جعله أحد عجائب الدنيا، ألا ترى أن عبد الملك لما رأى عظم قبة القمامة و هيأتها خشى أن تعظم فى قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبة على ما ترى ا ه. و لذلك حرص المسلمون فى كل دور على السير على قدم الوليد فى الاحتفاظ بنقوش الجامع و تحاسينه و تزاينه و تزاويقه، و مما أبقته الأيام من نقوش الفسيفساء أو الفصوص حيطان قبة الظاهر بيبرس فى دمشق، فإنها الأثر الباقى من هذه الصناعة فى هذا الصقع، بعد أن دثرت فسيفساء الجامع بما تعاقب عليه من الحريق فى أدوار كثيرة و لم يبق منها إلا ما كشف مؤخرا فى الحائط الغربى من صور الأشجار و غيرها. و من القصور المصورة الجدران دار الملك رضوان بحلب و فيها يقول الرشيد النابلسى من قصيدة يمدحه بها سنة ۵۸۹ و يذكر ما على جدران الدار من الصور:

دار حكت دارين فى طيب و لاعطر بساحتها و لا عطار

رفعت سماء عمادها فكأنهاقطب على فلك السعود يدار

و زهت رياض نقوشها فبنفسجغض و ورد يانع و بهار

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۱۱ نور من الأصباغ مبتهج و لانور و أزهار و لا أزهار

و منها:

صور ترى ليث العرين تجاههفيها و لا يخشى سطاه صوار

و فوارسا شبت لظى حرب و مادعيت نزال و لم يشنّ مغار

و موسدين على أسرّة ملكهم‌سكرا و لا خمر و لا خمار

هذا يعانق عوده طربا و ذاأبدا يقبّل ثغره المزمار

ثم لما تزوّج بضيفة خاتون ابنة عمه العادل و أسكنها فى هذه الدار وقعت نار عقب العرس فاحترقت و احترق جميع ما فيها، فجددها و سماها دار الشخوص لكثرة ما كان من زخارفها.

و من القصور المصورة القصر الأبلق الذى بناه الظاهر بيبرس فى مرجة دمشق أوائل النصف الثانى من القرن السابع، و على أنقاضه بنيت التكية السليمانية، و كان على واجهته مائة أسد منزّلة صورها بأسود فى أبيض، و على الشمالية اثنا عشر أسدا منزلة صورها بأبيض فى أسود، و هذه الصور أجمل من صور الأسود و النمورة و غيرها من الحيوانات التى كانت فى قلعة حلب، و من الحمامات المصورة حمام سيف الدين بدمشق عثر أحمد تيمور على قصيدة فى ديوان عمر ابن مسعود الحلبى الشهير بالمحّار فى وصف هذا الحمام جاء فيها:

و خطّ فيها كل شخص إذالا حظته تحسبه ينطق

و مثّل الأشجار فى لونهاو لينها لو أنها تورق

أطيارها من فوق أغصانهابودها تنطق أو تزعق

و هيئة الملك و سلطانهو جيشه من حوله يحدق

هذا بسيف و له عبسةو ذا بقوس و به يعلق

و من التصوير على النسيج على ما ذكره البدرى من تصوير «الأبيض القطنى المصوّر لأحياء القصور و أموات القبور» و كان يصنع فى دمشق. و من التصوير فى الكتب ما ذكره أبو الفداء فى حوادث سنة (۶۴۲) فى ترجمة المظفر صاحب حماة قال: استخدم الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف و كان مهندسا

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۱۲

فاضلا فى العلوم الرياضية فعمل له كرة من الخشب مدهونة، رسم فيها جميع الكواكب المرصودة. و ذكر ابن قاضى شهبة أن على بن محمد بن صالح الرسام عالم صفد المتوفى سنة (۷۴۹ ه) كان فى أول أمره يرسم القماش و قال: إن عنده كتابا فى علم الفلك صورت فيه جميع الأبراج و النجوم بليقتى الكتاب أى بالأحمر و الأسود تحت كل صورة أرجوزة بتعريفها. قال القاضى جمال الدين ابن واصل: و ساعدت الشيخ علم الدين على عملها و كان المظفر يحضر و نحن نرسمها و يسألنا عن مواضع دقيقة منها. و قد اطلع مؤلف كتاب نهر الذهب على مخطوط فيه وصف شجرة الإفادة التى كانت فى الجامع الأموى بحلب و تعد من الذخائر النفيسة العلمية قال: إنها كانت عظيمة الرواء مصنوعة من حجر و نحاس و حديد ذات خطوط و جداول فى أصول العلوم الرياضية شبيهة بشجرة ذات جذع و أغصان و أوراق عظيمة فى كل ورقة منها أصل من أصول تلك العلوم. و كان الطلبة يقدمون حلب من القاصية للاشتغال بالعلوم الرياضية المرسومة فى هذه الشجرة. و اسم غارس شجرة الإفادة خليل بن أحمد غرس الدين على ما فى در الحبب. خطط الشام ؛ ج۴ ؛ ص۱۱۲

يدخل فى باب النقش و الصنائع الغريبة ما رواه المقدسى فى حوادث سنة (۹۹۰) يوم عمل ختان ابن درويش باشا والى دمشق، فانهم صنعوا شيئا يسمى النقل بجامع المصلى و بجامع ايلخان خارج محلة القراونة و بجامع التوبة، و هو يشتمل على أربع عشرة قلعة من الورق المحشو بالبارود و أربع عشرة فرسا و أربعة عشر عفريتا كذلك، و على صور طيور و وحوش و كلاب و غير ذلك، و على قصر عظيم من الشمع الملون المشتمل على صورة أنواع الفواكه و البقول و الأزهار و الأطيار و غيرها كل ذلك من الشموع المصبغة و التذهيب و التفضيض، و كان ارتفاعه على علو الجملون الذى بجامع المصلى بحيث لم يتأت نقله منه و إخراجه إلا بعد فك الجملون المذكور، و هدم قوس أحد أبواب الجامع المذكور و هدم مواضع متعددة فى طريقه إلى دار السعادة، و هدم الحائط الشرقى من باب

دار السعادة أيضا حتى أدخل، و كان لهذا النقل يوم مشهود خرج للفرجة عليه جميع أهل دمشق رجالا و نساء لم يتخلف أحد. ثم فى اليوم الثانى منه نقل النقل الذى صنع بجامع محلة القراونة و بجامع التوبة و هو يشتمل على قصرين عظيمين من

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۱۳

الشمع أيضا أحدهما أطول من القصر المقدم بنحو أربع أذرع و الآخر دونه مشتملين على ما تقدم و على صور أنواع الحيوانات من السكر من الخيل و الجمال و الفيلة و السباع و الطيور و غيرها، كل ذلك من السكر المعقود و على النقول و الملبسات بالسكر أيضا.

و كان رشيد الدين بن الصورى يستصحب مصورا و معه الأصباغ و الليق على اختلافها و تنوعها، فكان يتوجه إلى المواضع التى بها النبات مثل جبل لبنان و غيره من المواضع التى قد اختص كل منها بشىء من النبات، فيشاهد النبات و يحققه و يريه للمصور فيعتبر لونه و مقدار ورقه و أغصانه و أصوله، و يصور بحسبها و يجتهد فى محاكاتها. ثم إنه سلك فى تصوير النبات مسلكا مفيدا، و ذلك أنه كان يرى النبات للمصور فى إبان نباته و طراوته فيصوره، ثم يريه إياه أيضا وقت كماله و ظهور بزره فيصوره تلو ذلك، ثم يريه إياه أيضا فى وقت ذواه و يبسه فيصوره، و من ذلك نستدل أنه كان فى القطر أكثر من مصور فى ذاك العصر، و أن ذلك التصوير بالأصباغ كان مألوفا، و قد بلغ من خذق المصورين أن يصوروا النبات على أنحاء شتى، أما عنايتهم بالنبات نفسه فمسألة ينظر فيها علماء النبات يستخرجون منها ما يريدون، و هذا كان فى الثلث الأول من القرن السابع للهجرة أى فى القرن الثالث عشر للميلاد.

و لا شك أن كل هذه البدائع كانت من صنع صنع الأيدى من الشاميين، فمن المصورين على الخزف و من المصورين على الخشب و من المصورين على النسيج و من المصورين على النحاس و الحديد، فمن المصورين على الخزف «الغيبى» قال تيمور: إن له قطعا بدار الآثار العربية بمصر، عثروا عليها بأطلال الفسطاط و قد كتب عليها اسمه فكتب على بعضها «الغيبى» فقط و على بعضها «الغيبى الشامى» و إن فى دار الآثار العربية أيضا لوحا من القاشانى «لمحمد الدمشقى» عليه صورة مكة المكرمة و الكعبة المعظمة صورها سنة (۱۱۳۹ ه) و كتب عليها اسمه.

و بعد فهذا القليل الذى قرأناه و استأنسنا به يدل على ذوق و إبداع، و إن مشاركة الأمة فى هذا الفن كانت على حصة موفورة، و فى هذا العصر نبغ فى الشام مصورون لا بأس بهم أخذوا عن إيطاليا و فرنسا و غيرهما و كادوا يجارون

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۱۴

مصورى الغرب بإبداعهم، و منهم من يصور بالأصباغ، و منها بدونها أى بالسواد، و منهم من يصور التماثيل من المرمر و الرخام و الصفر، و منهم من ينقش فيبدع على الخشب و النحاس، و من المصورين باليد توفيق طارق، على رضا معين، نديم بخاش، مصطفى الحمصانى، مصطفى فروخ، عبد الحميد عبد ربه، عبد الوهاب أبو السعود، بشارة السمرة، داود القريم، حبيب سرور خليل صليبى، سليم عورا، جبران خليل جبران، خليل الغريب، نقولا الصائغ.

النقش:

و يصح أن يعد فى باب التصوير نقش البيوت و التماثيل فإن المعروف أنه كان للشام حظ منه، و لم نر للنقش على الحجر براعة و إبداعا عند الأمم القديمة بقدر ما رأينا عند اليونان و الرومان، فإن النقوش التى عثر عليها فى شمالى الشام من أصل حثى مثل الأسود التى كانوا يرسمونها على أبواب مصانعهم و جدرانها و أبى الهول المجنح برأس إنسان أو ثور و هو من نقوش الأشوريين، و النقوش التى عثر عليها فى الجنوب من أصل سامى كالكنعانيين و الإسرائيليين و ما عثر عليه فى الساحل من نقوش الفينيقيين و أربابهم و معظمها منقولة عن المصريين الفراعنة- كل هذه النقوش ليست من جمال الوضع و حسن الذوق بحيث يرتاح إليها النظر مثل نقوش الرومان و اليونان، و مثال منها الناووس الذى عثر عليه فى صيدا من القرن الرابع للميلاد و جعل فى دار الآثار فى الإستانة و هو يمثل نساء باكيات تمثيلا كأنك تراهن.

أين جمال نقوش بعلبك من نقوش جبيل، أين نقش الناووس البديع المنسوب للإسكندر المقدونى أو لأحد قواده، و هو مما كان عثر عليه فى صيدا أيضا و حفظ فى دار الآثار بالإستانة، من نقوش قبر أحيرام الذى عثر عليه فى جبيل و جعل فى دار الآثار فى بيروت، أو قبر حيرام الذى عثر عليه قرب صور و نقل إلى متحف اللوفر فى باريز سنة ۱۸۶۰ م.

آثار تدمر و تماثيلها تنم عن ذوق و فضل صناعة أكثر من أرباب الفينيقيين و الحثيين، و الغالب أن تماثيل الشبه كانت تعمل فى قبرس و الروم و تحمل إلى تدمر لتزين بها رحباتها و ساحاتها، و صناعات جرش و مادبا أجمل من نقوش

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۱۵

السهول فى حوران و الصفا. كأن للإقليم و للعنصر الذى ينزله دخلا كبيرا فى إجادة النقش و التصوير. و معظم العناصر التى نزلت الشام منذ عهد التاريخ من العناصر السامية، و الساميون كما قال بعض علماء الإفرنج ما زالوا ينفرون من الرسم و النقش و التصوير. و لا غضاضة إذا قلنا إن الآريين أفرطوا فى الاشتغال بالرسم و النقش إفراطا شوهدت آثاره فى أمم أوربا التى خلفتهم، فكل شىء إذا لم يرسم الآن عندهم لا يفهم و لا يدرك، فأضعفوا بذلك قوة التخيل و قووا الباصرة.

و مما يستدل به على أن التماثيل قبل الإسلام كانت تعمل و تنقش فى الشام و أن العرب نقلوا عنها فى جزيرتهم ما رواه ابن الكلبى من أنه كان لقضاعة و لخم و جذام و عاملة و غطفان صنم فى مشارف الشام يقال له الأقيصر كانوا يحجونه و يحلقون رؤوسهم عنده.

و قال ربيعة بن صبغ الفزارى:

و إننى و الذى نغم الأنام لهحول الأقيصر تسبيح و تهليل

قال: و وجد عمرو بن لحى أهل البلقاء يعبدون الأصنام فقال: ما هذه؟ فقالوا نستسقى بها المطر، و نستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا، فقدم بها مكة و نصبها حول الكعبة. و لا شك أن هذه الأصنام تعد من الصناعات الشامية.

و لم يخل عصر فى الشام من نقاشين أبدعوا النقش على الحجر و النقش بالأصباغ على الجدران و على الخشب يتناقلون ذلك خلفا عن سلف، و النقش بالجبس على الجدران، و منها مقرنصات جميلة ذات تعاريش و كتابات حفظت فى مدفن أحد الوزراء من القرون الوسطى فى صالحية دمشق أمام دار الحديث الأشرفية البرانية و بينهما الطريق و تسمى هذه المدرسة التكريتية. و فى بعض الدور القديمة الباقية من القرن العاشر و بعده فى حلب و دمشق كثير من القاعات تدل على ذوق. و فى در الحب أن أبا بكر بن أحمد النقاش الجلومى الحلبى خدم أساتذة النقاشين من الأعاجم و استفاد منهم و مهر فى نقوش البيوت و كتابات الطرازات على طريقة القاطع و المقطوع، و فى نقوشه ما كان لكفّال حلب و غيرهم من الرماح و السروج بالمذهب و اللازورد مع معرفة طريقة حله و صنعة التركاش وضعا و نقشا و صنعة اللوح الذى يكتب فيه و صنائع أخرى تتم عشرين صنعة. و لا يعقل أن يعمل

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۱۶

ذلك مثل هذا المفنن و لا يكون حواليه عشرات من المتعلمين و العاملين.

و من النقوش الكثيرة التى بقيت محفوظة على بعض مصانع الشهباء نقوش باب أنطاكية و باب النصر و على هذا قطعة من إفريز تمثل كرمة معرشة يركض إلى جانبها أرنب. و من أجمل آثار قلعتها المحراب المنقوش على الخشب من عمل نور الدين زنكى و الجزء الثانى الذى أنشأه الظاهر غازى يدل على صورة الهندسة المألوفة فى عصر الأمويين: مثلث قائم الزوايا تعلوه قبة بين حنايا واسعة.

و من المنابر العجيبة الصنع ما عمله نور الدين محمود بن زنكى فى حلب برسم المسجد الأقصى عمله حميد بن ظافر الحلبى و سليمان بن معالى من خشب مرصع بالعاج و الآبنوس و عليه تاريخ سنة (۵۶۴ ه) و قد وضعه صلاح الدين فى محله عند فتح القدس و قد عمل فى حلب أيضا محراب الجامع الكبير بحماة صنعه ذاك الفنان الحلبى. و من أجمل المنابر منبر الحرم فى الخليل من صناعة الفاطميين و منبر جامع الحنابلة بدمشق من الخشب. و من المحاريب محراب جامع الحلاوية بحلب من الخشب و محراب الأقصى من الرخام. و من المحاريب الجميلة محراب جامع الفردوس بحلب الذى أنشأته ضيفة خاتون و هو من عمل حسان بن عنان. و جامع الظاهر غازى

فی قلعة حلب الذی بناه سنة (۶۱۰) فیه أجمل ضروب الهندسة من النقوش المعروفة فی المصانع الجمیلة. و من أهم الآثار العربیة تابوت من الخشب وضع علی قبر السیدة سکینة بنت الحسین فی مقبرة باب الصغیر بدمشق عمله أحمد بن محمد بن عبد اللّه سنة (۵۶۰ ه) و قد نقش بخطوط کوفیة و جعل داخل الحروف نقوش و حروف صغیرة أخری بالکوفیة أیضا. و تابوت و محراب و منبر جامع خالد بن الولید بحمص من أجمل الآثار العربیة. و کذلک تابوت مدفن أبی الفداء صاحب حماة. و من الآثار العربیة ما نقش بالحروف الکوفیة علی تابوت من الحجر دفنت تحته السیدة فاطمة الصغری بنت الحسین من القرن الرابع. و من التوابیت المهمة تابوت سیدی صهیب فی حی المیدان بدمشق (من القرن السادس) و منها تابوت بخت خاتون المعروفة عند العوام بالسیدة حفیظة فی طریق عین الکرش المؤدی إلی حی الأکراد بدمشق.

و ذکر القزوینی سوق المزوقین فی حلب و قال: إن فیه آلات عجیبة مزوقة، و ذکر ابن جبیر أن أکثر حوانیت حلب خزائن من الخشب البدیع الصنعة قد

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۱۷

اتصل السماط خزانة واحدة و تخللتها شرف خشبیة بدیعة النقش. و قد عرف الحلبیون من القدیم بحسن الذوق فی هذه الصناعة کما عرفوا بحسن الذوق فی الخطوط العربیة المنوعة الأشکال، و کلها نقوش معرشة تأخذ بمجامع الأبصار، و تعد فی باب النقش، و قد کان عدد الخطاطین الذین أنبغتهم حلب علی اختلاف العصور أکثر من غیرها من مدن الشام.

ذکر الغزی أن النقاشین فی حلب أصناف منهم من ینقش علی الحجر و هم نوابغ البنائین و فی المبانی القدیمة کثیر من النقوش الحجریة تشهد ببراعة البنائین الحلبیین فی القرون الماضیة و تدل دلالة واضحة علی نبوغهم بصنعة النقش، من ذلک صورتا وجهی أسدین فی حجرین مرصوفین فی جانبی أحد أبواب قلعة حلب لا یفرق الناظر إلیهما فی أول وهلة بین ملامحهما، فإذا أمعن النظر فیهما تبین له أن وجه أحدهما یضحک و وجه الآخر یبکی مما دل علی براعة النقاش.

و قال: إن من النقاشین من یعانی النقش علی المعادن کالذهب و الفضة و النحاس، و منهم من ینقشون المنازل و یعرفون بالمدهنین ینقشون صور أشخاص و أزهار و طیور و أشجار، و إن هذه الصنعة انحطت فی حلب أواخر القرن الماضی حتی سافر جماعة من أهلها إلی أمیرکا و تلقوا هذه الحرفة من أربابها و عادوا فنشروها بین الناس. و من أشهر النقاشین یوسف سعد اللّه الحویّک، و من الحفارین و النقاشین یوسف الزغبی و بشارة عیسی الزغبی و هذا حفر صورة آل رومانوف فی قطعة صدف من أنفس التحف.

و اشتهر فی دمشق و حلب و بیروت خطاطون کثیرون فی العهد الأخیر و منهم أمین زهدی. مصطفی السباعی. مراد الشطی. مصطفی القبانی. محمد علی الحکیم نجیب هواوینی. حسین البغجاتی. ممدوح الشریف. سلیم الحنفی. محمد علی الخطیب. زکی المولوی. حنا علّام. یوسف علّام. نسیب مکارم. مشکین قلم. محمد یحیی. صادق الطرزی. موسی الشلبی.

و کان فن الخط إلی عهد بعید صناعة یتنافس بها، و کثیر من البارعین فیها کانت مدار معاشهم ینسخون الکتب و غیرها فلما جاءت الطباعة ثم الآلات الطابعة بطل التنافس بالخط العربی الجمیل و قلّ الراغبون فیه.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۱۸

البناء:

قالوا: إن علم المبانی فن من الفنون الجمیلة بل هو أحسنها، إذا قارنا بینه و بین الموسیقی نجد أن کلیهما مطرب للإنسان، فالأول مکوّن من نغمات غیر متنافرة منتظمة الأوقات، و الثانی مکوّن من تراکیب و أوضاع غیر متنافرة الأجزاء، یظهر الأول مذبذبات العدد و الأوتار یحملها الهواء إلی الآذان فیطرب بها الإنسان، و یظهر الثانی الظلّ و الضوء و الألوان فتراها العین فی أتم ما یکون موضوعة بنسب محفوظة ما بین مزخرف و بسیط تظهر علیها المتانة و الراحة فتشتاق إلیها النفس، فکلا الفنین جمیل غیر أن الأول تذهب

محاسنه فی الهواء و بعد ذهابها لا یشعر بها، و تبقی محاسن الثانی ما دام لها ظل.

مواد البناء الحجر و التراب و الخشب و الحدید قد توجد کلها فی قطر و لا یوجد إلا بعضها فی آخر، فمصانع بابل تداعت لأن معوّل البانین کان علی الآجر لا الحجر، و مصانع الشام بقیت لأن الحجر فیه کثیر مبذول، و إن کان أقدم ما عرف من آثارنا یرد إلی زهاء ألفی سنة، و أقدم ما عرف فی بابل و أشور و نینوی من الآجر المکتوب یرجع إلی أربعة آلاف سنة. و ما عمل عندنا من الخشب و التراب دثر بعد مدة لیست بطویلة من عهد بانیه.

و لقد ظهر أن الشام فی القدیم لم یکن له طراز خاص فی البناء. و کان بناؤه بحسب روح الدولة التی تحکم فیه و الأمة التی تتغلب علیه: مصریا أیام الفراعنة، أشوریا علی عهد الأشوریین، بابلیا فی أیام بابل، فارسیا فی دور الفرس، رومیا فی دولة الروم، رومانیا فی عهد الرومان. و لم یکن للحثیین و الإسرائیلیین هندسة خاصة، بل کان الحثیون یقتبسون عن جیرانهم الأشوریین أصول بنائهم، و لیس مما اکتشف منه حتی الآن ما هو خارق للعادة فی أشکاله و وضعه بل هو محرف عن الطراز الأشوری تحریفا کثیرا، و ما اکتشف من الصور النصفیة و غیرها من عهد الحثیین لا ینم عن ذوق و إبداع علی الأکثر. و مصانع الحثیین فی الجملة مقتبسة من مصانع الأشوریین و البابلیین اقتباسا ردیئا لا یخلو من جفاء و سذاجة علی ما قال الباحثون. و سار الإسرائیلیون فی صنع مصانعهم علی تقلید الأشوریین و المصریین و قلدوا المصریین فی الأکثر لقرب فلسطین من مصر، و لاستیلاء المصریین زمنا علی فلسطین. و کذلک فعل الفینیقیون و الکنعانیون.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۱۹

و علی عهد الإسکندر دخل الشام طرز جدید فی البناء أی أصول الهندسة الیونانیة.

غصت جبال الشام بالمغاور الطبیعیة و الصناعیة، و منها ما کان لسکنی أهلها قبل أن عرف التاریخ، و منها ما جعلوه قبورا لموتاهم فی الأمم التی عرف بعضها التاریخ، و قد ثبت بهذه المغاور أن الشامیین استعملوا منذ الزمن الأطول آلات من المعادن لقطع الحجر و نحته. و لا یمکن تحدید العصر الحجری فی الشام، و یمکن أن یردّ العصر المعدنی إلی ثلاثة آلاف سنة قبل المسیح. و فی غربی الأردن آثار کثیرة من ذلک، و کلها ذات صلة بعبادات الأقدمین. و احترام الأحجار المقدسة کان قدیما منتشرا فی جمیع أرجاء الشام. و من المغاور مغاور عدلون بین صیدا و صور و مغاور نهر إبراهیم فی لبنان، و مغاور بیروت و جبیل و أنطلیاس، و من مصانع فلسطین الصهاریج و معاصر الزیت و الخمر. و بناء الفینیقیین من هذا النوع أجمل من بناء العبرانیین.

و قد اقتبس العبرانیون فی أصول مبانیهم مبانی الفینیقیین، و هؤلاء أخذوا علی ما یظهر من المصریین، و قد قیل: إن بنائین فینیقیین هندسوا معبدی داود و سلیمان. و یقول سنیوبوس: إن القدس کانت بالنسبة لبابل و ثیبة عاصمة أقالیم فقیرة، و ما کان العبرانیون یتعاطون البناء و یمیلون إلی العمران، بل کانت دیانتهم تحظر علیهم إقامة المعابد، و لم یکن فی القدس إلا قصر سلیمان و هو أول معبد عبرانی.

و أخذت الشام أصول الهندسة الیونانیة و تناغت بها قبل أن یفتحها الإسکندر.

و لم یبق من الآثار الیونانیة علی کثرتها فی الشام بقدر ما بقی من الآثار الرومانیة.

فإن الرومان أنشأوا مدنا برمتها خططوها علی أصولهم. و کان من هذه المدن ما بنی علی نفقة أباطرة رومیة. و معلوم أن الرومان تفننوا فی البناء و خلفوا فی کل مکان امتد سلطانهم علیه آثار الهندسة من طرق و قنوات و أسوار و مسارح و ملاعب و حمامات، مما شهد لهم باتساع الفکر و معرفة الهندسة و المتانة فی العمل و جمال الأسلوب. لا جرم أن علاقة الشام بإیطالیا أقدم من الإسلام، علاقتها بأرضنا مذ کنا ولایة رومانیة تحکمنا رومیة عاصمة تلک الأمة العظیمة.

و أخذ النصاری فی بناء کنائسهم عن فارس و الشرق، ثم اقتبس منهم الرومان أصولهم فی البیع، و ما لبثت الصناعات الفارسیة و البیزنطیة أن اختلطت

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۲۰

و نشأ منها صناعة جديدة هى الصناعة العربية. و أجمل هذه الصناعات على ما قال هوار الجوامع و القصور، و التقليد محسوس و لكنه تقليد غير أعمى، لأن تأثيرات الأساتذة الأقدمين لا تمنع من البحث العلمى و الاختراع الحديث، كما أن مشهد البدائع القديمة و درسها لا يحولان دون التفنن و لطافة الإبداع و الاختراع. قال: و فى الشرق نشأت هذه المدنية و كانت دمشق إحدى مراكزها.

و قال جلابرت: و من المصانع المنوعة فى الهندسة الشامية شيئان يلفتان النظر خاصة و هما البيع و الأبنية ذات السطوح. و كان المهندسون الشاميون فيها عالة على الشرق يسترشدون بآراء مهندسى فارس. و قد أثرت الهندسة الشامية إذ ذاك فى هندسة كثير من الأمم و لا سيما فى بيزنطية، و أخذت بيزنطية عن الشام أو من طريق مصر عن الشام، أصول كثير من الأبنية، و قال لامنس: إن الهندسة و التصوير و النقش و فنون الزينة أخذت تسير فى طريق مستقلة عن النموذجات اليونانية و الرومانية التى كانت منذ عهد السلوقيين مؤثرة فى جميع الصنائع النفيسة، و أنشأ المهندس الشامى يرفض استعمال الملاط بين الأحجار و يكتفى بحسن وضعها على صورة متوازية تقوى بها بدون لحمة بين أجزائها، و استعاض عن الآجر المألوف على عهد الرومان و اليونان بالحجر النحيت، و بنى الكنائس ذات القباب فكثرت البيع البديعة التى يعجب الأثريون بخرائبها العظيمة اليوم و عنها أخذ بناة الكنائس الرومانية ا ه.

كان أساتذة العرب فى البناء لأول أمرهم أناسا من الروم، فكان بين أبنيتهم الأولى و أبنية النصارى وجه شبه، فقد بنى المسجد الأقصى على مثال كنيسة القبر المقدس، و نقل استعمال القباب من الشرق إلى الغرب، و لم تكن معروفة إلا فى هذا الشرق، و قد أفرط العرب كالروم فى استخدام الفسيفساء فى الجدران و القباب، و زادوا فى هذه الفصوص ما ابتدعوه من عندهم، و كان محببا إلى نفوسهم، جميلا فى عيونهم. و يقول بعض العارفين: إن الشام لا يحوى كثيرا من المصانع الخارقة للعادة من صنع العرب، لأنهم اكتفوا بما وجدوه فى القطر من المبانى القديمة، فاستعملوها على ما يشاءون، و لطالما بنوا بمواد أخذوها من أبنية قديمة.

أما هندسة الصليبيين فأكثرها حصون و قلاع، و لا يعرف إذا كانت فى

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۲۱

الأصل من بناء العرب أو الإفرنج، المرجح أن هؤلاء طبعوها بطابعهم، و قالوا لم يخترع العرب أبنية خاصة بهم، بل تجلى فى هندستهم حبهم للزخرف و اللطف و اخترعوا القوس المقنطر و رسم البيكارين، و كان تفننهم فى هندسة القباب و السقوف و المعرشات من الأشجار و الأزهار، مما جعل لجوامعهم و قصورهم بهجة لا يبلى على الدهر جديدها، و دلت كل الدلالة على إيغالهم فى حب النقوش و الزينة، كأن أبنيتهم و مصانعهم ثوب من ثياب الشرق تفنن حائكه فى رقشه و نقشه.

نعم إن العرب لم يخترعوا و لكنهم اقتبسوا بادئ بدء، فإن ابن الزبير لما عمر الكعبة دعا إليها بنائين من الفرس و الروم، و الوليد لما بنى أموىّ دمشق و أقصى القدس دعا إليهما بنائين من الفرس و الروم و الهند. و لا جرم فقد برع مهندسو العرب فى هذه الديار فى علم عقود الأبنية و هى ما يتعرف منه أحوال أوضاع الأبنية و كيفية شق الأنهار و تقنية القنىّ و سد البثوق و تنضيد المساكن.

و لو لم يبرعوا فى كيفية إيجاد الآلات الثقيلة الرافعة لنقل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة لما تمكنوا من عمارة المدن و القلاع و الأسوار و المنازل و الجوامع و المدارس هذا التمكن الذى يبهرنا اليوم أثره.

و مالت الهندسة الشامية إلى السذاجة لأول انتشار النصرانية، فكانوا يجتنبون كل زينة زائدة لتؤثر بمتانة البناء المعمول بالحجارة الضخمة، و جمال الحجم و ترتيب الأجسام. و نشأت بين القرن الرابع و السادس للميلاد هندسة متينة تختلف عن الهندسات الأخرى، منها بعض أمثلة فى الشام العليا و حوران.

و يقول جلابرت: إنه كان لأهالى الشام الوسطى هندسة قائمة بذاتها مباينة لفن البناء الذى أشاعه الرومان فى الشام، و هو بناء قديم يدعى بالطراز الشامى لا أثر فيه للطرق الرومانية و الشرقية المحضة فى البناء، و علاقته ظاهرة بالهندسة اليونانية الشائعة فى أنطاكية، و قد نشأ عنه طرز مركب شاع فى القرون الأخيرة، و طرق البناء فى حوران تختلف عن الهندسة الشمالية فتألف طرز وطنى مباين للطرز

اليونانى الذى أدخله السلوقيون.

و من أهم أبنية القرون الوسطى و تدل على ذوق جميل فى البناء، المدارس الكبرى فى حلب و دمشق و القدس و غيرها من البلدان، و القليل الباقى منها إلى الآن شاهد على وجه الأيام بما صار للمهندس الشامى من حسن الذوق، و منها

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۲۲

فى دمشق مدخل المدرستين العادلية الكبرى و الظاهرية و المستشفى القيمرى، و فى حلب مستشفى أرغون شاه و مدرسة الفردوس إلى غيرها من الأبنية الكثيرة فى القرون المتأخرة.

و من أهم أبنية القرون الإسلامية بدمشق المأذنة الغربية فى الجامع الأموى المعروفة بمأذنة قايتباى و هى من أهم المآذن العربية من حيث الهندسة و النقش و الأصول المعمارية قامت على قصبتين من الأرض (۴۸ مترا مربعا) بارتفاع ۶۶ مترا هندسها معمار عربى اسمه سلوان بن على و قد تمت عمارتها سنة (۸۸۵ ه) و بانيها السلطان الملك الأشرف قايتباى كتب اسمه فى جهاتها الأربع. و قد أجرى ترميمها و إرجاعها إلى أصلها و إكمال نواقصها المهندس الرسام توفيق طارق سنة (۱۳۴۲ ه) و كان على رفرف شرفتها الأولى آية إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً الآية و كتبها موسى شلبى و بقى قسم من الحروف القديمة.

و قد دخلت إلى الساحل منذ عهد الحروب الصليبية أصول الهندسة الطليانية فى الدور و القصور، و ما برحت ترسخ مع الزمن، و لا سيما فى طرابلس و بيروت بحيث أن جميع ما نراه فى مدن الساحل من الدور هو مما أنشئ فى القرن الأخير و فى هذا القرن هو طليانى الصبغة، و هندسته عارضة على هذه الديار. هذا فى الساحل أما هندسة البيوت فى الداخل فإنها قديمة لا يعرف زمن الاصطلاح عليها، فقد نقل الرومان هندسة بيوت دمشق القديمة إلى شمالى إفريقية، ثم نقلها العرب بعد قرون إلى الأندلس، و لا تزال هناك إلى اليوم يفاخر بطرازها و يطرّس على آثارها، كأن تكون الدار ذات مدخل أو دهليز يؤدى إلى فناء واسع فيه حوض ماء و إيوان، و على جوانبه أماكن لتربية بعض الأشجار و الزهور، و الدار ذات طبقتين فقط: السفلى للصيف و العليا للشتاء. و قد رأى ناصر خسرو قبيل منتصف القرن الخامس أن البيوت فى طرابلس كانت ذات أربع و خمس و أحيانا ست طبقات. و كثرة الطبقات فى الدور لم تعهد إلا فى الغرب، و ما نظن الشام زادت طبقات بيوتها على ثلاث فى معظم أدوار التاريخ.

الشعر و الفصاحة:

ظهر كثير من الشعراء و البلغاء فى هذه الديار و لا سيما من السريان و اللاتين

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۲۳

و الروم، اشتهروا فى العالم و خلدوا آثار نبوغهم، و لطالما أخرجت مدرسة نصيبين و الرّها و مدرسة الفقه فى بيروت و مدرسة أنطاكية خطباء هزوا النفوس و علموها بخطبهم و أشعارهم و مجادلاتهم، و قد كثر سواد هذه الفئة فى عهد الدول العربية الإسلامية أيضا. و الشعر و الخطابة مما امتازت به العرب فى الجاهلية و الإسلام و غالت فى الولوع بهما، و لقد أثر القرآن فى هداية العرب ببلاغته و فصاحته، تأثيره بحكمه و هدايته. و لطالما كان شعراء العرب يصفون الشام و يتغزلون بها منذ أول يوم عرفوها، حتى إذا كان الإسلام و تبسطوا فى أرجائها، أوحت إلى قرائحهم من أساليب الشعر ما يتألف من مجموعه أعظم ديوان بل خزانة عظيمة فى الأدب تدل على فضل قرائح، و نبوغ فى فنون القول، و توسع فى مجال الخيال، و ما هم إلا مبدعون وضعوا ما وضعوه من بنات أفكارهم على غير مثال.

لا جرم أن الشام كانت أول الأقطار التى أخذت الفصاحة عن العرب فى جزيرتهم، و بقيت فيها على اختلاف العصور و تعاقب الدول محفوظة فى الجملة، فما انقطع منها من ينظمون و يجدون حواليهم من يطرب لنغماتهم و يصفق لنبراتهم و إن لم يعرفوا صحاحها من زيوفها. كان الشعر مبدأ دخول العرب فى الحضارة، و الأدب مقدمة النهوض فى العلوم، و لذلك رأيناهم لم يحرصوا على شىء

حرصهم على روايته و درايته. و أكثر ما يجيد الشعراء فى أرض صح إقليمها، و اعتدل نسيمها، و طابت تربتها و أديمها، و صفت أمواهها، و ساغ نميرها، و كثرت ظلالها بأشجارها، و غردت أطيارها فى أسحارها، و فغم أريج نوارها و أزهارها، و هذا على حصة موفورة فى القطر الذى يتاخم جزيرة العرب من شمالها. و قد أنعم عليه الخالق بضروب البدائع و الروائع، فكان شعراء عرب الشام و ما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق و ما يجاورها فى الجاهلية و الإسلام كما قال الثعالبى. و ما زالت بعض قصائد شعراء ذاك الدور مضرب الأمثال فى البلاغة، و ما برح عرب المدن يتغنون بشعرهم و يعجبون به و يترنمون، و يتوفرون على حل ما استعجم عليهم من ألفاظه و معانيه. قال: و السبب فى تبريز القوم قديما و حديثا على من سواهم فى الشعر قربهم من خطط العرب و لا سيما أهل الحجاز و بعدهم عن بلاد العجم، و سلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۲۴

بمجاورة الفرس و النبط و مداخلتهم إياهم ... انبعثت قرائحهم فى الإجادة، فقادوا محاسن الكلام، بألين زمام، و أحسنوا و أبدعوا ما شاءوا، و كان أبو بكر الخوارزمى قد دوّخ الشام فى صباه و لطالما قال و هو أحد أمراء النظم و النثر:

ما فتق قلبى، و شحذ فهمى، و صقل ذهنى، و أرهف حدّ لسانى، و بلغ هذا المبلغ بى إلا تلك الطرائف الشامية، و اللطائف الحلبية، التى علقت بحفظى، و امتزجت بأجزاء نفسى.

حكى المازنى المتوفى سنة ۲۴۹ قال: دخلت دير بصرى فرأيت فى رهبانه فصاحة و هم متنصرة من بنى الصارد و هم أفصح من رأيت فقلت: ما لى لا أرى فيكم شاعرا مع فصاحتكم؟ فقالوا: و اللّه ما فينا أحد ينطق بالشعر إلا أمة لنا كبيرة السن فقلت: جيئونى بها فجاءت فاستنشدتها فأنشدتنى لنفسها:

أيا رفقة من دير بصرى تحملتؤم الحمى لقيت من رفقة رشدا

إذا ما بلغتم سالمين فبلغواتحية من قد ظن أن لا يرى نجدا

و قولوا تركنا الصاردىّ مكبلابكل هوى من حبكم مضمرا وجدا

فيا ليت شعرى هل أرى جانب الحمىو قد أنبتت أجراعه بقلا جعدا

و هل أردن الدهر يوما وقيعةكأن الصبا يسدى على متنه بردا

و ما برحت الديارات فى الشام تقدر الفصاحة كما تقام فيها للموسيقى أسواق.

و ظهر الضعف فى الشعر خلال القرون الأخيرة، و نسلت عليه القرون إلى أن خلع فى أوائل هذا القرن الثوب البالى القديم و لبس ثوبا جديدا فيه من جلال الحديث و عز القديم ما جمع فيه الجسم و الروح. بدأ هذا من لبنان و بيروت ثم تناول عامة مدن الشام. أما القرى و البوادى فقد اكتفت بالأزجال، و الزجل نوع من الشعر محدث يصفون فيه أيامهم و مفاخرهم و هو أشبه بالرجز الذى كانت العرب تترنم به فى عملها و سوقها و تحدو به فى بواديها. و كان للزجالين فى القرن الماضى و فى هذا القرن منزلة عند أهل الزرع و الضرع، يدعون الزجال إلى الأفراح ليحمل البهجة إليها، و إلى الأتراح ليسرى عن النفوس ما نزل بها، و لهم ضروب من الموالياً يسمونها العتابى و الإبراهيمى يطربون بها و لا تخلو من معان شعرية قال صديقنا الشيخ إبراهيم الحورانى و كان شاعرا مجيدا بالفصحى و العامية:

و النصارى و اليهود يعتقدون أن بعض الشعر إلهام إلهى و وحى حق كشعر أيوب

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۲۵

و داود و سليمان و أشعيا و عدة من كتبة الأسفار الإلهية و الشعر بقسميه الفصيح و العامى المعروف عند العامة بالمعنّى يعمل على ثلاثة أبحر الرجز و الوافر و السريع، أما أغانيهم التى يسمونها بالقراديات و هو اسم خشن سميت مؤخرا بالعديّات و بالقويلات كما يقولون لمن يعانيها (القوّال) فبعضها لا ينطبق على وزن من أوزان الشعر المعروف، و وزن بعضها المتدارك مع تغييرات أيضا. و

جاءت أغانيهم المعروفة بالموالات البغدادية و المصرية و الزلاغيط على بحر البسيط ا ه.

و لا يزال إلى اليوم لكل قبيلة فى الشام شاعرها ينشدهم من حفظه أو نظمه من شعر شعراء البادية على نغمات الرباب قصائد يسليهم بها، و لشعر البادية عندهم أوزان خاصة، و إذا قيس على علات لفظه على أبحر الشعريرى بعضه موزونا و فى بعضه عيوب بسيطة، و من أشعر شعراء البادية نمر بن عدوان فى عبر الأردن كانت له امرأة اسمها و ضحاء تتيم بها كما تتيم قيس بليلاه فرثاها بعد موتها بعشرات من القصائد و منها ما فيه معان جميلة- قاله أديب وهبة.

و إذا انتشرت المدارس فى المدن و القرى على حد سوى، و جعل التعليم فى كل درجاته باللغة الفصحى يتأصل الغرام فى الناس أكثر مما نراه بالفصاحة و الشعر فلا تلبث الشام أن تحسدها جاراتها كما كانت فى القديم على اختصاصها بذلك، و كما تحسد هى مصر اليوم على تفنن شعرائها و خطبائها و سريان الفصاحة إلى ألسن من ليسوا من الأدب العربى فى العير و لا فى النفير.

الرقص:

ربما ينفر بعضهم من سماع هذا اللفظ و نحن لم نتعرض له هنا إلا مجاراة للفرنج فى إدماجهم له فى الفنون الجميلة. عدّ «طاشكبرى» الرقص من أنواع العلوم فقال: إنه علم باحث عن كيفية صدور الحركات الموزونة عن الشخص بحيث يوجب الطرب و السرور لمن يشاهده، و هذا من العلوم التى يرغب فيها أصحاب الترفه و الأغنياء و الأمراء و من يجرى مجرى هؤلاء من أصحاب الملاهى ا ه. و ذكروا أن الرقص قديم كقدم العالم و أن أقدم شعوب الأرض كان لها رقص على أوزان معلومة. فالرقص مرتبط بالموسيقى و الإيقاع، و كثيرا ما كانوا يتبعون الرقص بالتصدية و الضرب بالأيدى، ثم عرفوا الشبابة حتى جاءت المزاهر

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۲۶

و المعازف، و كان الرقص على نوعين: رقص مقدس من توابع الحفلات الدينية، و رقص عالمى لتسلية العامة، أى أن الرقص رقصان رقص دينى أو رقص المآتم و رقص الحبور و الابتهاج. و فى التوراة أن الرقص كان شائعا عند العبرانيين، و قد رقص داود أمام تابوت العهد، و لما خرج بنو إسرائيل من مصر كان لهم نوعان من الرقص، الرقص المقدس المنظم و رقص سرىّ له اتصال بالتعبد على نحو ما كانوا يرقصون فى التيه حول عجل الذهب. و كان للعبرانيين نوع من الرقص الشريف يرقصه العذارى فى الحفلات العامة احتفاء بذكرى حوادث سعيدة من مثل انتصار على عدو أو تكريم مجد أبطال الوطن. و هكذا كان الرقص شائعا عند المصريين، ثم شاع عند اليونان و هم المشهورون بتفننهم فبلغ عندهم أقصى درجات رقيه و انتقل إلى الرومان، و إذ كانوا شعبا قاسيا غليظا فقد عندهم بهاءه و رواءه و ما يقصد منه. و لكل شعب رقصه الخاص به، عليه صبغة أخلاقه القومية الثابتة. و لجميع شعوب الغرب و الشرق رقصهم الخاص أو رقصات عرفت بهم و أثرت عنهم. و الإنكليز أكثر الأمم انحطاطا فى الرقص لم يبرزوا فيه تبريزهم فى معظم مظاهر الحياة القويمة.

و كان الرقص عند العرب كالغناء من الفنون الطبيعية استعملوه فى كل دور عرف من أدوارهم. و الرقص أو الزفن كان عند العرب على ما يظهر على الطراز الذى هو عليه اليوم عند العرب سكان القرى و العرب الرحالة و منه ما يعرف بالدبكة، فإن وفد الحبشة لما قدم إلى الحجاز جعلوا يزفنون أى يرقصون. و فى حديث فاطمة أنها كانت تزفن للحسن أى ترقص له و فى رواية ترقصه. و من غريب تفنن العرب فى مسائل الظرف و الذوق أنهم عرفوا علما سموه «علم الغنج» عده صاحب الموضوعات من فروع علم الموسيقى و قال: هو علم باحث عن كيفية صدور الأفعال التى تصدر عن العذارى و النسوان الفائقات الجمال و المتصفات بالظرف و الكمال إلى آخر ما نقله صاحب كشف الظنون.

و الغالب أن رقص الشام اقتبس مع الزمن من أوضاع كثيرة، و الأمم تقتبس عن غيرها ما يتلاءم مع مزاجها. و كذلك تقبس غيرها بعض ما ألفته فى هذا الشأن. من ذلك أن الرقص الاسبانى إلى اليوم لم يبر بعد خمسة قرون من مغادرة العرب أرض الأندلس على

الطراز العربی و کذلک موسیقاهم إلا قلیلا. و قد

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۲۷

أصبح الرقص فی الغرب علما بذاته و لکن العرب لم یقصروا فیه، و لا سیما فی عصور البذخ و الرفاهیة. و بعض المحققین من علماء المشرقیات من الأسبان و البرتغال (مجلة الزهراء) یبرهنون الآن علی أن موسیقی الأوربیین و شعرهم انتقلا من فارس إلی أوربا بواسطة العرب، و منهم من ینشر منذ سنین قطعا قدیمة و یبین ما فیها من آثار الروح الشرقی، و کان لنا فی الشام نوع من الرقص یسمونه بالسماح (و لعله السماع) یرقصه عدة أشخاص علی نغمات متساوقة من الأوتار و ترديد جمیل من الموشحات فقط، و هو أشبه بالأوبرا أو الأوبریتope ?ra ,Ope ?rette عند الإفرنج أی القصائد الملحنة التی تمثل علی نغمات الموسیقی فقط، و یزید رقص السماح علی الأوبرا کونه ترفع فیه الأصوات بأنغام مألوفة.

و فی کتاب مفرح النفس: و اعلم أن من الریاضیات البدنیة التی تختص بالنفس اختصاصا کثیرا إلی الغایة الرقص، و هو عبارة عن حرکة متناسبة من الیدین و الرجلین بضرب من الضروب المعروفة فی الموسیقی بإرادة النفس و شوقا إلی محل طلبها الأصلی، قال: إن الرقص مندوب إلیه فی ترویح الأرواح و نفی کدورة النفس و حصول الإشراق لها، و یجب أن یکون مع سکون و تجمع من الذهن و العقل فتحصل اللذة و البهجة، فالرقص له فی إحداث راحة النفس و سرورها قوة عظیمة یعجز اللسان عن وصفها و الذهن و العقل عن تصورها ا ه.

التمثیل:

و یدخل فی باب الرقص أو فی باب الموسیقی (فن التمثیل) و هو و إن کان مشهورا فی الشام علی عهد الرومان و الیونان، بدلیل ما نراه من الملاعب الخاصة به و بعرض الحیوانات و الصراع فی البتراء و عمان و بعلبک و أفامیة ولدّ و قیساریة و غیرها من المدن القدیمة. إلا أنه لم یعهد علی الصورة المعروفة حدیثا، اللهم إلا علی الندرة عند عرب الأندلس، و هذا فی بعض الروایات. و لقد قالوا: إن أنطاکیة أیام عزها ارتقی فن التمثیل فیها حتی کانت تجلب الممثلین من صور و بیروت و المغنین من بعلبک. و قال بعضهم: إن السبب فی عدم العنایة بالتمثیل فی الإسلام حجاب النساء. و التمثیل لا یتم بدون مشارکة الجنس اللطیف. و لما لم یعهد التمثیل عند الجنس السامی لم تخرج العرب عن هدی جنسها. و التمثیل

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۲۸

ما عرف إلا عند الجنس الآری فقط. و من ذلک الفرس و هم آریون خلفوا للعرب کتاب ألف لیلة و لیلة و هو اختراع آری فیه شیء من التمثیل.

و کان العرب فی الجاهلیة و الإسلام یرون من سقوط المروءة أن یمثل مجلس الأمیر أو الوزیر، و إن کان لا یخلو تمثیله من حکمة، فکیف بمجلس صبابة، و معظم التمثیل یدور علیها، لا جرم أنهم قصروا فی التمثیل، و تقاعسوا عن اقتباسه عن الأمم الآریة، و إن عرف من حالهم أنهم لم یأخذوا عن الأمم الأخری إلا ما اشتدت حاجتهم إلیه من أنواع العلوم، أدمجوه فی حضارتهم و مزجوه بأجزاء نفوسهم. و إذ کان التمثیل لا ینطبق مع عادات العرب و لا عرف به مجتمعهم أعرضوا عنه، و جاء الإسلام موافقا لمصطلحهم و عاداتهم و أخلاقهم فی بعض الأحوال.

بید أن العصر الأخیر لم یضنّ علی الشام بتجلی الآداب الرفیعة فیه، فقام فیها سنة (۱۲۸۲ ه) فی دمشق أیضا رجل من أبنائها هو السید أحمد «أبو خلیل» القبانی من المبرزین فی الموسیقی المشهود لهم بالإجادة فأنشأ دارا للتمثیل، و بدأ یضع روایات تمثیلیة وطنیة، من تألیفه و نظمه و تلحینه، و یمثلها فتجیء دهشة الأسماع و الأبصار، لا تقل فی الإجادة من حیث موضوعها و أزیاؤها و نغماتها و مناظرها عن التمثیل الجمیل فی الغرب. و اعتاض لأول مرة عن النساء بالمرد، و لما انتقل إلی مصر لنشر فن التمثیل العربی هناک، عاد

إلى الطبيعة و استخدم فى كل دور من يصلح له من الجنسين، و وجه الفخر فى أبى خليل أنه لم ينقل فن التمثيل عن لغة أجنبية، و لم يذهب إلى الغرب لغرض اقتباسه، بل قيل له: إن فى الغرب فنا هذه صورته فقلده، و قيل: إنه شهد رواية واحدة مثلت أمامه فى إحدى المدارس الأجنبية، و لما كانت عنده أهم أدوات التمثيل و هو الشعر و الموسيقى و الغناء و رأى أنه لا ينقصه إلا المظاهر و القوالب، أوجدها و أجاد فى إيجادها، و لذلك كان أبو خليل مؤسس التمثيل العربى، و نابغة العرب فى الموسيقى و التمثيل، و رواياته التى ألفها ما زالت منذ زهاء ستين سنة و إلى يوم الناس هذا، موضع إعجاب الأمة، تمثل فى دور التمثيل و تلذ الجمهور مثل رواية أنيس الجليس و غيرها.

هذا و إن سبق لمارون النقاش فى بيروت فعرب فى سنة (۱۸۴۸ م) من إحدى

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۲۹

اللغات الأوربية بعض الروايات التمثيلية و مثّلها بالفعل. و الإبداع فى التأليف و الوضع، لا فى النقل و الاحتذاء، و إن عدّ الناقل صاحب فضل أيضا.

و لما كان التمثيل كما قلنا عارضا على مدنيتنا رجع القهقرى بعد أبى خليل.

و ظل إلى يومنا هذا يمشى مشيا ضعيفا، فلم تقم إلى الآن جوقة تمثيل وطنية تبث فى الأمة روح الفضائل و الآداب، و تأخذ من الناس بعض أوقاتهم تصرفه فيما يفيدهم فيلهون بما يجلب السرور إلى قلوبهم، و النور إلى عقولهم، و تتهذب فى مدرسة التمثيل اليومية عقول الكبار، كما تتهذب فى الكتاتيب عقول الصغار.

فقد قال فولتير: إن المرء يتعلم بالتمثيل أحسن مما يعلمه إياه كتاب ضخم.

و لعل أبناء الشام إذا قويت فيهم أساليب الثقافة الحديثة، ترتقى فيهم سائر الفنون التى انحطت و لا تزال منحطة، فتكون من العوامل فى نهوضها إلى المستوى اللائق بها فى سلم الحضارة و الهناء. و التمثيل الراقى أنفع لمجتمعنا من ذاك التمثيل الساذج الذى ما زال فى أكثر مدن الشام مألوفا للعامة، و نعنى به خيال الظل أو الخيال الراقص المعروف أهله بالمخايلية و عرف هذا الضرب من التمثيل عند الترك، و إن لم يكن من اختراعهم باسم (قره كوز). و التمثيل أجدى على أبنائنا و بناتنا من القصاصين أى الحكوية (الحكواتية) الذين يلهون العامة بغرائب الوقائع فى المقاهى و يبثون فيهم سخائف و خرافات.

و من غريب شأن هذه الأمة أننا رأينا كثيرا من نجباء أبنائها برعوا فى التمثيل، و منهم من يعرف الأدب و ما ينبغى له، قد زهدوا فى فنهم، و كتموا نبوغهم فيه، شأن كثير من أرباب الصوت الرخيم و الغرام بالموسيقى، و الضرب على آلات الطرب المتعارفة، يخافون أن يعرفوا بها و يعمدون إلى التقية كأن من العار التلبس بهذه الفنون الجميلة.

و ممن عرفنا منهم نور الدين حقى. حكمة المرادى. صالح الحيلانى. أحمد عبيد. سليم عطاء اللّه. أمين عطاء اللّه المعروف بكش كش بك. و اشتهر أيضا حمزة الأصيل. صالح شهبندر. حسن الساعاتى. إبراهيم المنجد. إبراهيم نفش.

راغب السمسمية. جرجى نفش. درويش البغجاتى. أبو الخير الغلاييني. يوسف مردم بك. خالد السمسمية.

(۴- ۹)

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۳۰

متى ترتقى الفنون الجميلة:

لا- جرم أن ارتقاء الشام فى هذه الفنون على اختلاف فروعها، موقوف على ظهور نوابغ من أبنائنا يرحلون إلى الغرب لنقلها و التشبع بآدابها، ثم يعودون فيلوبون على إحياء ما اندثر أو كاد من هذه الصناعات النفيسة فى القطر، و ينشرونها على النظام الغربى الحديث على صورة مقبولة، و إذا نشأت بعد ذلك مدرسة واحدة راقية فى كل فن من هذه الفنون لا يأتى جيل ثان بعد جيلنا هذا حتى يكون

عنـد أهـل القطر العـدد الـذى يحتـاجون إليه من الأعيـان الـذين لاـ غنيـة للمجتمع الشامى عنهم فى إنهاضه. و يشترط فى من يريـدون الإخصاء فى هذه الفنون أن يكونوا ممن يحبون أن يعرفوا بما اختصوا به، أو يسـعوا طاقتهم لنشـره، و من لا يحب صنعته و لا يفاخر بها لا يبرز فيها، و عندئذ نعدّ شيئا مذكورا بين أمم الحضارة فى باب هذه الفنون كما كان أجدادنا.

يقول الجاحظ: إن الضـحك فى موضعه كالبكاء فى موضعه، و التبسم فى موضعه كالقطوب فى موضعه، و إنما تشاغل الناس ليفرغوا، و جـدّوا ليهزلوا، كما تـذللوا ليعزوا، و كدوا ليستريحوا، و قد قسم اللّه الخير على المعدلة، و أجرى جميع الأمور إلى غاية المصـلحة، و قسـط أجزاء المثوبـة على العزيمـة و الرخصـة، و على الإعلاـن و التقيـة، فـأمر بالمـداراة كمـا أمر بالمباداة، و جوّز المعاريض، كما أمر بالإفصاح، و سوغ المباح، كما شدد فى المفروض، و جعل المباح جماما للقلوب، و راحة للأبدان، و عونا على معاودة الأعمال ا ه.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۳۱

الزراعة الشامية

العامر و الغامر:

حياة الشام بزراعته ثم بصـناعته و تجارته، و القرى و البوادى أوسع بقعـة و أوفر سـكانا من المدن و الحواضـر، و لا نعلم مقدار سـكان الشام فى القرون التى سـبقت الإسـلام و لا فى القرون التالية، و قال بعضـهم: إن سـكان الشام عند دخول العرب كانوا ستة ملايين على وجه التخمين، و لكن الظـاهر من مصـانع أهلهـا و طرقهم القديمـة التى كـانت تربـط أجزاء القطر كالشـبكة و آثـار عمرانهم مثل حنايا بعض الجسور الكبرى، و خرائب القصور الفخمـة، و الـدّ من التى تشاهـد الآن فى أواسط الفلوات الخاليـة، و العاديّات و الآثار الجمـة، يـدل على ارتقـاء زراعتهم و كثرة ثروتهم و نفوسـهم. فقـد كـانت حوران أنبـار الشام على عهـد الرومان لوفرة حبوبها و لا تزال هى و البلقاء على كثرة ما تعاقب عليهما من الأيدى الظالمة فى الأكثر، معروفة بهذه الصـفة وجودة حنطتهما التى لا مثيل لها، و ما يقال عنهما يقال عن جميع الأصـقاع الشامية. و لا سيما ما كان بقرب المياه و الأودية فإنه عامر بطبيعته لا يحتاج إلا لأمن و نظام حتى يفيض لبنا و عسلا.

و مغل حوران كسيل دافقيأتم من أرجاء جلق موجلا

و مما أقامه الرومان لحفظ زراعـة البلقاء و حوران و ما كان على سيف البادية من مرج الغوطة و أدانى جبل قلمون و تدمر فحلب فما وراءهـا، مخـافر مجهزة أحسن جهـاز لمنع البادية من التسـلل إلى المعمور، لأن داء الغارات على الزروع و العيث فى العامر من الأدواء القديمة. و اعتداء الرحالة من أهل الظعن، على المقيمين من أهل الدساكر و المزارع، النازلين فى الدور و المساكن، داء قديم

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۳۲

عقـام على مـا يظهر. و مـا اتخـذ الروم من الغسـانيين فى الجنوب، و التنوخيين فى الشـمال عمالاـ لهم إلا ليقوموا بإنفاذ هـذا الغرض، و يأمنوا بسلطانهم عيث البادية على أرض الشام الجميلة.

و ليست البادية التى تحد أكثر هذا القطر من الشـرق كما قال الدكتور پوست بادية حقيقية لأنه يقع فيها بعض المطر فى فصل الشتاء، و ينبت فيها عشب ترعاه المواشـى، و تسـكنها قبائل شتى من العرب، و تتـدرج هـذه البادية إلى جهـة شـمالى الشام، فى السـهل المتسع الممتـد من نواحى حلب إلى مـا بين النهرين، و كان هـذا السـهل مسـكونا فى قـديم الزمان، و لم تزل فيه آثار عظيمـة تـدل على كثرة الذين سكنوه و وفرة ثروتهم، إلا أنه أمسى الآن قليل السكان تجول فيه العرب و الأكراد.

و قد أكد موسيل أن البلاد الواقعة فى شـرقى الأردن كانت قبل مئة و عشـرين سنة عامرة بالسكان و هى اليوم تكاد تكون خالية لعيث البادية.

و أهل الوبر الذين يشتون منذ القديم بمواشيهم فيما وراء بادية الشام من الفلوات تشتد حاجتهم فى الربيع إلى أن يدخلوا المعمور، فإذا حصدت الزروع يضطرون إلى رعى أنعامهم و أغنامهم فى أرض الحصيد، و مراعى دير الزور و الجولان طلبا للماء، و التماسا لبيع حاصلاتهم و استبضاع ما يلزمهم. و إذ كانت أرض السقى أقلّ من أرض العذى بالشام، و معظم الأنهار لا يستفاد من سقياها اليوم كما كانت الحال عند الأقدمين، زاد اعتداء البادية على مهاجمة البلدان الخصبة.

قلة العناية بالأنهار:

نقول هذا و أهم أنهارنا الفرات و هو نهر يتاخمنا من الشرق، و لا نستفيد منه الاستفادة المطلوبة لأنه منحط عن مستوى أرضنا، و لم يكن كذلك فى الدهر السالف بما كان يعهد به من السدود و السكور التى كانت سبب غنى العراق، و بالطبع غنى الأقاليم المتاخمة له من أرض الشام. و لا يستفاد من الأنهار التى تشق قلب القطر الفائدة المطلوبة فى الرىّ. فالأردن مثلا يشق بعض أرجاء فلسطين و العاصى الذى يجرى من سفوح لبنان مارا بحمص فحماة فأنطاكية حتى السويدية لا ينتفع بهما على ما كان الحال قديما. فقد انتهى إلينا من عمل القدماء سد قدس بالقرب من قرية قطينة بجوار أرض حمص، و كان أعلى مما هو الآن بحيث يتأتى

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۳۳

أن يسقى العاصى بواسطته و ما اخترع له من النواعير، جميع الأرض العالية فى وادى نهر المقلوب كما كانت العرب تسمى العاصى. و لا تزال إلى الآن آثار السدود و القنى فى غور الفارعة بادية للعيان، تدل على أن القدماء كانوا ينتفعون من مياه نهر الأردن أكثر منا اليوم. و يقول صديقنا الأمير شكيب أرسلان:

إن الأراضى التى لها حظ من الشرب فى هذه الغيران (جمع غور) إنما تسقى من أودية جارية من الجبال مثل سيل الزرقاء، و السائل من جهة عجلون إلى الغرب، و مثل مياه بيسان المنحدرة من صوب مرج بنى عامر إلى الشرق، و مثل ماء الفارعة النازل من الغرب إلى الشرق، و مثل عين السلطان التى تسقى جنان أريحا، و مثل غور نمرين المنحدر من وادى شعيب أسفل الصلت إلى الغرب و ماء حسبان و غيرها من المياه، و هذه الجداول كلها لو اجتمعت ما ساوت معشار الأردن الذى أصبح عاطلا من كل عمل ا ه.

و حالة الإرواء فى أكثر الأنحاء البعيدة ما زالت على الفطرة القديمة، فالقريب من الماء يروى أرضه أو بستانه بالقربة أو المدار كأهل الزور و جزيرة ابن عمر فى أقصى الشام، فإن هذه الأنحاء فى وسط المياه كالفرات و الخابور و غيرهما من كبار الأنهار و قلما تستفيد منه، و قد خربت السدود القديمة و لم يعمل غيرها، ذلك لأن الأنهار الكبيرة و لا سيما الفرات قد تتحول عن مجراها فى معظم السنين لأنها خالية من الجوانب المتينة المحددة، و هى فى أرض رخوة خبار، فإذا فاضت طغت على الأرض اللينة.

و كان نهر بردى و نهر الأعوج يستفاد منهما أكثر من جميع الأنهار التى تعطش الأرض التى حفافيها، و هى من مجراه على قيد أشبار، أو يترك للبحر يصب فيه على هينته و هواه، كنهر عفرين و الأسود و قاديشا و الأولى و الأزرق و العوجا و إبراهيم و المقطع و القاسمية و غيرها. و كم فى هذه الديار من آثار قنوات عجيبة مثل قناة بسيمة فى سنير، و ربما كان ماء عين الفيجة يسيل منها إلى بلد بعيد كما هو المأثور، و مثل قناة منين التى جرها المأمون إلى معسكره فى أعلى قاسيون بدمشق. و كم من قناة طمت بتهاون الفلاح فهلك مع أرضه عطشا، لأن الحكومات قلما التفتت فى الأدوار الأخيرة إلى العناية بأمرها، و الأعمال

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۳۴

المشتركة قلما تجد لها نصيرا فى هذه الأرض، و لو كانت مياه الشفة فكيف بمياه الرى رى الأرض.

خراب الزراعة و المزارع:

و يمكن أن يقال إن القطر خرب بنزول الفاتحين المخربين و العاهات الطبيعية ثم من فساد النظام فى الدولتين الجركسية و التركية فى

القرون الوسطى إلى هذا العهد، و قد كان مسرح ظلم، و ميدان حروب و غارات، يهلك الفلاح فيه كما يهلك النمل تحت الأقدام، و قبل أن يهلك ابن المدن الذى له من اجتماعه بأخيه، و اعتصامه وراء حصنه و سوره بعض الوقايۀ، و كانت القرى التى على جوانب الطرق تخرب قبل غيرها، و على نسبۀ قرب القريۀ من المدينۀ أو من الطرق الموصلۀ أو طرق الغزاۀ و الفاتحين، كان الخراب إليها أسرع من الماء إلى الحدور. و كان من دلائل القوۀ فى تلك الأعصر أن تخرب القرى و تلقى النار فيها إذا غضب الملك أو الأمير أو المقدم أو صاحب الإقطاع على ذاك الإقليم أو تلك القريۀ. و كان قطع الأشجار من أبلغ أنواع النكايۀ فى الخصم و لذلك أمثلۀ كثيرۀ فى القديم و الحديث إلى زمن كتابۀ هذا الفصل. و ما أصيبت به الأشجار فى غوطۀ دمشق خلال الثورۀ الشاميۀ الأخيرۀ مثال مما تعمله الحكومات حتى باسم الحضارۀ. فكأن طبائع الحكومات واحد يوم تغضب من شعب أو تريد أن تكره التناء على النزول على إرادتها.

و أهم ما أثر فى حالۀ الفلاح نظام الحكومات، لأن أصول الإدارۀ لم تؤسس فى هذه المملكۀ على ما يجب، و كانت المظالم الأرضيۀ و المفاسد البشريۀ أشد تأثيرا فى أهل الفلح و الكرث و القائمين على تربيۀ الماشيۀ و الضرع، من الآفات السماويۀ، كالزلازل و الأوبئۀ و القحط من قلۀ أمطار أو فيضان أو انتشار جراد أو ديدان و جرذ و فيران.

هذه العوامل هى جماع الخراب الذى أصاب العامر فدمر القرى و الأقاليم، و منها ما لا تزال دمنه و مياهه شاهدۀ على ماضيه الزاهر، فقد ذكر الظاهرى من أهل المئۀ التاسعۀ للهجرۀ أنه كان على عهده نيف و ألف قريۀ و مدن صغار فى حوران، و أنه كان فى إقليم غوطۀ دمشق نيف و ثلاثمائۀ قريۀ و به مدن صغار و بلدان تشابه المدن، و أنه كان فى وادى التيم و ما إليه ثلاثمائۀ و ستون قريۀ، و إذا

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۳۵

أحصيت قرى هذه الأقاليم الثلاثۀ اليوم لا تجدها فى حوران تزيد على أربعمائۀ قريۀ و منها الخرب، و فى الغوطۀ على ثنتين و أربعين، و فى وادى التيم على ثلاثين إلى أربعين. و هكذا سائر الشام. فإن حلب كان فيها قبل العثمانيين ۳۲۰۰ قريۀ فأصبحت ۴۰۰ فى القرن الحادى عشر، و منها ما ظل خرابا إلى النصف الأخير من القرن الماضى لأن معظم عهد العثمانيين انقضى فى مظالم و مغارم، و كان من جندها و لا سيما الإنكشاريۀ فى آخر عهدهم أدوات تخريب لم يشهد الناس أفظع منها، لذلك خربت حتى الضواحى و الأرباض من المدن الحافلۀ أمثال حلب و دمشق و حماۀ و حمص و ما شاكلها. و كانت رجل الإنكشارى بل الجندى التركى على الإطلاق حيث دبت يدب الدمار و البوار. و لذلك لا نكاد نرى عمرانا إلا على طول الطرق العامۀ الكبرى و ما إليها من اليمين و الشمال، و نشاهد المدينتين العظيمتين حلب و دمشق مثلا ينقطع فى الحال أو على ساعات قليلۀ عمرانهما الذى كان وارف الظلال إلى القاصيۀ. و كان هذا بفعل الباديۀ و فعل الجيوش المدمرۀ.

عوامل الخراب:

و لو لا ذلك الظلم المتسلسل قرونا فى أعقاب الفلاحين المساكين، و أسواط النقمۀ التى انهالت على رقابهم الجيل بعد الجيل، لما تيسر اليوم لأحد أن يملك المزرعۀ و المزرعتين بل ربما العشر و العشرين قريۀ، و بعض الأسر الحديثۀ تملك الخمسين و الثمانين، و الإنسان قد تكفيه المئۀ دونم أو جريب إذا أحسن تعهدها، فكيف له أن يعمر ألوفا من الأفدنۀ، و يتسع وقته و ماله لحمايتها و ترقيتها؟

نقول حمايتها لأن كثيرا من القرى تنازل عنها ملاكها لأرباب النفوذ ليحموهم من ظلم الحكام و المرابين، و أخذوا ثمنها بضع عباءات و غلايين، أو قفۀ من البن أو رطلا من الدخان أو أقۀ من الحلوى المعروفۀ بالبقلاوۀ، و من الأراضى ما توسل أهلها إلى أرباب المكانۀ أن يسجلوها فى دائرۀ التمليك بأسمائهم لما شرعت الدولۀ العثمانيۀ ۱۸۸۲ م بتسجيل الأملاك على أصحابها، و ذلك فرارا من ظلم عمال تلك الحكومۀ و من وضع الرسم المعتاد، و منهم من تخلوا للأعيان عن أراض عانوا مع آبائهم زراعتها زمنا طويلا، تخلصا من تسجيل نفوسهم

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۳۶

لما حررت النفوس، و من أهل القرى من خرجوا عن ملك أراضيهم لأنه وجد فيها قتيل، و كانت العادة و لا تزال إلى اليوم أن يلزم أهل الأرض بدية من يقتل فيها أو تفرض غرامة ثقيلة عليهم، فمنهم من تركوا أرضهم مخافة أن يلزموا بمال لا قبل لهم بأدائه. و من القرى ما خرج عن ملك أهله كما وقع لأهل مرج ابن عامر فى القرن الماضى لما عجزوا عن دفع الأموال الأميرية فباعته الحكومة التركية بالثمن البخس صفقة واحدة لرجل واحد مقابل رشوة قبضها الوالى.

و من المرابين من اقتنوا قرى كثيرة فى الديار الشامية لأنهم كانوا لا يشفقون على الفلاح باشتطاطهم عليه بأخذ الربا الفاحش. و ما زلنا فى كل دور نرى الفلاح فى أكثر الأقاليم يقترض المئة بمئة و خمسين من الخريف إلى البيدر و أحيانا ترتفع الفائدة إلى أكثر من هذا القدر، فإذا أضيف إلى ذلك ظلم الأعشار و تعدد الضرائب على الفلاح حتى كاد يهلك بسببها، لا نستعظم إذا رأينا خرابا، بل نقول: لماذا نرى هذه الرشاشة من العمران قرب المدن و الثغور، و على شواطىء الأنهار و البحيرات.

و لقد كانت الأوقاف من جملة ما أخر الزراعة، ذلك لأن الأراضى الموقوفة تجمد على حالة واحدة فى أشجارها و غلاتها و مجاريها و سكورها و زرائبها، و كل جسم لا ينمو يصيبه الفناء. و على كثرة ما وقف المسلمون على أعمال البر و غيرها لا يمضى القرن و القرنان حتى يعود الوقف ملكا صرفا، و لو لا ذلك لكثر الخراب أكثر مما هو الآن فى القرى و الحدائق. و لو دام حكم إبراهيم باشا المصرى إلى اليوم لأصبحت أرضنا عامرة كمصر لأنه نشط الزراعة و أمر بنشر دود الحرير و دود القز و علم الأهالى كيفية قطف الزيتون بالأيدى حتى صار شجره يعطى ثمرا فى كل سنة فاستعادت بعمله أكثر القرى عمرانها القديم.

كتب قنصل بريطانيا فى دمشق سنة ۱۸۵۹ م بمناسبة زيادة الضرائب على الأهلين و توكيل الجنود بجبايتها بالعنف: إن الحكومة تأخذ مال الشعب ظلما و عنفا، و لا تحميهم من البدو الذين يزدادون جرأة و اعتداء، و عملها قائم

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۳۷

بابتزاز أموال الفلاحين التعساء لما فيه مصلحتها، على حين لا تأتى بدليل على إدراكها وجوب حماية الذين يجب عليهم أن يدفعوا الأموال اللازمة لتحسين حال الولاية، و سد حاجات الحكومة المركزية، و إنما تهمل الاحتياط للأمر.

و قال أيضا: «إن جو الشام صاف و هواءها جيد و أرضها خصبة حسنة الرى، ففى مكنتها أن تصبر على هذه الحالة أكثر من غيرها من الولايات الأقل خصبا، و لكن لا بد فى آخر الأمر من أن تفرغ هذه الموارد».

آفة الهجرة على الزراعة:

و مما أصيبت به الزراعة من الآفات آفة دونها الآفات كلها، بدأت تدب فى جسمها أواخر القرن الماضى بركوب الفلاحين غوارب الاغتراب عن الوطن فى التماس الرزق و طرق الغنى. و ذلك منذ دهش الناس لأرباح المهاجرة الأول من الشاميين إلى أميركا. أرباح لم يكن لابن هذه الأرض عهد بها و كان ثلاثة و عشرون قيراطا من أربعة و عشرين قيراطا منهم يعيش، و لا سيما فى الأرض القاحلة، عيش القلة الشديدة. فلم يلبث الناس فى الجبال أن حذوا حذو أولئك المهاجرين، فأخذ الناس ينزحون إلى أميركا الجنوبية و الشمالية و إلى اوستراليا و جنوبى إفريقية و غيرها من البلاد المفتتحة حديثا، حيث يسهل جنى المال، و تزيد أجرة العامل على نفقته كثيرا.

و هاجر ألوف أيضا إلى مصر و السودان عقبى الاحتلال الإنكليزى سنة (۱۸۸۲ م) فحرمت الشام فى أربعين سنة نحو سبعمائة ألف يد عاملة، كان ثلثهم يستوطن فى الأصقاع التى نزلها، تمسك بتلابيبه لكثرة علائقه و طيب العيش فيها، و الثلث الثانى يهلك، و الثلث الثالث يرجع. و لم تلبث الهجرة أن عمت جميع السكان، اقتصرت على أبناء الجبال أولا، ثم تناولت ابن السهول، و انتقل الغرام بها من ابن القرية إلى ابن المدينة. و من جملة ما زاد فى عدد المهاجرين سهولة السفر و تأليف شركات للتسفير تسلف المهاجر أجرة طريقه و نفقاته الأولى ريثما يجد عملا حيث ينزل.

و هـذه الهجرة من أعظم ما أخر حال الزراعـة فى هـذا القطر، فأصـيبت بضـربة مهمـة أهمها ارتفاع أجور العملـة فيها لأن من عاد منهم يحمل مالا و لو

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۳۸

قليلا اسـتنكف عن العمل فى الزراعة كما كان هو و أبوه، و منهم من بنوا القصور الغناء و الدور القوراء فى مزارعهم، و أخذوا ينعمون بطيـب العيش، و يبحثـون أوقـات فراغهـم فى أمـور مـا كـانت لهم و لاـ كـانوا لهـا، و يلهـون و يلعبـون على الطرق الـتى اقتبسوهـا فى مهـاجرهم. و قـد كـانت جبـال لبنـان و عامـل و العلويين و قلمون و الخليـل و السـامرة من أشـد الأصـقاع التى تـأذت بالهجرة فتأخرت زراعتها فوق تأخرها. و لقلـة اليـد العاملة رأينا بعضـهم فى البقاع يقرن امرأته إلى ثوره تعمل مع فدانه، و رأينا الحوارنة يسـتكثرون من الأزواج يتخذونهن أجيرات فى أعمال الحقل و علف الدواب و اسـتخراج الدرّ و عمل السـمن و اللبن. و لئن دخلت القطر أموال طائلة بسـبب الهجرة فثروة أمـة لاـ تعـد بكثرة نقـدها بـل بكثرة مـا يعمـل أبناؤها فى أساليب الرزق المختلفـة، و قلّ أن أنفق مال يـذكر على تحسين الزراعة و إقامة الشركات النافعة، و نحن لم نبرح ننشد مع حافظ إبراهيم:

أيشتكى الفقر غادينا و رائحنا و نحن نمشى على أرض من الذهب

خصب الأراضى و معالجتها و ما يزرع فيها:

يضـرب المثل بزكاء منابت الشام و اعتدال أهويتها، وجودة مناخها، و كثرة مياهها، على كثرة حزونها و جبالها، و إن أرضا تعطى حبتها فى بعض الجهات مئـة حبـة، كأرض الرحبة بالقرب من جبال الصـفا، لتعد من أخصب بقاع الأرض، و ذلك لأن أرضـها مستريحة منذ العصور المتطاولة. فإذا كان بنو إسرائيل قد جعلوا عادة لهم أن يريحوا أرضهم مرة كل سبع سنين، فإننا قد أرحناها منذ قرون، و لذلك لا تضن علينا بخيرات سطحها كلما حرثناها و زرعناها.

و مـا زالت زراعتنـا كمـا عرفها الأجـداد بل كما عرفها الإنسان منـذ آلاف من السـنين، ليس فيها شـىء من العلم إلا التجارب، و لا من التغيير إلاـ ما تضـطر إليه الأحوال و تهـدى إليه الفطرة، و لـذلك يعوزها كثير مما يجود فى غيرها من النباتات و الأشـجار. قال الرحالة فولنى فى كلامه على مناخ الشام: إن الأرز يجود زرعه على شواطىء بحيرة الحولة، و النيلة تنبت بلا عمل على ضـفاف نهر الأردن فى بيسان و هى لا تحتاج إلا إلى قليل من العنايـة حتى تسـتوفى الشـروط المطلوبـة. و بعد أن أفاض القول على مدن الشام قال: إن دمشـق تفاخر و حق

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۳۹

لهـا الفخر بـأن فيها كل الثمار التى تحصل فى ولايات فرنسا. ثم ذكر أن البن الـذى يزرع فى تهامـة اليمن تلائم زراعته أرض الشام، و مناخها يلائم طبائع الثمار كلها فينبت النخل كما ينبت الصنوبر و السرو.

و قال «هوار»: لئن كان القطن زرع فى أوربا فإن ضواحى هاتين المـدينتين (دمشق و حلب) كانت خاصة بزراعة شـجيرة القطن، و هذه الحقول البديعة توجب حيرة السياح، و القطن الصغير الطول ينبت فى ضواحى دمشق، و كانت عكا و اللاذقية و قبرس تعطى صنفا ثالثا من القطن، و كانت أرجاء نابلس إلى عهد قريب تصدر من القطن ما قيمته مئات الألوف من الدنانير.

و قـال «پوست»: تقسم فلسـطين باعتبار الفلاحـة إلى أربعـة أقسام: السواحل كساحل غزة و يافا و شارون و هى صالحـة لنمو مزروعات المنطقـة تحت الحارة، و وادى الأردن (العربة) و هى تناسب مزروعات المنطقة الحارة و الجبال و فيها أودية كثيرة مخصـبة كمرج ابن عامر «يزرعيل»، و الأودية المجاورة كالناصرة و نابلس و الخليل «حبرون» و هى تناسب مزروعات المنطقة المعتدلة، و السهول الداخلية و هى تناسب فى الأكثر الحنطة و الشعير و السمسم. قال: و لا شك بأن هذه البلاد كانت ذات أشجار برية و بستانية أكثر مما هى الآن. و كـان التراب على جوانب الجبـال أكثر مما هو اليوم، و كـذلك العيون فإنها كانت أكثر عـددا و ماء فضـلا عن أن مياه الشـتاء كانت

تجمع فی مساقی و صهاریج. و قال «ورن»:

إن فلسطین «شرقی الأردن و غربیه» کافیهٔ لسکنی خمسهٔ عشر ملیونا من الجنس البشری إذا اعتنی بها الاعتناء الواجب. قلنا: إذا کانت الشام علی هذه الصفهٔ من الخصب و السعهٔ فکیف لا تسع العشرین ملیونا من الناس و کل إقلیم من أقالیمها کالبلقاء أو الجولان مثلا یعد الصالح من تربته أکثر من مملکهٔ من الممالک الصغری فی أوربا، و لکن السر بالسکان لا بالمکان.

تقسیم السهول و الجبال:

قسم صاحب کتاب الزراعهٔ العملیهٔ الحدیثهٔ أقالیم الشام الزراعیهٔ إلی خمسهٔ أقالیم یترکب کل منها من عدهٔ مناطق تکاد تکون واحدهٔ فی درجهٔ الارتفاع عن سطح البحر و هی:

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۴۰

(۱) أقلیم الغور أی شواطیء الأردن و هو یمتد من بحیرهٔ الحولهٔ شمالا إلی بحیرهٔ لوط جنوبا، أی أراضی جنوب بحیرهٔ الحولهٔ و أراضی البطیحهٔ و الغویر و سمخ و القسم الشرقی من بحیرهٔ طبریهٔ و أرض جسر المجامع و بیسان و جنوب بیسان و غور الصلت و منطقهٔ أریحا و شواطیء بحیرهٔ لوط. و من جملهٔ نباتات هذا الأقلیم البردی و الأسل و القصب الفارسی و الأکاسیا الشوکی و السوسن و زنبق الماء علی شواطیء بحیرهٔ الحولهٔ و السدر الکثیر فی الأراضی المجاورهٔ لبحیرهٔ طبریهٔ کأرض الغویر و المجدل و البطیحهٔ و غیرها و الغار و الطرفاء و القصب و أنواع النخیل و سفط السیال و الرتم و البان و الصلهٔ و الغرقد و العوسج و العشر و غیرها علی شواطیء الأردن فی منطقهٔ بیسان و شرق الشریعهٔ و الصلت و أریحا.

(۲) إقلیم السواحل التی تمتد من شبه جزیرهٔ العقبهٔ إلی خلیج الإسکندرونه و یشتمل علی السهول الساحلیهٔ من غزهٔ و یافا و حیفا و عکا و صور و بیروت و طرابلس و اللاذقیهٔ و الإسکندرونهٔ و یدخل فیه مرج ابن عامر و أراضی جنین و شمال بحیرهٔ الحولهٔ و یجود فیه اللیمون و البرتقال و الموز و الرمان. و من جملهٔ نباتات هذا الإقلیم الطبیعیهٔ البلان و الصنوبر البحری و القندول و الوزال و الطرفاء و أنواع البرسیم و الشقائق و الدّفلی و الأقحوان و القصب الفارسی و أنواع مختلفهٔ من البلوط

(۳) أقلیم السهول و تدخل فیه سهول الکرک و البلقاء و حوران و سفوح حرمون و البقاع و الجولان و الغوطهٔ و المرج و السهول المرتفعهٔ فی فلسطین و حمص و حماهٔ و حلب و ما شاکلها من السهول المتقاربهٔ فی إقلیمها، و تجود فی هذا الأقلیم الأشجار المثمرهٔ و الخضر و التوت و اللوز فی الأرض البعلیهٔ و الحور و الصفصاف و الدلب فی شواطیء الأنهار.

(۴) إقلیم الجبال و یدخل فیه جبال الکرک و الصلت و عجلون و قلمون و جبل الشیخ و لبنان و لبنان الشرقی و النصیریهٔ و الأقرع، و یجود فیه الزیتون و الکرم و التین و اللوز و الصنوبر و السرو و الفستق البری و المیس و الحبوب و کثیر من الأشجار المثمرهٔ، و فیه من النباتات الطبیعیهٔ البطم و القیقب و الجنستا و الخرنوب و الزعرور و العلیق و الشذاب و الدر دار و الزیتون و السندیان و الدلب و الصنوبر و الدیشار و الآس و السرخس، و فی أقسام الجبال المرتفعهٔ بعض أنواع البلوط ثم الأرز و الدفران.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۴۱

(۵) إقلیم الصحراء و تتناول ما نسمیه بادیهٔ الشام أی الأصقاع الواقعهٔ شرق المعمور من دمشق تنبت فیه بعض النباتات و الأعشاب منها ما یزول فی الربیع و منها ما یبقی فی الصیف. و لیس فی هذا الإقلیم سکان إلا البدو الضاربون فی أرجائه.

من الذین أدخلوا الطرق الجدیدهٔ:

أدخل ثلاثهٔ أصناف من الناس فی الشام روحا جدیدا فی زراعتها، و منهم مهاجر و قافقاسیا و غیرهم ممن سکنوا قری کثیرهٔ فی عمل حلب و دمشق و عمّان، فإن هؤلاء أدخلوا أصول الزراعهٔ علی طریقتهم و هی أرقی من طریقهٔ من نزلوا علیهم فی حمص و البلقاء و

الجولان مثلا- ثم إن الألمان الذين أقاموا لهم مستعمرات فى حيفا و يافا منذ (۱۸۶۸ م) قد كانوا مثال الفلاح النشيط، و كان على فلاحنا المجاور لهم أن يتعلم منهم و يعتبر بما يأخذه الفلاح الجرمانى من وافر الغلات، و يتعلم منه تنظيم داره و إصطبله و حديقته و مزرعته و تعليم أولاده و غير ذلك مما يعود عليه بالنفع و الراحة. و أهم من أدخلوا التجدد فى الزراعة فى ربوع الشام الصهيونيون من مهاجرة ألمانيا و رومانيا و روسيا و بولونيا و غيرهم، فإنهم و الحق يقال قد أنشأوا بأموال روتشلد و بركم و فيرو و فيتيفيورى و غيرهم من أغنياء الإسرائيليين الذين ابتاعوا الأراضى فى فلسطين لأبناء نحلتهم، و أمدوهم بالمال ليتوفروا على استثمارها، مزارع حرية بأن تكون نموذجات الحقول، و قد قامت الجمعيات الصهيونية مثل الجمعيات الصهيونية اليهودية و جمعيات ايكا و فاعوليم و الأليانس و غيرها بأعمال مهمة لنشل أبناء دينهم من سقطتهم، و أنشأوا لهم قرى كساروتا و زمارين و الخضيرة و ملبس و الجاعونة و الشجرة و غيرها هى كالقرى الأوربية بإتقان أعمالها الزراعية. و ممن ساعد على إنجاح الزراعة بعض مهاجرى اللبنانين الشرقى و الغربى فإن منهم من وضع مما اقتصد من المال أمواله فى الزراعة و أدخل طريقة الأميركان فى أرضه.

درس الزراعة:

و كان من أثر مدرسة الزراعة العملية فى نيتر قرب يافا التى أسست منذ نحو خمسين سنة، و كان يتخرج فيها فى السنة على الأقل عشرون تلميذا يستطيع

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۴۲

تطبيق علمه الزراعى على العمل- أن نشرت أصول الزراعة الحديثة بين أبناء إسرائيل، و غدا فيهم الكفاة للقيام على الحرث و التسميد و البذر و الغرس و التعهد و التقليم و التطعيم، و أصبحت مستعمراتهم تخرج أصنافا جيدة من الخمور و اللوز و غيرها لا تخرجها القرى المجاورة لها.

و من مدارس الزراعة التى نفعت بعض أبناء سورية و فلسطين مدرسة اللاطرون بين يافا و القدس أنشأها الآباء البيض. و مدرسة تعنايل بين بيروت و دمشق أنشأها الآباء اليسوعيون. و قد أنشأت الحكومة السابقة مدرسة زراعية فى سلمية لكنها ضعيفة فى تلقين العمليات و النظريات، و قد ألغتها مؤخرا بحجة أن تلاميذها لم يعملوا فى الصناعة التى اختصوا بها، و آثروا التوظيف فى أعمال الحكومة، و ذلك على شرط أن تؤسس مدارس عملية أخرى و مشاتل فى كل قصبة فلم يتم شىء من ذلك.

و من الغريب أن الزراعة و هى تكاد تكون فى هذا القطر المحبوب مورد عيشه الأول، لم يدرسها إلى اليوم سوى أفراد قلائل، و لا أذكر سوى بضعة شبان ممن يملك آباؤهم مزارع واسعة تعلموا فن الزراعة على الأصول فى مدارس فرنسا و إنكلترا و تونس و مصر و الإستانة، و جاءوا فعنوا بتطبيق ما تعلموه، و كان الواجب أن يكون لكل بضع قرى مهندس زراعى، يعلمها من علمه و يمدها بتجاربه و يدير شؤونها كما يدير أهل البصر فى الغرب مزارعهم.

نقص كبير:

إلى اليوم لم تدخل على ما يجب أرضنا الأدوات الزراعية الحديثة التى تقلل عمل الأيدى و تزيد النماء كآلة الحرث و البذر و الدرس و التذرية دع غيرها، و ما أبقاه لنا بعض علماء العرب من الكتب الزراعية التى طبع بعضها بلغتنا فى أوربا دليل كبير على ترقى هذا الفن أيام لم يكن فى الأرض من يحسنه. سبق العرب الغرب فى كل شىء، و سبقهم هو اليوم و يا للاسف فى كل شىء، و الدهر دول يوم لك و يوم عليك.

سبق الأجداد فى كل شىء، و تأخر الأحفاد فى كل شىء، و الفلاحة التى هى أشرف الأعمال و ضيعة فى نظر كثيرين حتى إن بعضهم قال و قد رأى

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۴۳

السكة في دار: ما دخلت هذه السكة دار قوم إلا ذلوا، و لو قال: ما خلت هذه السكة من دار قوم إلا ذلوا لكان أقرب إلى الصواب. شعار الغرب اليوم «الأرض هي الوطن و من توفر على تحسينها يخدم وطنه» و إذا كانت الفلاحة عندنا ينظر إليها نظر احتقار فمن باب أولى أن ينظر إلى الفلاح كذلك و هو خادم الوطن الحقيقي. و إذا كان الفلاح كالسلطان في مزرعته عند الأمم الممدنة، فهو هنا عبد رقّ لصاحب الأرض و للحكومة و للمرابي.

و بينا نرى أرباب المزارع في الممالك الراقية، و مصر منها، يعنون براحة فلاحيهم و تعليم أبنائهم و بناتهم، و توفير قسطهم من الصحة و الهناء، و يجعل لهم حتى في قراهم مدارس و معابد و دور تمثيل و صور متحركة للتسلية، نجد أكثر المزارعين هنا يجدّون في أن يبقوا فلاحيهم جهلاء أغبياء حتى يخضعوا لهم بزعمهم أبد الدهر خضوعا أعمى، و قلّ أن سمعت بأن مزارعا أنشأ لفلاحيه عندنا مدرسة بسيطة أو مسجدا و أتاهم بخطيب يعلمهم أو بطبيب يطبهم، و لذلك تجد القرى التي يملكها أفراد صفرا من هذه الوجهة، لأن صاحب القرية لا يهتم إلا لتكثير الدخل السنوي و إرهاق فلاحه، و ابن البادية و القائمون على الزرع و الضرع أقل الأمة و يا للأسف حظا من التفكر بسعادتهم، كأنهم ليسوا مادة الثروة، إذا اختل نظامهم تطرق الخلل إلى سائر مذاهب المعاش، و مقومات الحضارة و مظاهر الرخاء و الهناء.

و لا يزال يدور على الألسن في وصف الفلاحين أنهم «غبر الوجوه إذا لم يظلموا ظلموا» و لكن تثقيف أودهم بالتربية قلما يخطر ببال، و قطع الجرثومة من أساسها لا نراه دواء عاجلا!

التحسين الأخير:

على أن من الواجب أن يقال أيضا: إنه استفادت كثير من قرى الغوطة و المرجين و وادي العجم و البقاع و بعلبك و الحولة و جبال عامل و عكار و الحصن و نابلس و عكا و الخليل و غزة و سهول حمص و حماة و حلب و أنطاكية و إسكندرونة و السوبدية عمرانا منذ ثمانين سنة بفضل بعض طبقة الأعيان، لأنهم استطاعوا أن يحموها من عيث البادية و عبث الظلمة من العمال، و أن يمدوها بالمال وقت

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۴۴

العسرة. فغرّموا على تحسينها أموالا و صرفوا قواهم إلى الانتفاع بها ما أمكن. و كان العربان يداهمون حتى القرى القريبة من الحواضر، و يطلبون منها «الخوة أو الخاوة» و هي مبلغ من المال يتقاضونه من الفلاحين البائسين يؤدونه لصعاليك البدو صاغرين، و إذا استنكفوا عن أداء ما يطلب منهم، محتجين بضيق ذات اليد أو رداءة الموسم، نهبوا دورهم و حرقوا عروضهم و غلاتهم و اعتدوا على أرواحهم. و قد كانت معظم الأرياف مأوى الأشقياء و عصابات قطاع الطرق، فما كان الفلاح يجسر أن ينتقل من قرية إلى أخرى، أو يحمل محاصيله إلى المدن، و لا أن يعمل في حقله البعيد قليلا عن القرية أو المزرعة.

فلما طبق قانون الولايات سنة (۱۲۸۱ ه) ثم أنشئت المحاكم النظامية كان من أثرها القضاء على عصابات من أرباب الدعارة، و قلّت الشقاوة، فانصرف الفلاحون كلهم إلى العمل، لأن الأسعار بدت بالارتفاع، فبعد أن كان الحوراني ينقل غلاته على الجمال إلى بيروت أو عكا فلا يتحصل منها غير أجرة النقل، أصبح الفلاح يحمل غلاته إلى الموانئ البحرية و لا سيما غزة و يافا و حيفا و بيروت و طرابلس و اللاذقية و الإسكندرونة فتأتيه بأرباح طائلة، لأن الحبوب كالثمار، أصبحت تسافر في البحار، و يدفع في ثمنها النضار.

و انتبه الفلاح لحاله بكثرة اختلاطه بابن المدن فعرف بؤسه، فلم يكن على ما كان منذ سبعين سنة مملوكا لجهله الطبيعي. و لظالميه من المرابين و غيرهم من أدوات التخريب. و كان من تأسيس المصارف الزراعية، و إن كانت قليلة رؤوس الأموال، و يجب أن يكون فيها التسهيل كثيرا، أن أنزلت معدل الربا إلى سبعة في المئة، فخففت من غلواء المرابين و الصيارفة. و لو زيد في ترقية المصارف

الزراعیة و أنشئت مصارف عقاریة تقرض أرباب العقارات أیضا بفائدة معتدلة لزادت المنافع المطلوبة للزراعة.

و صادف أن قلت آفات الزراعة فی العهد الأخیر، فأصبحت الأوبئة فی البشر و البقر لا تفعل فعلها الشدید کما کانت فی الأدوار السالفة، و ردمت بعض المستنقعات الصغیرة التی کانت بجوار بعض القری، و عنی دیوان الصحة بفتح مستوصفات فی القصبات و مستشفیات فی المدن، فتحسنت الصحة بعض الشیء، و أصبح الفلاح یدرک فائدة التطبب، و إن أعوزه الطبیب أحیانا، و فتحت وزارة

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۴۵

المعارف مدارس ابتدائیة فی بعض القری الکبیرة فدخلت المدنیة قلیلا و زادت النفوس زیادة محسوسة، و ربما زادت عما کانت علیه منذ سبعین سنة سبعة أضعاف. و هذه الزیادة أفادت الزراعة أیضا. و لم تصب بعض الأصقاع الزراعیة بالضعف إلا مدة الحرب الأخیرة، و قد کلب عمال الترک فاستلبوا من الفلاح ابنه و بقره و غنمه و خیله و حمیره و بذاره و حطبه و قطنه و صوفه و قشره، و لو طالت الحرب سنة أخری لحصد الوباء البقری الأبقار من أکثر أنحاء الشام، لأن ما بقی سالما منها کانت الحکومة تأخذه للنقل أو للذبح، فتعطل بعضهم عن الحرث، و لکن من نجوا من هذه الغوائل و لو قلیلا استفادوا من ارتفاع الأسعار أرباحا طائلة، فوفوا دیونهم و خرجوا و قد أغنتهم الحرب و لم تفقرهم.

و ما زلت أعتقد أن أصحاب الحوانیت مقصرون جدا فی تعلیم الفلاح، و تحسین حالته المعاشیة و المنزلیة و الصحیة، حتی کاد یصبح بطول الزمن شقیق البهائم لا یفرق عنها إلا أنه ناطق، و هذا النقص یحمل علیهم و علی الحکومة.

فقد تجتاز إلی الیوم القریة و القریتین فی الأرجاء البعیدة و لا تجد رجلین أو ثلاثة من أهلها یقرأون و یکتبون علی ما یجب، فکیف لهم أن یعرفوا ما لهم و ما علیهم من الحقوق و الواجبات. و لا یستقیم للزراعة حال فیما أری إلا إذا علّمت کل أسرة یأتیها رزقها من الزراعة أحد أبنائها هذا الفن الجلیل، و لا تمضی بضع سنین حتی تدخل الشام فی طور الأقطار الزراعیة الراقیة، و عندها تتضاعف الثروة مرتین أو ثلاثا، و ینقطع دابر الهجرة و یعمر الغامر کما یزید عمران العامر.

و یعتقد الناس أن العز و الغنی معقود بالأرض، و أن الشرف یستمده المرء من عمله الحر الحلال.

عنایة الأقدمین بالزراعة:

إن ما انتهی إلینا من الکلام القلیل علی الزراعة الشامیة لا یشفی غلة الباحثین الیوم، لأنه مجمل یحتاج إلی تفصیل کثیر. و إذا عرضنا له هنا فللاستئناس به فی تاریخ الزراعة فی الجملة، فقد علمنا أن الإسرائیلیین کانوا یریحون الأرض سبع سنین ثم یزرعونها فتأتی غلاتهم مخصبة نامیة. و علمنا أن النبطیین و هم (۴- ۱۰)

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۴۶

العرب الرحل فی أرجاء البتراء فی الجنوب کان من المحظور علیهم أن یزرعوا الحنطة و یغرسوا الأشجار المثمرة و یبنوا البیوت إذ کانوا یعتبرون أن الاحتفاظ بهذه الخیرات یحتاج إلی أن یفادی المرء بحریته. و عرفنا أن الفینیقیین کانوا لا یعنون بالزراعة عنایتهم بالتجارة، فکانوا یجلبون من الداخل و من السواحل القریبة منهم ما یلزمهم فی غذائهم. حتی إذا جاء العرب و أبدوا ما أبدوا من حب التحضر کان قانونهم من أحیا أرضا مواتا فهی له و اطرد ذلک منذ الفتح.

و اغتبط العرب بما وجدوه من الخصب فی هذه الربوع بعد قحولة الحجاز و بوادیه المحرقة فقال زیاد بن حنظلة فی فتح عمر مدینة إیلیا من قصیدة:

و ألقت إلیه الشام أفلاذ بطنها و عیشا خصیبا ما تعد مآکله

حتی إذا تربعت أمیة فی دست الخلافة و أخذ آلهم و رجالهم یقتنون المزارع، و یبالغون فی اتخاذ الغروس و الزروع المثمرة المغلة، جعلوا القری مستغلات لهم و نزلوها و عنوا بعمرانها، و تنافسوا فی ذلک. فقد ذکر المنبجی أن هشام بن عبد الملک اتخذ المستغلات

الكبيرة في أكثر المدن التي في سلطانه، و الخانات و الحوانيت و الحجر و الضياع و المزارع، و هو أول من اتخذ الضياع لنفسه من العرب، و اشتق أنهارا كثيرة غزيرة، و هو الذي استخرج النهر الذي فوق الرقة، و غرس غرسا كثيرا بالجزيرة و الشامات، فبلغت غلته أكثر من خراج مملكته.

و لطالما عنى الخلفاء بأن لا تبقى أرض شاغرة لا تستغل، فقد أنزل معاوية قوما من الفرس في طرابلس، و كان الرشيد لما انتشر ذاك الطاعون الجارف في فلسطين على عهده و كان ربما أتى على جميع أهل البيت فتخرب أرضوهم و تعطل، قد و كل بهذه الأرضين من عمرها فكان يتألف الأكرة و المزارعين إليها فصارت ضياعا للخلافة.

و ما زالت العناية بتعهد الأرض متوفرة حتى اغتى العرب الذين استغلوا هذه الديار بذكائهم و بعد نظرهم. و العرب كما- قال أحد علماء الإفرنج- عمال زراعة و رجال براعة، برعوا في سقي الجنائن و اخترعوا النواعير العجيبة بل و وطنوا النباتات و الأشجار الإفريقية و الآسياوية في أوربا كالنخل و البرتقال و التوت و القطن و قصب السكر و الذرة و الأرز و الحنطة السوداء و الزعفران و الهندباء

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۴۷

و الخرشوف و السبانخ و الباذنجان و الطرخون و البصل و الياسمين الخ و ينسب إليهم اختراع طواحين الهواء و نواعير الماء. و قال ميشو: ما من دار في أوربا إلا و تعرف اليوم البصل Echalote الذي جاء اسمه و أصله من عسقلان. و معلوم أن الأندلس ابنة الشام فتحها الشاميون و نقلوا إليها مدنيتهم. و هذه الصنوف من الزراعة التي انتشرت في الأندلس ثم في سائر أوربا تكاد تكون خاصة بأرض الشام في تلك القرون.

لا جرم أن الحضارة التي أوجدها العرب كان من أول دعائمها الزراعة فاحتاجت الدولة و الأمة إلى الاستكثار من الغروس و استجادة الزروع من وراء الغاية. قيل لإسحاق بن يحيى الختلي من ولاة دمشق (۲۳۵) لم سكنت دمشق و فلحت أرضها، و أكثرت فيها من الغروس من أصناف الفاكهة، و أجريت المياه إلى الضياع و غيرها؟ فقال: لا يطيق نزولها إلا الملوك قيل له: و كيف ذلك؟

قال: ما ظنكم ببلدة يأكل فيها الأطفال ما يأكله في غيرها الكبار!. و لطالما دهش العرب بغوطة دمشق لأنها كانت أول ما يقع عليه نظرهم من عمران الشام فيعجبون للأشجار و الزروع المنوعة التي لا يعرف أكثرها في شبه جزيرة العرب و يدهشون للخصب و المياه الدافقة من كل جهة.

أصناف الزروع و الأشجار:

ذكر المهلبي أنه تجلب من كور حلب و ضياعها ما يجمع جميع الغلات النفيسة فإن بلدة معرة مصرين و جبل السماق بلد التين و الزيتون و الزبيب و الفستق و السماق و الحبة الخضراء. و قال ابن شداد: و في بعض ضياع حلب ما يجمع عشرين صنفا من الغلات. و قال ياقوت: و يزرع في أراضيها القطن و السمسم و البطيخ و الخيار و الدخن و الكروم و الذرة و المشمش و التين و التفاح عذيا لا يسقى إلا بماء المطر، و يجيء مع ذلك رخصا غضا رويا، يفوق ما يسقى بالمياه و السيح و قال: إن أكثر مستغل ضياع الغور السكر و منها يحمل إلى الآفاق، و في عسقلان نخل كثير و صنوف من التمور و الرمان يحمل إلى كل بلد بحسبه، و إنها معدن الجميز كثيرة المحارس و الفواكه. و اشتهرت نواز في جبل السماق بتفاحها الكبير المليح. و تل أعرن في حلب بعنبها الأحمر المدور. و قال ابن جبير: في بلاد المعرة و هي سواد كلها بشجر الزيتون و التين و الفستق و أنواع الفواكه و يتصل

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۴۸

التفاف بساتينها و انتظام قراها مسيرة يومين. و قال ابن حوقل: و ما حول معرة نسرين من القرى أعذاء ليس بجميع نواحيها ماء جار و لا عين، و كذلك أكثر ما بجميع جند قنسرين أعذاء و مياههم من السماء. و قالوا: اشتهرت الفرزل في البقاع بزبيبها الجوزاني، و كان يعمل به الملبن المسمى بجلد الفرس و هو من خصائصها، و أن بعلبك معدن الأعناب و الحولة معدن الأقطان و الأزهار، و اشتهرت

بیسان بالنخیل الکثیر کما اشتهرت بیروت و آبل بقصب السکر، یطبخ بها السکر الفائق، و عراق الأمیر بسفرجلها، و الناعمة بخرنوبها الفائق.

و قال المقدسی: إن عسقلان معدن الجمیز و أریحا معدن النیل و النخیل کثیرة الموز و الأرطاب و الریحان. و معان معدن الحبوب و الأنعام، و یبنی معدن التین الفائق الدمشقی. و أن أشجار جبال فلسطین زیتون و تین و جمیز و سائر الفواکه أقل من ذلک. و قال: خیر العسل ما رعی السعتر بإیلیا و جبل عاملة و أجود المری ما عمل بأریحا، و أن عنب القدس خطیر و لیس لمعنقتها نظیر.

و ذکر ابن حوقل أن أهل زغر یلقحون کرومهم و کروم فلسطین کما یلقح النخل بالطلع الذکر و کما یلقح أهل المغرب تینهم بأذکارهم. و قالوا: إن لبنان کثیر الأشجار و الثمار المباحة یتعبد فیه أقوام قد بنوا لأنفسهم بیوتا من القش یأکلون من تلک المباحات، و یرتفقون بما یحملون منها إلی المدن من القصب الفارسی و المرسین و غیر ذلک.

و قال شیخ الربوة: و لجبل لبنان و لا سیما بقضیبه و أذیاله نحو من تسعین عقارا و نباتا نافعا مباحا بلا ثمن و له قیمة جیدة و ثمن یکتفی به الجابی الجامع طول سنته له و لأهله، و من ذلک الکثیراء و الریباس و البرباریس و القاوینا و هو عود الصلیب و القیسه و البقس و القبقب الذی یعملون منه المرامل و الملاعق و الآلات المموهة بالذهب و الفضة و یحمل إلی سائر البلاد و الأقالیم، و لیس عملا ألطف منه و لا أحسن، و من النباتات أیضا شجر المحمودة و الاشتوان و الزراوند و الحماما التی لا توجد إلا فی إقلیم دمشق و هو معلق فی شقیف عال ما یقدرون علی جنیه إلا أن یدلوا جانبه بحبال من رأس جبل عال، کما یدلی الدلو فی البئر، و هی لأجل الترياق الفاروق و الراوندان و اللوز المر و الحلو و الأبهل و القراصیا و الزیزفون، و أما الفواکه فکثیرة جدا بلبنان ا ه.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۴۹

و ذکر الثعالبی أن التفاح اللبنانی موصوف بحسن اللون و طیب الرائحة و لذاذة الطعم یحمل منه فی القرابات إلی الآفاق، و کان یحمل إلی الخلفاء فی بغداد منه من خراج أجناد الشام ثلاثون ألف تفاحة. و قال المقدسی فی الرملة: إنه لیس أطیب من حواری الرملة و لا ألذ من فواکهها، أطعمة نظیفة و أدمات کثیرة و أنها جمعت التین و النخل و أنبتت الزروع علی البعل و حوت الخیرات و الفضل.

و قال: إن ماء فلسطین من الأمطار و الطل و أشجارها أعذاء و زروعها کذلک لا تسقی إلا نابلس فإن فیها میاها جاریة. و قال یاقوت: إن یاسوف من قری نابلس توصف بکثرة الرمان.

و قال أبو الفدا: إن جبال فلسطین و سهلها زیتون و تین و خرنوب و سائر الفواکه أقل من ذلک. و ذکر المقدسی أن علی نحو نصف مرحلة من کل جانب من حبرون قری و کروم و أعناب و تفاح یسمی جیل نضرة لا یری مثله و لا أحسن من فواکهه عامتها تحمل إلی مصر و تنشر. و قال ابن حوقل فی زغر:

إن بها بسرا یقال له الانقلاء لم یر بالعراق و لا بمکان أغرب و لا أحسن منظرا منه لونه کالزعفران و لم یغادر منه شیئا و یکون فی أربع منه رطل، و بها النیل الکثیر المقصر عن صباغ نیل کابل، و فیه لهم تجارة کبیرة واسعة و مقصد کبیر.

و قال الظاهری: إن غزة کثیرة الفواکه. و قال ابن بطلان فی أنطاکیة: إن أرضها تزرع الحنطة و الشعیر تحت شجر الزیتون. و قال یاقوت: و بدمشق فواکه جیدة فائقة طیبة تحمل إلی جمیع ما حولها من البلاد من مصر إلی حرّان و ما یقارب ذلک فتعم الکل. و لقد ذکروا فی باب خصب أریحا أن الجفنة التی عمرها ۴۲ سنة تکون استدارتها علی سطح الأرض مترین و ثلاثین سنتیمترا و تحمل فی السنة ۱۵۰۰ کیلو من العنب و أنه یضرب المثل بورودها و أزاهیرها و یخرج منها الزقوم و السدر و هو أشبه بالزیتون الکبیر یستخرجون منه زیتا للجروح.

و کذلک النبق و هو بمقام الصبار و الزیزفون فی بلاد أخری یستعمل حیطانا للحوائط أی للبساتین.

و ذکر الثعالبی أن زیت الشام یضرب به المثل فی الجودة و النظافة و إنما قیل له الزیت الرکابی لأنه کان یحمل علی الإبل من الشام و هی أکثر بلاد اللّه زیتونا

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۵۰

و فيه ما فيه من البركة و المنفعة. و قال شيخ الربوة فى نابلس: و قد خصها اللّه تبارك و تعالى بالشجرة المباركة و هى الزيتون و يحمل زيتها إلى الديار المصرية و الشامية و إلى الحجاز و البرارى مع العربان و يحمل إلى جامع بنى أمية منه فى كل سنة ألف قنطار بالدمشقى، و يعمل منه الصابون الرقى يحمل إلى سائر البلاد التى ذكرناها و إلى جزائر البحر الرومى، و بها البطيخ الأصفر الزائد الحلاوة على جميع بطيخ الأرض. و الظاهر أن هذه الشجرة المباركة شجرة الزيتون آخذة بالاضمحلال قياسا مع حالها فى القديم، فقد قلّ عدده فى فلسطين بعد الحرب العامة و استعيض عن بعضه بما بذلته الحكومة هنا من الجهد لغرس الزيتون و الكرمة، أما فى أرباض دمشق فهو آخذ بالقلة منذ اشتهرت الفواكه و هى هينة العمل سريعة الغلة، و كان فى حمص على ما تبين من الحفريات التى أجريت زيتون كثير بدليل ما وجد من معاصره التى لم يبق لها زيتون تعصر منه و لا تجد الزيتون اليوم فى أرجاء حمص إلا فى بقعة أو بقعتين. و اشتهر فى القديم زيتون الطفيلة و الشوبك اشتهارهما بمشمشهما و كمثراهما و رمانهما. سألنا أحد شيوخ الصلت عن السبب فى إحجام القوم هناك عن غرس شجر الزيتون مع أنه يجود كل الجودة فقال: لا تذكرنا بغباوتنا فقد حملنا سعيد باشا شمدين أحد متصرفى البلقاء على أن نغرس فى هذه الأودية التى تراها مئة ألف زيتونة فوقع فى أنفسنا أن فى الأمر دسيسة من الحكومة تريد بها وضع الضرائب الفاحشة على أملاكنا و تسجيل أراضينا على صورة لا نعود معها ملاكها الحقيقيين فصدعنا بالأمر بالظاهر، و غرسنا ألوفا من شجر الزيتون، و لكن أتدرى كيف تخلصنا منه بعد؟ كان أحدنا يجيء الى الغرسة فيحركها حتى لا يطلع جذعها و هكذا لم يبق من كل ما غرسه الصلتيون إلا ما تشاهده اليوم فى جوار القصبة و قليل ما هو. قلنا: و عجيب تبدل تصورات الناس فرجال الحكومة بالأمس كانوا يحملون الناس على زرع الأشجار. و يزينون لهم اقتناء الأراضى للزراعة، و اليوم يطلب الأهلون فى هذا العمل و فى غيره الأرض الموات ليحيوها و لا يعطون طلبتهم! هكذا رأينا أهل الشراة و الطفيلة و معان، على حين يقضى قانون الأراضى بأن كل من يحيى أرضا مواتا تبعد عن القرى و الدساكر مقدار ما يسمع الصوت فيها من أقصى العامر فهى له. و لقد رأينا كثيرا من

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۵۱

أهل القرى استأصلت أشجار التين و الكرمة و غيرها لأن العشارين كانوا يتقاضون منهم عشرها فاحشا أثمرت أم لم تثمر، فعدمت بعض القرى شجرها المثمر بهذا الظلم!.

و ما قيل فى كثرة الزيتون يقال فى كثرة الأعناب و اشتهرت بلدان كثيرة بذلك، و قد أكثر شعراء العرب من ذكر خمر بيت رأس و لبنان و غزة و جدر و صرخد و أذرعات و الأندرين و بنات مشيع و بيسان ولدّ و مآب و الخمر المقديّة و خمر الأحصّ و قاصرين (فى أرجاء حمص و حلب) و كان يقال لجبل بيت المقدس جبل الخمر لكثرة كرومه. و اشتهرت حلبون فى جبل سنير بخمرها و كثرة كرومها. و يظهر أن الزعفران كان كثيرا ما يجود فى الشام لأنه كان يدخل فى الأطعمة و الأشربة كثيرا، و مزارع الزعفران التى كان يطلّ عليها من دير مرّان فى السفح الغربى من قاسيون جبل دمشق مشهورة، و الغالب أنها كانت فى أرض النيرب، و كان الزعفران يجود فى جادية فى قرى البلقاء و الجادى هو الزعفران. و لم تكن عنايتهم بالنخيل أقل من عنايتهم بالزيتون و الكرم مثلا و لا سيما فى جنوب الشام و شرقه.

و لا أثر اليوم لبعض الثمار مثل القراصيا و الكستانة و البندق و البيسيم (المشمولة) و كانت كثيرة مبذولة هى و الكراز حتى القرن الحادى عشر و كان القطن يجود فى ضواحى دمشق و حماة و حلب. ذكر القلقشندى زروع الشام و فواكهه و رياحينه فقال: إن غالب زروعه على المطر قال فى مسالك الأبصار: و منها ما هو على سقى الأنهار و هو قليل و فيه من الحبوب من كل ما يوجد فى مصر من البرّ. الشعير. الذرّة. الأرز. الباقلاء. البسلّة.

الجلبان. اللوبياء. الحلبة. السمسم. القرطم. و لا يوجد فيه الكتان و البرسيم.

و به من أنواع البطيخ و القثاء ما يستطاب و يستحسن. و كذلك غيرها من المزروعات كالقلقاس. الملوخيا. الباذنجان. اللفت. الجزر.

الهليون.

القنّبيط. الرّجلة. البقلة اليمانية، و غير ذلك من أنواع الخضروات المأكولة، و قصب السكر فى أغواره إلا أنه لم يبلغ فى الكثرة حد مصر.

و أما فواكهه ففيه من كل ما يوجد فى مصر كالتين. العنب. الرمان.

القراصيا. البرقوق. المشمش. الخوخ- و هو المسمى بالدراقن- و التوت

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۵۲

و الفرصاد، و يكثر بها التفاح و الكمثرى و السفرجل مع كونها أكثر أنواعا و أبهج منظرا، و يزيد عليه فواكه أخر لا توجد بمصر، و ربما وجد بعضها فى مصر على الندور الذى لا يعتدّ به كالجوز. البندق. الإجّاص. العنّاب.

الزعرور، و الزيتون فيه الغاية فى الكثرة، و منه يعتصر الزيت و ينقل إلى أكثر البلدان و غير ذلك. و بأغوارها أنواع المحمضات كالأترج. اللّيمون.

الكباد. النارنج. و لكنه لا يبلغ فى ذلك حد مصر. و كذلك الموز و لا يوجد البلح و الرّطب فيه أصلا. قال فى مسالك الأبصار: و فيه فواكه تأتى فى الخريف و تبقى فى الربيع كالسفرجل و التفاح و العنب.

و أما رياحينه ففيه كل ما فى مصر من الآس و الورد و النرجس و البنفسج و الياسمين و النسرين، و يزيد على مصر فى ذلك خصوصا الورد حتى إنه يستقطر منه ماء الورد و ينقل منه إلى سائر البلدان. قال فى مسالك الأبصار: و قد نسى به ما كان يذكر من ماء ورد جور و نصيبين.

و بعد فقد دخلت الشام فى العهد الحديث عدة ضروب من الزروع و الغراس لم تكن له فيه من قبل مثل الشوح. الأوكالبتس. الأكاسيا. المشمش الهندى.

البندورة (الطماطم أو القوطة) و البطاطا فكان منهما فائدة جلى و أصبحت البندورة و البطاطا من أهم أنواع التغذية، و سرعان ما انتشر الغرام بهما و عمت القاصية و الدانية زراعتهما.

الأشجار غير المثمرة:

كانت الشام مشهورة بسروها و صنوبرها و أرزها، و يقول الشجارون: إنه كان فى غوطة دمشق ألوف من أشجار السرو انقرضت، و أدرك الغزى فى حلب من شجر السرو الهرمى و الصيوانى أشجارا قليلة ثم فقد عن آخره، و كان يوجد منها بكثرة، و أحسن الجبال فى الشام التى احتفظت بغاباتها بعض الشىء جبل لبنان، فإن الصنوبر و الأرز فيه كثير. و قد أكثر القدماء و المحدثون من الكلام على تاريخ الأرز لورود ذكره فى الكتاب المقدس مرات، و لأن من خشبه بنى قصر داود و هيكل سليمان و الهيكل الثانى الذى جدد فى أيام زربابل و سقف الهيكل المجدد فى عهد هيرودوس و قبة القبر المقدس و سقف الكنيسة

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۵۳

فى بيت لحم، و قالوا: إن الأشوريين و البابليين و الفرس و المصريين استعملوه فى قصورهم و بناء هياكلهم و استعمله الإسكندر المقدونى فى السد الذى أقامه بين الجزيرة و الشاطئ من مدينة صور و كذلك السلاقسة أدخلوه فى بناء دورهم.

و كانت أخشابه تحمل إلى طرابلس و صيدا و صور و بيروت و تعمل منها السفن و فيها عمل معاوية أساطيله لغزو الروم. و ما برح كثير من المتدينين بالنصرانية يتبركون بشجر الأرز و يحملون من غصونه قطعا ينقلونها من مملكة إلى أخرى.

و هو عطر الرائحة إذا وضع فى النار و يحسن فى المشم إذا مسسته بيدك، و لونه أصفر فاقع مشرب بخطوط حمراء لا تعبث به الأرضة و لا يفعل فيه السوس.

و الغالب أن الحكومات السالفة فى لبنان كانت تحتكر أربعة أشكال من الشجر تستثمرها لخزينتها و هى السرو و العرعر و الأرز و الصنوبر و تسمح باحتكار غيره و بدأ النقص فى هذه الأشجار منذ خمسة قرون و قد احتاج اللبنانيون إلى الاحتطاب للدفء و العمارة، و كانوا يسمون رزق الرجل أشجاره، و إذا غضب الحاكم على أحدهم يقطع شجره فيقولون فى أمثالهم الدارجة (اللّه يقطع رزقه) أى شجره كما يقولون (اللّه يخرب زوقه) أى بيته، و ربما أسرع اللبنانيون فى احتطاب شجر الأرز و غيره لئلا تصدعهم الدولة العثمانية كما أن كثيرا من القرى فى القاصية كانت أيام الأعشار تقطع التين و الكرم و غيره من مثمر الشجر لتخلص من ظلم العشارين الذين يتقاضون العشر من الشجر أثمر أم لم يثمر على ما تقدم.

و لم يبرح شجر الأرز مشاهدا فى عدة أماكن من لبنان على كثرة ما انتابه من البوائق فبالقرب من معاصر الفخار على مقربة من بيت الدين غابة منه فيها نحو ۲۵۰ شجرة يسمونها الأبهل، و أخرى فوق قرية الباروك غير ملتفة و ضعيفة النمو، لكثرة الأمطار و الثلوج و العواصف فى تلك الأرجاء، و منها ما غرس حديثا، و ثالثة فوق قرية عين زحلتا، و كان أحرق أكثرها لاستخراج القطران منه، و رابعة بين أفقا و العاقورة فى جرد جبيل من جبل كسروان، و خامسة بين قرية تنورين و بشرّى صغيرة الشجر و عدد شجيراتها نحو عشرة آلاف، و سادسة بالقرب من بشرى على علو ۱۹۲۵ مترا عن سطح البحر و هى مقصد السياح و فيها أضخم أشجار الأرز و يبلغ عددها ۳۹۷ و قيل ۶۸۰ شجرة منها ۱۲ كبرى

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۵۴

و أكبرها شجرتان دائرة جذع كل منهما نحو خمسة عشر مترا و ارتفاع طولهما خمسة و عشرون مترا و قدروا عمرهما بثلاثة آلاف سنة. و فى تسريح الأبصار أنه لا أثر اليوم فى الشام لشجر الأرز إلا فى أعالى سير بالضنية فى وادى النجاص ففيه كثير من شجر الأرز على ارتفاع ۱۹۰۰ متر عن سطح البحر. و بين سير و نبع السكر و فى الغابة الواقعة خلف وادى جهنم و يسمى عند أهله تنوبSapin على أن فى جبال قره مورط إحدى شعاب جبل اللكام من عمل أنطاكية غابات من الأرز و غيره من فصيلته. و لو توفرت العناية بأمثال هذه الأشجار و قضت الحكومة على كل فلاح أن يغرس و يتعهد عشر شجرات منها، إذا لما مضى خمسون سنة حتى تصبح الشام كسويسرا بأشجارها الغضة الملتفة، تحسن المناظر و المناخ و يكون منها عموم النفع، كلما وقع القطع منها فى ثلاثين سنة كما تجرى فرنسا فى غابة فونتينبلو و غيرها من غاباتها البديعة المشهورة. و لا- تكون فى جمالها أقل من شجر الأرز الذى يكسو نجاد جبال طوروس (الدروب) و وهادها فترى فيها تلعة مستطيلة إلى جانبها تلعة هرمية و أخرى ذات شكل بيضوى و غيرها المحدودب و المربع أو قائم الزوايا و منفرجها و كلها مزينة بالأشجار.

يقول كاتب چلبى من أهل القرن الحادى عشر: إن غابات الشام كثيرة أشهرها غابة عسقلان و هو حرج كبير يمتد إلى نواحى الرملة. و من الغابات غابة أرسوف بالقرب من نهر العوجا تمتد إلى عكا و كان يقال له غاب قلنسوة و هذا الحرج يمتد من قاقون إلى عيون التجار، و من الحراج حرج القنيطرة، و فى أطراف حلب عدة غابات و خصوصا الغاب الكبير و يقال له الزور و أكثر شجره التوت ا ه. و لقد ثبت أن الغابات كانت فى القرون السالفة أكثر من اليوم و أن معظم جبالنا التى نراها اليوم جرداء كانت خضراء و أن التجريد من الغابات وقع فى أدوار مختلفة فقد ذكر ابن حوقل أن جبل قلمون و جبل المانع و جبل الشيخ المحيطة بدمشق كانت منذ القرن الرابع مجردة من أشجارها قال: إنك إذا كنت فى دمشق ترى بعينك على فرسخ و أقل جبالا قرعاء من النبات و الشجر و أمكنة خالية من العمارة.

و تجريد الشام من غاباته دعا إلى زيادة مساحة عدد البطائح و المستنقعات و تأليف صحار من الرمال فقد قالوا: إن الظلال كانت تمتد شرقى قيسارية على ستة أو

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۵۵

ثمانية كيلومترات فأصبحت اليوم عبارة عن كثبان من الرمل. و هكذا سواحل فلسطين بل معظم سواحل الشام طمت عليها مياه البحر

فأبقت فيها الرمال و ألّفت منها بطائح و مغايض و أفسدت الأراضى العامرة. و لهذا النظر قلّ و لا شك مساحة المزروع من أرض الشام سنة عن سنة و المستنقعات معروف ضررها بحياة الفلاح و إن كانت أقلّ من الكثبان و الحرار. و ضرر المستنقعات يتناول الأنفس لما ينبعث عنها من الحميات التى كثيرا ما رأيناها تقفر قرى برمتها من سكانها.

و قد قال الزراعى أرنزون: إن أهم الآفات التى ابتليت بها الغابات ثلاث:

الرعى المتبادل و حق المرعى فى الأراضى الخالية و الحيوانات الصغيرة و لا سيما الماعز و فأس الحطابين. و نسب خراب الغابات فى فلسطين- و سائر الشام تتصرف عليها- إلى إصدار الخشب و التبن و السماد إلى الخارج، و قال: إن الربح من إصدارها لا يوازى خراب الغابات و قلة غذاء الحيوانات و بوار الأراضى بقلة السماد و السباخ.

الأشجار المثمرة و غيرها:

و كانوا يتفننون بتسمية الفواكه و البقول و الورود. قال البدرى: و العنب فى دمشق فقط أصناف: البلدى. خناصرى. عاصمى. زينى. بيتمونى. قناديلى.

إفرنجى. مكاحلى. بيض الحمام. حلوانى. بوارشى. جبلى. قصيف. ابزاز الكلبة. قشلميش. كوتانى. عبيدى. شحمانى. جوزانى. دراقنى. مخ العصفور. عرايشى. رومى. شبيهى. ينطانى. عصيرى. رناطى. ورق الطير.

سماقى. حرصى. مجزع. شعراوى. دربلى. قارى. علوى. عينونى. مورق.

مشعر. مسمط. مرصص. مجضر. مقوس. حمادى. تفاحى. رهبانى. زردى مبرد. مخصل. مغاربى. شحمة القرط. و قسم المشمش إلى أحد و عشرين صنفا و هى: حموى. سنديانى. أويسى. عربيلى. خراسانى. كافورى. بعلبكى.

لقيس. لوزى. دغمشى. وزيرى. كلابى. سلطانى. حازمى. أيدمرى.

سنينى. برديّ. ملوّح. قرط البخاتى. جلاجل القلوع. الخ. و وصف العماد الكاتب المشمش الدمشقى فقال: طلعت فى أبراج الأطباق كأنها كرات من التبر مصوغة، و بالورس مصبوغة، صفر كأنها ثمر الرايات الناصرية، حلا

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۵۶

منظرا و ذوقا، و لو نظم جوهره لكان طوقا، كأنما خرط من الصندل، و خلط بالمندل، و جمد من الثلج و العسل، و تصاحب هو و السلطان فى الركوب و الجلوس، و التناجى بما فى النفوس.

و قال البدرى: و من خصوصيات دمشق «الطرخون» من بقول المائدة و كان يخرج فيها السذاب و الرشاد و بقلة الحمقاء و الماش و الهندباء و الكراويا و التوت الأسود و الشامى. و كان يكثر فيها الكراز و الوشنة و هو فيها سبعة أنواع. و ذكر أن الورد جنس تحته ستة أنواع بدمشق و منه الجورى و النسرينى، و النرجس جنس تحته أنواع منها اليعفورى و البرى، و المضعف و ذكر منثورها و زنبقها و آذريونها و آسها و حبه و ريحانها و نيلوفرها و بانها و حيلانها و زنزلختها و تمر حنائها و قراصياها و كمثراها (ثلاثة و عشرون صنفا) و تفاحها و دراقها (ستة عشر صنفا) و خوخها (ثلاثة عشر صنفا) إلى غير ذلك مما كان فى القرن التاسع.

الصناعات الزراعية القديمة:

و كانت الزهور و الورود من أهم فروع الزراعة، و للطيوب و العطور و مستقطرات الزهور، شأن و أى شأن منذ الأزمان المتطاولة. و كان للأقدمين على ما يظهر غرام شديد بالملاب العطر المائع و الكباد اليابس، و يستعملون المسك و العنبر و الزعفران كثيرا، و يولعون بالعرف و الأريجة، و كان لهم طيب يقال له الغالية و هى مسك و عنبر يعجنان بالبان قال ابن سيده: و يقال إن الذى سماها غالية معاوية بن أبى سفيان و ذلك أنه شمها من عبد اللّه بن جعفر بن أبى طالب فاستطابها فسأله عنها فوصفها له فقال: هذه غالية. و

قد حفظ لنا شيخ الربوة من أهل القرن الثامن شيئا من الإشارة إلى كثرة الورد و الزهر فى دمشق فقال: إن العطر و غيره كان يستخرج فى المزة من ضواحى دمشق من زهورها و ورودها حتى إن حراقته تلقى على الطرقات و فى دروبها و أزقتها كالمزابل فلا- يكون لرائحته نظير و يكون ألذّ من المسك إلى مدة انقضاء الورد. و ذكر صفة إخراجه فى الكركات و الأنابيق و رسم صورها- و القرع و الأنبيق آلتان لصنع ماء الورد السفلى هى القرع و العليا على هيئة المحجمة هى الأنبيق- قال: و غير هذه الكركة كركة أخرى يستخرج منها الماورد و غيره من المياه بلا ماء بوقود الحطب و ذلك

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۵۷

بعد حشو القرع بالورد و بلسان الثور و بزهر النوفر أو البان أو زهر النارنج و الشقيق و الهندباء أو بورق القرنفل المزروع بدمشق.

قال: و يحمل الورد المستخرج بالمزة إلى سائر البلاد الجنوبية كالحجاز و ما وراء ذلك و كذلك يحمل زهر الورد المزى إلى الهند و إلى السند و إلى الصين و إلى ما وراء ذلك و يسمى هناك الزهر. و مما أرخوه إنه كان لقاضى القضاة الحنفية و لأخيه الحريرى قطعة بأرض تسمى شور الزهر طولها مائة و عشر خطوات و عرضها خمس و سبعون خطوة باع منها عشرين قنطارا باثنين و عشرين ألف درهم و ذلك سنة خمس و ستين و ستمائة و هذا لم يسمع بمثله ا ه.

و كانت حلب فى القديم مختصة بماء الورد النصيبى الذى يستخرج بالباب من أعمالها قال ابن الشحنة: إنه لا يقاربه شيء مما يجلب إلى الديار المصرية من الشام و لا يدانيه مع أن المجلوب من دمشق عند المصريين فى غاية العظمة بحيث يصفه أطباؤهم للمرضى فيقولون ماء ورد شامى. و ينبت فى أرض حلب زهر القرنفل و كان يستقطر ماؤه. و اشتهرت فى القديم زهور لبنان و ما إليه من الجبال كجبل الشيخ فإنها كثيرة مبذولة فى الربيع شأنها فى مراعى الجولان و العمق و البقاع و البقيعة كما اشتهرت طيوب البلقاء و صموغه و كانت تحمل إلى مصر.

و قلّ اليوم من يلتفت إلى هذه الصناعات الزراعية.

و من صناعاتهم الزراعية فى القديم السكّر و كان يعمل فى القديم على ضفاف الأردن و لا تزال معامله فى جنوبى الغور تدعى إلى اليوم مطاحن السكر، و كان السكر أكثر مستغل تلك الناحية يحمل إلى الشرق و الغرب. و كان يصنع السكر فى أنطاكية و طرابلس و عكا و يافا و يحمل منها إلى الآفاق. قال القلقشندى من أهل القرن التاسع: فى الشام يعمل السكر الوسط و المكرر. و كانت زيوت الشام كخمورها تصدر إلى القاصية. و يعصر السليط أى دهن السمسم فى دياف من حوران و به اشتهرت. و كان الصابون الحلبى و النابلسى و غيره مما يفيض عن حاجة القطر يباع منه فى الأقطار الأخرى. و كان الجبن الكركى مشهورا يصدر إلى مصر.

و قد قامت الحكومة العثمانية إبان الحرب العامة بعمل بعض المحفوظات و المربيات فى دمشق فتعمل الحساء ذرورا ثم يذاب فى ماء حار وقت الاستعمال فيأتى كأنه طبخ الساعة و استخرجوا من العظام مرقا معقما. و أخذوا يعملون

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۵۸

من الثمار و البقول مجففات و محضرات على طريقة لا تنقص من تغذيتها و تكون عند الاستعمال كأنها طرية حديثة عهد بالقطف من الشجرة أو المسكبة. و بلغ عدد البقول المربية عشرة أنواع كان يتناولها الجندى فى كل وقت كأنه على مقربة من الحدائق و المباقل و المقاتى. و استخرجوا فى معامل الفيلق بدمشق أشربة كثيرة من ماء الزهر و ماء الورد و شراب قشر الليمون و قشر البرتقال تجعل أرواحها فى زجاجات و تكفى القطرة منها كأس ماء لتكون حلوة ذات نكهة تستعمل فى أشربة الجيش و لا سيما فى مستشفيات البادية. و بالجملة فقد كان لتعقيم السوائل و استخراج الأشربة و تجفيف الثمار و البقول و خبز الأخباز بالآلات الكهربائية الصحية شأن لم يعهد فى الشام ثم تنوسى بعدهم.

و من صناعاتهم العسل و كانوا يغالون بأكله كثيرا و اشتهر عسل سنير و جبل الثلج كما اشتهر دبس بعلبك و جبنها و زيتها و لبنها، قال ياقوت: ليس فى الدنيا مثلها يضرب بها المثل. و كانت بيسان توصف بكثرة النخل، و النخيل مما يجود فى الأغوار و كان كثيرا فى

القديم و الشاميون يعنون بتعهده من وراء الغاية.

و يظهر أن العسل و الزعفران و الـدبس و القنود و التمور كانت مما يعول عليه فى الأطعمـة و الحلواء أكثر من اليوم. و لـدينا وثيقة فى بعض المأكولات ذكرها أبو القاسم الواسانى من شـعراء اليتيمة الدمشـقيين نظمها منذ نحو ألف سـنة فى وصف جماعة زاروه فى قرية جمرايا على مقربة من الهامة فى غربى دمشق، و مما جاء فيها ما أكلوه من الأطعمة و فيه إشارة إلى كثرة أنواع التمر:

أكلوا لى من الجرادق ألفين ببنّ تشتاقه العارضان

أكلوا لى أضعافها غير مشطور و مالوا إلى سميذ الفران

أكلوا لى من الجداء ثلاثين قريصا بالخل و الزعفران

أكلوا ضعفها شواء و ضعفيها طبيخا من سائر الألوان

أكلوا لى تبالة تبلت عقلى بعشر من الدجاج السمان

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۵۹ أكلوا لى مضيرة ضاعفت ضرى بروس الجداء و العقبان

أكلوا لى كشكية قرحت قلبى و هاجت لفقدها أشجانى

أكلوا لى سبعين حوتا من النهر طريا من أعظم الحيتان

أكلوا لى عدلا من المالح المشوىّ ملقى فى الخل و الأنجدان

أكلوا لى من القريشاء و البرنىّ و المعقلى و الصرفان

ألف عدل سوى المصقر و البردى و اللؤلؤى و الصيحانى

أكلوا لى من الكوامخ و الجوز معا و الخلاط و الأجبان

و من البيض و المخلل ما تعجز عن جمعه قرى حوران

و من صـناعاتهم الزراعية صناعة الصابون و كانت من أنجح الصناعات القديمة و مصابنه فى حلب و كلز و إدلب و أنطاكية و دمشق و نـابلس و طرابلس و اللاذقيـة و حيفـا و رام اللّه و بعض قرى لبنـان. و خير الصـابون و أشـهره اليوم الصـابون النابلسـى فيه على ما يظهر خاصية ليست بغيره أو أن السر فى جودته إتقانه بدون غش.

و منذ أفلتت الصـناعات من رؤساء لها تشرف على أعمال أهلها انحطت فى دمشق صناعة الصابون فقد كانت له أماكن خاصة لتجفيفه و كانوا لا يبيعونه إلا بعـد ثلاث سـنين من صـنعه و يصـدر إلى أقطار العالم و ثمنه يزيـد خمسـين فى المئة على سائر أنواع الصابون و كنت إذا غسلت به الثياب تجد من رائحتها ما ينعش قلبك

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۶۰

من الروائح الذكية، و الآن يبيعون الصابون الدمشقى أخضر بدون تجفيف و يزاحمه فى عقر داره الصابون الغربى لرخصه و هو مركب من زيوت صناعية على الغالب ليس من الزيت الخالص، و عسى أن يرسل صناع الصابون فى نابلس و طرابلس و دمشق و حلب و عكا و حيفا إلى أوربا من يدرسون المادة التى تدخل الصابون الغربى فتزيد رغوته أخضر كان أو يابسا، يعيدون إلى الصابون البلدى رونقه السالف و يخلصون من النكهة الخبيثة فى الصابون الغريب.

معادن الشام و حمّاتها:

و خليق بنا و قد انتهى بنا نفس الكلام على ما حوى سطح الأرض من الخيرات الطبيعية إلى هذا الحد، أن لا نغفل الكلام على ما حوى بطنهـا من المعـادن و الأمـواه النافعـة. فقـد أجمع المتقـدمون أنه كان فيها معادن حديـد فى لبنان كان قـدماء المصـريين يحملونها إلى قطرهم، و أجمع المحـدثون الـذين بحثوا عن طبقات الأرض و تركيبها على أن الشام خالية من الفحم الحجرى و ما وجد منه لا يوازى

ثمنه ما يصرف فى تعدينه، و فى لبنان طبقات القضّة Gres فيها فحم خشبى متحجر (لنيت) يمكن استثمارها و فى قرطبا و ميروبا و المنيطرة مناجم من هذا الحجر الخشبى و أشهر طبقاتها الفحم الخشبى المتحجر فى قرنايل، و قد صار الاعتناء باستخراجه من سنة (۱۸۳۵ إلى ۱۸۳۸ م)، و من مناجم هذا الحجر منجم مارشينا و فالوغا و بزبدين و جزين و زحلتا و عين التغرا و حيطورة و يجوز استخدام هذه المناجم للمعامل الصناعية الصغيرة و الحاجات البيتية للوقود.

و الفحم الحجرى و نظنه من نوع الفحم الخشبى فى جبل البشر و أبى فياض شرقى حلب و ذكر ياقوت أن فى جبل البشر و يمتد إلى الفرات من أرض الشام من جهة البادية أربعة معادن: القار، و المغرة، و الطين الذى يعمل منه بواتق لسبك الحديد، و الرمل الذى يعمل منه فى حلب الزجاج و هو رمل أبيض كالاسفيداج.

و للحمّر مناجم فى عينبل و حريقة فى جبل عامل و فى أرجاء مرجعيون، و أشهرها منجم حاصبيا، كان يستخرج منه فى اليوم ۸۰ صندوقا وزن كل واحد منها ۱۰۰ كيلو و كان السلطان عبد الحميد الثانى يستثمره لنفسه، و بعد انحلال دولته أهملته الحكومة لقلة اليد العاملة و اضطرت أن تهمل معدن سحمر

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۶۱

فى البقاع و غيره من المعادن فى الشام. فأضر إهمال الحمّر بأرباب الكروم فتصاعدت أثمانه و هو يستعمل كل سنة عند تأبيرها فلحقته الدودة من أجل ذلك و قلت مداخيله. و فى التاس بين حمص و تدمر معدن للحمر يكاد يوازى معدن حاصبيا بصفائه. و فى المقارن بين درعا و سمخ مناجم كلس ممزوج بحمر، و كذلك فى أرباض تدمر و فى الصلت و وادى اليرموك. قال المقدسى: إن فى الشام جبال حمر يسمى ترابها الصمغة و هو تراب رخو و جبال بيض تسمى الحوارة فيه أدنى صلابة يبيض به السقوف و يطين به السطوح. و معدن الحديد كثير فى قضض لبنان و أتربته، و على سطح الجبال و بطون الأودية، لا سيما فى أرجاء البترون و كسروان و المتن و فى قرية دومة و بيت شباب و فى عكار و مشغرة و الفرزل و مجارى الأنهار مثل نهر الكلب و نهر إبراهيم. و من هنا كانت تؤخذ مواد المسابك لمعامل الحديد التى كانت فى تلك الأرجاء، و المانع من استثمارها اليوم قلة الوقود أى الفحم الحجرى، و الحطب لا يفى بهذا الغرض على نحو ما كان الحال إلى عهد قريب.

و أهم مناجم الحديد فى برمانا و بحمدون و وادى النهر الكبير حجر الصفار (الكروم) و فى جبال اللاذقية معادن حديد كثيرة و فيها رصاص ممزوج بالفضة و خشب فحمى و نيكل و كان فى القديم فى ناحيتى باير و بوجاق معدن حجر الصفار يستخرج منه فى السنة ۲۵۰۰ طن و لم يبق له أثر، و يوجد حجر الصفار على شواطىء بحيرية طبرية و من نوع البيريت و اللنيت فى برتى و كفر سلوان و مرجبا و فى راشيا و سفح جبل الشيخ الغربى و جنوبى حاصبيا و فى عين اللبوة و عين عطا و شوايا و عين قنى و الروج و الكفير.

و النحاس فى قرية اهمج فى كسروان و فى الجنوب الغربى من حلب و كان منه فى عين جر فأكدى لكثرة ما استخرج منه، و كان النحاس الأحمر يحمل من جبل جوشن على قيد غلوة من حلب. و ذكر كاتب چلبى أن فى بيت حبرون معدن زجاج يستخرج منه فيحمل إلى الأطراف فيباع و يحمل إلى السودان و الحبشة من أسورته و يقايض عليها بالتبر.

و استثمر معدن الفحم الحجرى فى مرجيليا فى لبنان أثناء الحرب الكبرى (۴- ۱۱)

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۶۲

لوقود السكك الحديدية و استخرج منه (۱۹۱۶) ما يقارب ۱۳۰۰ طن. و ذكروا أن الطبقات الفحمية فى لبنان وجدت فى نيحا، المراح، كركبا، زحلتا، عبيه، عرمون، جمهور، عين تراز، بحمدون، القرية، رأس الحرف، مرجيليا، بتبيات، مارحنا، الكنيسة، عين موفق، قرنايل، جورة أرصون، بزبدين، رأس المتن، ترشيش، جوار الجوز، حيطورا، عين تدجورا، عين زحلتا، صيدنايا، قيتولة، بكاسين، جزين، حمصية، مشغرة، قرطبا، حدث الجبة، مزرعة بيت ابن صعب، الديمان، القنيات. و منه الردىء الذى لا بال له.

و فى جهات أبو فياض على ۸۰ كيلومترا من حلب فحم حجرى ردىء من اللنيت كما أن منه فى جهات حوران و فى قرية عرنة من

إقليم البلاـن معـدن الفحم الحجرى قيـل: إنه لم ينضـج و فى حضـر من إقليم البلاـن معادن أخرى براقـة. و فى جبال الكرك كثير من أنواع المعـادن قصـدها مؤخرا كـثير من معـدّنى الإـنكليز لتحليلهـا و معرفـة أنواعهـا. و البـترول (زيت الكـاز) حول البحر الميت. و فى أرسوس على عشـرين كيلومترا من الإسـكندرونة و فى وادى صـقلاب من أعمـال الكورة فى شـرقى الأـردن و فى المزيريب من عمل حوران و فى أرجاء الإسـكندرونة معـدن غاز سائل جرى تعـدينه فلم يأت بفائـدة. و فى أرجاء طرابلس معدن المغرة و نوع من الصـبغ الأصفر Ocre jaune .

و يوجـد الكبريت بكثرة فى جهات الباروك و فى قريـة عنجرة من جبل عجلون و فى أرجاء البحر الميت و بالقرب من حمـة عفرة فى الطفيلـة معـادن الكـبريت و القصـدير و البـترول و النحـاس و فى رأس العيـن من عمـل الزور و فى أمـاكن جبليـة عديـدة و لاـ يصـلح للاسـتعمال لامتزاجه بمواد غريبـة فحميـة و حديديـة. و يوجد الزاج فى حارم، و النيكل و منه الفاخر فى جبل الأقرع، و الفوسـفات فى جبال السـرو بين الصـلت و عمان حسـبت نفقات اسـتثماره فرأوا أنها لا تفى بها وارداته فترك و شأنه. و الفوسـفات موجود فى شمالى يبرود و بعض جهـات فلسـطين. و البوتـاس حول البحر الميت و الاسـفلت فى جبل الأكراد على ثلاثين كيلومترا من اللاذقيـة (فى قرى كفريـة و قصـاب و خربـة السولاـس) و يقال: إنه أغنى منجم عرف من نوعه. و كان فى مقاطعـة جرش فى أرض تسـمى تلول الـذهب معدن ذهب جاء فى الكتاب المقدس أن سليمان عليه السلام كان يستخرج الذهب منها. و فى

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۶۳

الجنوب الشرقى من تدمر و فى أرجاء أنطاكية معادن ذهب و لكنها شحيحة.

و تكثر الفضـة فى جبال اللاذقيـة و شـمالى بعلبك و مصـياف و على ضـفاف العاصـى فيما يلى أنطاكيـة معدن ذهب و معدن رصاص فضـى و معـدن إثمـد و حجر الكحـل و معـدن فحم و معـدن الطفال المعروف بالبيلون فى أرجاء كلز و أنطاكيـة، و فى جبال قرهموط إحدى نواحى أنطاكية عدة معادن تستعمل للصبغ و فى جبل بارسال من أعمال كلز معدن مرمر أصفر.

و كـان فى قريـة يعفور من عمـل دمشق معـدن فضـة قـاله شـيخ الربوة، و بـأرض حـدث من جبل لبنان جوسـية فوق كرك نوح يلتقط حجارة زلطية تكسـر مرقشـيشا و كل معدن مائل باللونية إلى لون ما هو قسـمه، وعد الخوارزمى المارقشـيشا من عقاقيرهم فقال: و منها مربع و مـدور و قطع كـبيرة غير محـدودة الشـكل و هى ضـروب فمنهـا أصـفر يسـمى الـذهبى و أبيض يسـمى الفضـى و آخر يسـمى النحاسى.

و يوجـد الملح فى مواضع كثيرة و لا سـيما فى جهات تدمر و جيرود و حماة و الخليل و حوالى البحر الميت. و ملح جيرود فيه مرارة و أجوده ملح الجبول.

و فى حلب عدة ملاحات و أعظمها ما كان فى جوار قرية جبول على شـكل مخروطى عظيم لا تطاف أطرافها فى أقل من ثمانى عشـرة ساعة يجمد ماؤها فى شهر أيار إلى تشرين الثانى فيكون فى هذه الفترة ملحا، و يسمى هذا النهر نهر الذهب يجرى من ناحية باب بزاعا إلى أن ينتهى إلى سـبخة الجبول فى مساكب يعملها أهل الجبول و القرى المجاورة لها، و كانوا يقولون إن هذا النهر سمى نهر الذهب لأن أوله بالقبان و آخره بالكيل، أى أنه تزرع فى أوله الحبوب كالحبـة السوداء و الأنيسون و الكراويا و أنواع الفواكه مما يباع بالرطل، و آخره الملح الذى يباع بالكيل.

و يوجد الزئبق فى أرض أنطاكية و غيرها، قال شـيخ الربوة: إن معدن الملح الأندرانى كان يستخرج من أرض سدوم عند بحيرة لوط و كيف ما تكسرت حجارته ما تكسرت إلا فصوصا مربعات الزوايا. و يوجد النحاس فى ناحية الصور على نهر الخابور و معدن السوديوم فى البصـيرة و الصور و الشـدادى و القصبى و يعرف باسم بارود القصبى. و الرصاص فى أنطاكيـة و المغرة فى جهات حلب و عمان و الجبص (الجبسين) فى جهات جيرود و صافيتا و عكار و طرابلس.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۶۴

و الرخام الأصفر فی جبل الجرمق من عمل صفد و علی ساعتین من مادبا جبلان أصفر و أحمر و الحجارة الکلسیة علی کثرة فی جمیع الأرجاء، و أهم أنواع الحجارة الکلسیة الرملیة الحواری و الرخام السماقی و الجنس المدعو «شحم بلحم» و أجمل المقالع ما کان فی جوار حلب و فی جبل باریشا من عمل حارم و هو رخام أصفر و من أجملها الحجر المزی و هو یضرب إلی الصفرة یستخرج من مقلع المزة قرب دمشق و الحجر المعربانی و هو أحمر یستخرج من مقلع معربا فی قلمون کما یستخرج من مقالع تلفتا حجر هش و هو شدید البیاض یعتمدون علیه الیوم فی البناء بدمشق لسهولة نحته و تکثر مقالع الحجر الرملی فی منحدرات لبنان السفلی و علی الشواطئ البحریة و لونه أصفر. و جمیع البنیان من صور إلی طرابلس مبنیة بحجره و هو سریع التفتت سهل النحت لدی خروجه من المقلع و یتصلب فی الهواء و یصلح للملاط أکثر من الحجارة الکلسیة الجمیلة.

و الحجارة الکلسیة ذات تقاطیع زجاجیة فی المواضع المنحوتة حدیثا و لونها أبیض کامد تتحول بمرور الزمان بفعل أشعة الشمس إلی شیء من الصفرة الذهبیة و لذلک کانت أبنیة حلب و بیروت بهذا الحجر الجمیل من أجمل أبنیة الشام، و اشتهرت الداروم فی القدیم برخامها قال الرحالة ناصر خسرو: «و الرخام کثیر جدا فی الرملة و جدران معظم الأبنیة و الدور مغشاة بصفائح من الرخام مرصعة بإتقان و مغشاة بنقوش و رسوم و یقطع الرخام بمنشار لا أسنان له و برمل تلک الدیار، و بالمنشار تقطع قطع من الرخام بقدر طول السواری و العمد کما تقطع الدفوف من شجره. و لقد رأیت فی الرملة رخاما من کل جنس و منه المجزع (المبقع) و الأخضر و الأحمر و الأسود و الأبیض و بالجملة من مختلف الألوان ا ه».

هذا أهم ما فی بطن الشام من المعادن و مهما کانت حالها فهی وافیة نجاجة أهلها و لکنها لا تمون أمما غیرنا کالمعادن المشهورة فی العالم بذهبها و فحمها و غیر ذلک، و معادننا تجزئنا إذا استثمرناها بعض الشیء.

الحمّات الشامیة:

الحمة (بفتح الحاء و تشدید المیم) العین الحارة یستشفی بها الأعلاء و المرضی،

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۶۵

و فی الحدیث: العالم کالحمة یأتیها البعداء و یترکها القرباء، فبینما هی کذلک إذ غار ماؤها، و قد انتفع بها قوم و بقی أقوام یتفکّنون أی یتندمون. فالحمة هی ما یعرف الیوم بالحمامات المعدنیة تکثر فی أرض الشام البعیدة عن الساحل، و أهمها حمامات طبریة علی شاطئ البحیرة، تنفع النساء فی الأمراض التناسلیة و تشفی الأوجاع الحادة المزمنة و أمراض الرئیة و النقرس و البول السکری و أمراض أعضاء التناسل و المرة السوداء و التهاب قصبة الرئة المزمن و بعض الأمراض الجلدیة و غیرها.

قال أبو القاسم فی وصف حمة طبریة: و فیها عیون ملحة حارة و قد بنیت علیها حمامات فهی لا تحتاج إلی الوقود تجری لیلا و نهارا حارة و بقربها حمة یغتمس فیها الجرب ا ه. و یجری الماء إلی الحمامات من أربع عیون حارة و أهمها ما بناه إبراهیم باشا المصری و هو فی الشمآل و یعرف باسمه و هو عبارة عن حوض کبیر تحیط به عمد قدیمة من الرخام و علیه قبة عظمی، و هی مثقوبة بثقوب أسطوانیة یخرج منها البخار و درجة حرارة الماء ۶۲ بالمیزان المئوی و هو صاف براق فی الجملة ملح الطعم مرّ مهوّع و تنبعث منه رائحة شدیدة من حامض الکبریت أو رائحة بیض فاسد، و هذه الحمامات ملک الحکومة تؤجرها و موسم الاستحمام فیها من أول کانون الثانی إلی آخر حزیران.

و منها «الحمة» حمة جدر فی وادی الیرموک علی الخط الحدیدی عند الکیلومتر ۹۳ و ۹۵ تنفع فی أمراض الجلد و غیرها و هی میاه معدنیة حارة تنبجس غزیرة و تجری إلی نهر الشریعة و هی ثلاث حمامات یبعد بعضها عن بعض بضع دقائق یدعی أحدها «المقلی» أو «حمام سلیم» درجة حرارته ۱۱۹ و الآخران «حمام الجرب» و حرارته ۱۰۸، أو «حمام الریح» و حرارته ۸۲ بمیزان فارنهیت و عندها آثار الحمامات الرومانیة و بقربها ملعب عظیم و هو ملعب جدر المشهورة فی الجاهلیة و الإسلام قال أحد واصفیها: «و لا أبالغ إذا قلت

إن معدل قاصديها فی شهر نيسان لا- يقل عن عشرين ألفا يقيمون أياما تحت حر الشمس و هبوب الريح لا بيت يؤويهم و لا نزل يكنهم، فإن كان قاصدوها يبلغون هذا العدد و هی قفراء خربة فی شهر واحد فكم يكون عددهم لو تهيأت لهم حمامات منتظمة و أبنية و فنادق و ما به تستتب لهم الراحة فيه أأبالغ إذا قلت إنهم يزيدون على المائتی ألف؟».

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۶۶

و حمة زرقا معين فی شرقی الأردن تبلغ درجة حرارتها ۱۴۲ بميزان فارنهيت و المالح فی قرية تياسير فی غور الأردن من أرجاء نابلس درجة حرارته ۹۸ ف و حمة أبی ذابلة بجانب فحل و حمة أبی سليم فی المهدّ من أرض صنمة، بقرية سحم الكفارات و حميمة بزور النيص من أرض صنمة أيضا و درجة حرارتها فوق ۱۰۰ ف أما حمامات طبرية فدرجة حرارتها ۱۴۴ ف و ماء حمة جدر عذب جيد الطعم يشرب سخنا و باردا بخلاف طبرية.

و حمة أبی رباح من عمل ناحية القريتين فی حمص تنفع فی الأمراض العصبية و تصلب الأعضاء و التشنج خاصة. و حمة ضمير فی جبل قلمون كبريتية، و حمة أركك فی جهات تدمر، و حمة أنطاكية و هی كبريتية و فيها مغنيزيا أيضا. و حمة إسكندرونة بين حلب و إسكندرونة على الطريق. و حمة جسر الشغر و حمة زرقا معين فی الكرك و هی ثلاثة حمامات يستحم المستحمون ببخارها و يقصدها السياح من الفرنج كما يقصدون حمة عفرة من بحيرة لوط. و حمام النبی داود فی وادی الحسا. و ذكر ابن الشحنة أن فی السخنة من أعمال قنسرين خمسة حمامات ينتفعون بها من البلغم و الريح و الجرب. و بناحية العمق حمة أخرى. و بكورة الجومة من أعمال قنسرين عيون كبريتية تجری إلى الحمة و الحمة قرية يقال لها جندراس يأتيها الناس من الآفاق فيسبحون بها للعلل التی تصيبهم. قال الغزی: إن فی أطراف حمام العمق عدة عيون كبريتية حارة لو جمعت إلى حوض لكانت حماما عظيما. و فی سنة (۱۳۰۰) بنت بلدية حلب على بعض هذه العيون خلوة و صارت تؤجرها.

و ذكر شيخ الربوة أن بين حمص و سلمية كهفا فی جبل يخرج منه بخار أشد من الضباب المتراكم فإذا دخل الإنسان ذلك الكهف خيل إليه أنه فی الحمام لشدة الوهج و كثرة قطر الماء من البخار المتصاعد من البئر الذی فی وسط الكهف و يسمع غليان الماء بقعر البئر و لا يمكن النظر فيه لشدة البخار الصاعد من البئر و من نظر فيه يشيط من الحرارة. و لعله يقصد بذلك حمام أبی رباح. و ظهر مؤخرا على كيلومترين من قرقخان من عمل إسكندرونة نبع ماء معدنی درجة حرارته ۴۳ فتهافت الناس على الاستحمام به.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۶۷

هذه أهم حمّات أو حمامات الشام المعدنية و أكثرها كما رأيت لا ينتفع بها الانتفاع المطلوب، و حالتها كما عرفت منذ القديم لا نظام فيها و لا أبنية للمستحمين حواليها. و قد عرف من تاريخ الرومان أنهم كانوا يعنون من وراء الغاية بالحمامات المعدنية، فكانوا يبنون عليها أبنية بحسب مصطلحهم، و لكن لم نر أن العرب فی هذه الديار عنوا بشیء من هذا القبيل اللهم إلا إذا كان ضاع عنا خبره لقلة التدوين. و لو أنها وقعت العناية اليوم بحماتنا على النحو الذی تنتفع به بعض الأصقاع التی تنبجس فيها مياه معدنية من إقامة المستحمات و المنازل لنزول طلاب الاستحمام و تدبيرها تدبيرا جديدا مرفها صحيا لكان منها منافع كثيرة لأبناء الشام و مورد أرباح لها تأتی من ألوف من الغرباء و القرباء يقصدونها للانتفاع بها و يصرفون فی جوارها أياما و شهورا يجعلون عليها مقاصير للتغميز و التمسيد، و أخرى للتعريق، و غيرها للتبريد، و فنادق فيها شروط المدنية الحديثة، و حدائق و غابات تغرس بالقرب منها تحسن المناخ و تجمل المناظر الطبيعية نظرة فی الفلاحة الشامية الحديثة .

أقاليم الشام:

أولا- لا تقل حرارة غور الأردن عن مثلها فی بعض الممالك العربية الحارة كالعراق و مصر. ففی إحدى السنين كان معدل الحرارة السنوی فی طبرية ۷۰/ ۲۱ درجة و هو لا ينقص عن ۵/ ۲۱ درجة و قد يبلغ أكثر من ۲۲ درجة لا سيما فی مناطق الغور الجنوبية. و لما

كانوا يحسبون معدل الحرارة السنوى فى القاهرة ۵/ ۲۱ درجة و فى بغداد ۸/ ۲۲ درجة كانت حرارة الغور كافية لنمو كثير من الزروع و الأشجار التى أغنت مصر و ستغنى العراق و أعظمها شأنا القطن. و يفضل إقليم الغور أقاليم مصر و العراق فى أن أمطاره قلما ينقص ارتفاعها فى السنة عن ۳۰۰ ميليمتر و لهذا يمكن زرع الحبوب الشتوية فيه عذيا، على حين لا يستطاع ذلك فى مصر و فى معظم العراق لقلة الأمطار فيهما.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۶۸

ثانيا- ليست سواحل الشام أنقص شأنا من الغور من الوجهة المذكورة فمعدل الحرارة فى حيفا و يافا و بيروت قلما يقل عن ۵۰، ۲۰ درجة و لهذا يجود فى الساحل كثير من النباتات التى تتطلب حرارة عظيمة كالقطن مثلا لكنه لا بد من إسقائه فى كلا الإقليمين.

أما السهول ففى بعضها من الحرارة ما يكفى لنجاح القطن و هى التى لا تعلو كثيرا عن سطح البحر مثل مرج ابن عامر و سهل الغاب شمالى حماة و سهل العمق و إدلب، و يجب الرى إلا فى إدلب و العمق. أما فى السهول المرتفعة كالغوطة و حوران و البقاع فالقطن ينتج محصولا متوسطا إلا أنه لا يجد من الحرارة ما يكفى لتفتح كل ثماره. و لهذا قد لا يأتى زرعه فيها بفائدة من الوجهة الاقتصادية و الواجب أن لا يحل القطن مكان القنب فى الغوطة مطلقا. هذا و من العبث البحث فى زرع الأقطان فى إقليم الجبال كسهل الزبدانى و سفوح سنير و غيرها لأن نصف ثماره لا يتفتح هنالك لقلة الحرارة. هذا و من العبث أيضا البحث فى تعميم زرعه فى سهول البلقاء و حوران و وادى العجم و حمص و حماة و حلب الشرقية فى البعل من الأرض، لقلة الأمطار السنوية و اختلاف مجموعها بين سنة و أخرى و إن نجحت زراعته بلا رى فى بعض قرى حوران كقرية الحراك فى وادى الزيدى ضربت مثلا بها لأنها مجتمع مياه أرضية و حالة كهذه لا تصلح للقياس.

ثالثا- ليست مقادير الأمطار واحدة فى مختلف مناطق الشام. فأغزرها فى السواحل دائما. فقد دلتنا قوائم رصد الجو فى مرصد الجامعة الأميركية فى بيروت على أن ارتفاع الأمطار السنوية فيها لا يقل عن ۷۰۰ ميليمتر فى أكثر السنين و أنه يبلغ ۹۰۰ ميليمتر أحيانا و هو رقم كبير. و تثبت أن ارتفاع الأمطار فى حيفا و يافا يزيد على ۵۵۰ ميليمتر فى أكثر السنين. و هكذا فى باقى سواحل الشام، و فى المناطق القريبة من الساحل. أما السهول الداخلية و هى أعظم المناطق شأنا و أغناها تربة و أوسعها مساحة، فارتفاع أمطارها يختلف بين ۲۰۰ و ۵۰۰ ميليمتر فى السنين العادية. و لما كان ارتفاع المطر الضرورى لتكوين محصول متوسط من الحبوب الشتوية لا يقل عن ۲۵۰ ميليمتر اتضح أن منتوجات الحبوب فى تلك السهول تختلف اختلافا كبيرا من سنة إلى أخرى، تبعا لمقادير المطر المنهمر و لتواريخ هطله فى خلال السنة. و أمطار غوطة دمشق قليلة، فقد قستها

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۶۹

بنفسى خلال عشر سنين متتابعة فرأيت أنها لا يبلغ ارتفاعها ۲۵۰ ميليمترا فى أكثر هذه السنين، و كان ارتفاعها دون مائتى ميليمتر فى ثلاث سنين. فالغوطة إذن كالواحة كادت تكون صحراء لا تصلح للزرع، لو لا بردى و الأعوج و مشتقاتهما التى قلبتها جنة ناضرة.

رابعا- لا يسقط الثلج فى إقليم الغور و لا تهبط الحرارة إلى الصفر. و يندر هبوطها إلى الصفر فى السواحل. أما فى السهول الداخلية فلا تهبط لأوطأ من عشر درجات تحت الصفر فى السنين الاعتيادية و يندر هبوطها إلى هذا الحد.

لكن لكل قاعدة شواذّ ففى شتاء سنة (۱۹۲۴- ۱۹۲۵) و كانت سنة قرّ شديد هبطت الحرارة إلى ۱۵ درجة تحت الصفر فى دمشق و ۲۰ درجة تحت الصفر فى سلمية. و دام الصقيع عدة أيام فأتلف الأسباناخ و الملفوف و السلق و المقدونس و البيقية و الحلبة و الفول و غيرها من البقول كما أتلف براعم التين و الرمان و أغصان الليمون و البرتقال و بعض ورق الزيتون. و باد كثير من الأزهار و الرياحين و أشجار التزيين كالمنثور و الكافور و السنط و الفلفل الكاذب و الخروع و الكزورينا و غيرها. أما الحنطة و الشعير و المشمش و التفاح و الكمثرى و الدراق و الخوخ و الصنوبر و السرو و الازدارخت و الصفصاف و الزيزفون و الورد فقد قاومت فلم يمسها الصقيع بأذاه.

و أضر مما ذكر هبوط درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر بضعة أيام فى أوائل نيسان من سنة ۱۹۲۵ فتلف أكثر من نصف محصول

المشمش فی الغوطة، و اسودت أفنان الجوز، و بادت نباتات الخیار و الکوسی و البنادوری البکیرة، فعاد الزراع إلی بذر بذورها ثانیة. و لقد ذکرت هذه الأحداث لأن الطاعنین فی السن من أرباب الفلاحة لم یرو شبیها لها منذ ثلاثین سنة و نیف.

خامسا- لیس لبناء التربة فی الشام کبیر تأثیر فی إمکان غرس الشجر أو عدمه فی إحدی المناطق، بل العامل الأقوی هو الإقلیم و ذلک أن الأمطار تهطل فی الشام خلال شهور معلومة ثم یعقب المطر یبوسة تدوم بضعة شهور. و تکون الریاح شدیدة، و الحرارة زائدة، فی شهور الیبوسة، و مهما کان ارتفاع المطر السنوی کبیرا حتی فی سواحل الشام فکثیر من أشجار الفاکهة لا یعیش بهناء عذیا، بل لا بد من إسقائه کالبرتقال و اللیمون و التفاح و الکمثری و المشمش

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۷۰

و الخوخ. و لیس السبب فی ذلک قلة مجموع الأمطار السنویة بل انحباسها منذ أواخر الربیع و طول فصل الصیف و أوائل الخریف. فأمطار باریز مثلا لا تزید فی السنة علی أمطار بیروت أو أمطار طرابلس لکن المطر فی باریز یهطل فی کل شهور السنة تقریبا فتنمو الأشجار المذکورة دون روی علی العکس من حالتها فی الشام.

و من الشجر ما یعیش بلا إسقاء فی جمیع مناطق الشام الغربیة کالزیتون و الکرمة و اللوز و التین و الرمان و الفستق و الآس و الزعرور و العناب. أما مناطقها الشرقیة فمنها ما یصلح دون روی للکرمة و اللوز و الزیتون کشرقی العاصی إلی جبال الشومریة و کالجولان و حوران و جبل حوران و عجلون و البلقاء. و منها ما أمطاره من القلة بحیث أن الأشجار عموما لا تنجب فیه بلا روی، کالغوطة و المرج و شرقی سنیر (منطقة القریتین) و بادیة الشام. و ینمو الکرم و اللوز بلا روی بعد أن یکبر فی القری الشرقیة من منطقة سلمیة و الحمراء. أی أن المطر فی تلک المنطقة و حالة المیاه الأرضیة هما بحیث لوسقی الکرم سنتین أو ثلاثا حتی تضرب جذوره فی التراب، لأمکن بعدها أن یعیش بلا روی.

و اختلاف الأقالیم فی الشام یجعل هذا القطر صالحا لزرع زروع متنوعة، و غرس أشجار شتی، فالغور و الساحل للقطن و النخل و الموز و القشطة و البرتقال و اللیمون و الزیتون. و السهول للحبوب و الزیتون و اللوز و المشمش و الخوخ و الکرمة. و الجبال للتفاح و الکمثری و الکرز. و تقل الأصقاع التی تحوی کالشام أقالیم عدیدة فی مساحات ضیقة. و لیس فی العالم بلد غیرها یستطیع فیه الإنسان أن یصعد إلی ارتفاع ۲۸۰۰ متر فوق سطح البحر بعد أن یکون فی أعمق من مائتی متر من هذه السویة و ذلک بقطع مسافة لا تزید علی ۶۵ کیلومتر، هذا شأن الذی یکون فی البطیحة أو التابغة علی شواطئ بحیرة طبریة مثلا و یرید الصعود إلی قمة جبل الشیخ فهو یعتلی ثلاثة آلاف متر بقطع تلک المسافة الصغیرة.

أتربة الشام:

کثیرا ما نسمع أن الشام قطر زراعی محض و أن تربتها من أخصب الأتربة

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۷۱

فما معنی ذلک و ما هو مبلغه من الصحة؟ أما کون الشام محض أرض زراعیّة فلأنها لا کبیر منتوج فیها سوی منتوجات الأرض فهی إذا لم تقس بغیرها تعد قطرا زراعیا ذا شأن کبیر. أما إذا قسناها ببعض الممالک الأوربیة حیث الأرض خضراء دائما، و المحاصیل کبیرة بسبب کثرة الأمطار فی کل فصول السنة، أو لو قایسنا بینها و بین بعض الأقطار التی فیها أنهار عظیمة تسقی بمیاهها ملایین من الهکتارات کمصر الیوم و عراق الغد، إذن لوجدنا أن الشام لیس لها شأن عظیم حتی من وجهة الزراعة لأنها ما برحت و لن تبرح أرض حبوب شتویة کالحنطة و الشعیر تنتج بالقلیل من المطر الذی یهطل فیها. أما الأشجار المثمرة و الأقطان و الخضر فمقامها فی الدرجة الثانیة لما تتطلبه من الری علی حین لا تروی أنهار الشام مساحات واسعة علی ما سیجیء ذکره. و نقول لمن جعلوا دیدنهم التنویه بأن الشام من أعظم الأقطار التی تنتج أقطانا أنهم مدفوعون إلی دعایتهم هذه بعوامل سیاسیة، لأن القطن فی الشام لا یمکن أن

يكون له المقام الأول بين الزروع ما دامت معظم سهول هذا القطر لا- تروى إلا بما تجود به السماء من المطر القليل الذى يكاد لا يكفى لحياة الحنطة و الشعير. و يجب أن لا يتخذ القطن الإدلبى مثلا لأن صنفه من أردإ الأصناف، و لأن منطقة إدلب و أشباهها ليست سوى جزء صغير من سهول الشام الواسعة الأرجاء. و قولى هذا لا ينفى كون زرع القطن مفيدا اقتصاديا فى كل مكان يستطيع أن ينجب فيه. فمما تعنينا معرفته أن الأمكنة التى يستطيع أن ينجب فيها صغيرة إذا قيست بمجموع أراضى الشام الزراعية.

و لئن لم تجعل الطبيعة للشام حظا كبيرا من المطر و الأنهار التى تستطيع أن تروى مساحات واسعة، فلقد جادت عليه بتربة من أجود الأتربة. و هاك خلاصة ما تجب معرفته:

أولا- تراب أهم سهول الشام طينى كلسى (أكثر قرى حوران و الغوطة و سهول سلمية و حمص و حماة و بساتين حارم الخ ...) و تراب بعضها طينى رملى (بعض قرى الغور و البقاع الخ). و تراب بعض آخر رملى طينى (بعض قرى الساحل و السهول الشرقية القريبة من البادية). و من المعلوم أن بناء هذه الأنواع الثلاثة يعد جيدا لا سيما الأول منها.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۷۲

أما من حيث غنى أتربة الشام بالعناصر الغذائية. فقد كشف التحليل عن أن معظمها غنى بالحامض الفصفوريك و البوطاس. أما الآزوت (نيتروجين) فمقداره كبير فى بعض المناطق كالغور مثلا، و كاف فى أكثرها، و قليل فى بعض المناطق التى أنهكها الزرع المتتابع دون مدّ الأرض بالسماد.

و يفيد أن أذكر كلمتين فى الطبقات و الأدوار الجيولوجية التى تنتسب إليها أهم المناطق الزراعية فأقول:

الأرض البركانية: إن أتربة حوران و جبل حوران و اللجاة و الجولان و البطيحة و جبل المانع و الصفا و غربى العاصى بين حمص و حماة الخ هى أرض بركانية (بزالتية) متكوّنة من اندفاعات البراكين.

الأرض الطباشيرية: هى أوسع الأرضين فى الشام و إليها تنتسب معظم جبال لبنان و سنير و حرمون و عجلون و الكرك و الصلت و سهول البلقاء و جبل نابلس و تدمر الخ.

الأراضى المنسوبة للدور الثلاثى: منها معظم جبل العلا الواقع بين حماة و سلمية، و منها جنوب البقاع بدءا من مجدل عنجر و سهل متسع حوالى حلب و سواحل فلسطين و قمة جبل قاسيون فى دمشق مع امتداده نحو قرية القطيفة، و قسم كبير من قلمون و قسم من الجبل الأبيض بالقرب من تدمر، و مساحة واسعة حول شواطئ الفرات بعد الراسبات الرباعية الخ.

الأراضى المنسوبة للدور الرباعى: فى الشام كثير من الطبقات الأساسية سترت براسبات من الدور الرباعى و أكثر ما تكون الرواسب فى السهول كالبقاع و الغوطة و المرج و مرج ابن عامر و سهل الرملة ولدّ و سهل عكار و على طول الفرات الخ.

حراج الشام:

إذا رجع المرء إلى كتب الأقدمين يرى أنه كان للحراج فى الشام شأن و أى شأن. و أهم أشجار هذه الحراج و مواقعها و مساحتها لعهدنا هذا، على وجه التقريب:

أشجار الحراج: أعظمها شأنا أشجار البلوط و هى على قسمين قسم يظل

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۷۳

مكتسيا أوراقه فى الشتاء و آخر تسقط أوراقه فيه. فمن الأول السنديان و البلوط الأخضر و هى أشجار صعبة المراس جبارة تعيش فى الساحل و تعلو مع مختلف المناطق إلى ألف متر عن سطح البحر. و من الثانى الملول و البلوط المسمى عفصا.

و لأشجار الصنوبر شأن لا يفوقه سوى شأن البلوط. و أهمها الصنوبر المثمر و هو يشاهد فى الساحل و فى المناطق التى لا يزيد علوها على ألف متر عن سطح البحر. و يغرس فى لبنان (حمانا، برمانا، بيت مرى، بكفيا الخ) لأن خشبه و ثماره مرغوب فيها. و يليه الصنوبر

الحلبی و هو الأکثر شیوعا یعیش فی کافة الأقالیم الزراعیة حتی فی ارتفاع ۱۵۰۰ متر عن سطح البحر. و منه حراج ملتفة فی عکار و الضّنّیة و قزل طاغ و یستخرج منه القطران و یستعمل فی الدباغة.

و من أشجار الفصیلة الصنوبریة التی تشاهد فی غابات الشام السرو و التنوب أو الشوح و هو یکثر فی الجبال الشامخة حیث یختلط بالأرز ثم العرعر و الدفران و الأرز و جمیعها تعیش فی الجبال العالیة.

و کثیرا ما یعثر المرء فی غابات الشام علی أشجار مثمرة بریة مثل الکمثری و الزعرور و الخوخ و السدر و الزیتون و الخروب و غیرها. کما یشاهد أشجارا مختلفة کالبطم فی البلعاس و الدلب علی شواطئ الأنهار و اللبنة أو الأبهر فی لبنان و وادی التیم و العجرم و هو مبذول و الغار فی غور الأردن الخ.

مواقع الحراج: إذا سرنا الیوم من شمال الشام إلی جنوبها نری الغابات الآتیة:

(أ) حراج السفح الممتد بین سلسلتی جبال اللکام مساحتها نحو ۱۰،۰۰۰ هکتار (الهکتار عشرة آلاف متر مربع) و أهم أشجارها البلوط و الصنوبر الحلبی و یلیهما الأبهر و الأشجار المثمرة البریة. و فی منحدرات الجبال مثل هذه المساحة تقریبا مکسوة بالشجر لکن حالة شجرها سیئة.

(ب) حراج کرد طاغ و تمتد من راجو إلی الحمام، و مساحة الشجر الملتف فیها ألف هکتار تقریبا و أشجارها السندیان و الصنوبر الحلبی. و یلحظ أن فأس المحتطبین لا تکفّ عن العمل بها، و أن أضعاف هذه المساحة کانت فیما مضی حراجا جمیلة.

(ج) حراج رأس الخنزیر (قزل طاغ). أهم شجرها الصنوبر الحلبی و أنواع البلوط. تبلغ مساحة ما تلتف أشجاره منها نحو ۱۵،۰۰۰ هکتار إلا أن

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۷۴

ضعفی هذه المساحة کانت غابات ملتفة فإذا هی الیوم جرداء أو فیها أشجار حقیرة متفرقة. و یصنع القطران من صنوبر هذه الحراج فی أرسوس و أنطاکیة.

(د) حراج الأردو و البایر و البسیط: مساحة القسم المکتسی بالشجر الیوم ۱۰،۰۰۰ هکتار تقریبا. و أهم شجرها الصنوبر الحلبی و أنواع البلوط و یلیها الدلب فیما انخفض من الأرض. و یجب الاحتفاظ بهذه الغابات من عیث الماشیة لأن بعض أشجارها بدأت تتلف.

(ه) حراج العمرانیة: شجرها السندیان و الملول و قلیل من الصنوبر الحلبی و مساحتها ۲۰،۰۰۰ هکتار تقریبا، و یلاحظ أن أکثر أشجارها الباسقة قطعت إلا فی المواقع الکبیرة الانحدار التی یشق الوصول إلیها، فإن أشجارها لا تزال باسقة. و من المؤسف أن القطع لا یزال متواصلا فی هذه الحراج لنقل الحطب أو لصنع الفحم و نقله إلی حماة و حمص.

(و) حراج عکار و الضنیة: هی من أجمل الغابات و أهم شجرها السندیان و الملول و یلیهما الصنوبر الحلبی و السرو و العرعر و الأرز. و مساحتها ۱۰،۰۰۰ هکتار علی وجه التقریب.

(ز) حراج الهرمل و إهدن و تنورین. تبلغ مساحتها نحو ۵،۰۰۰ هکتار.

(ح) حراج الصنوبر فی لبنان: زرع اللبنانیون کثیرا من بزور الصنوبر المثمر و غرسوا کثیرا من غراسه فتکوّن منها حراج جمیلة تشاهد فی کثیر من قری لبنان. أما حراج الأرز القدیمة فقد أتت علیها أیدی الجهل و بعض بقایاها فی الباروک.

(ط) حراج البلعاس: یقع جبل البلعاس علی نحو خمسین کیلومترا شرقی سلمیة و فیه أشجار قدیمة من البطم. لعبت بها أیدی البدو و المحتطبین الذین یأتون بمرکباتهم کل یوم من سلمیة إلی البلعاس فیقطعون الشجر و یبیعون الحطب فی سلمیة و حمص و حماة علی بعد المسافة. و قد أکد بعضهم من بدو و حضر و بعض الضباط الذین اخترقوا البلعاس مرارا أن مساحته تبلغ ۳۰،۰۰۰ هکتار تقریبا، و أن الشجر متفرق فی أکثر أقسامه لکنه یلتف فی بعض المواقع.

(ی) حراج عجلون: هی من أوسع حراج الشام و أجملها. أشجارها السندیان و الملول و الصنوبر و الحلبی و غیرها. و فیها مواضع

أشجارها ملتفة و أخرى أنهكها القطع.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۷۵

هذه هی أهم غابات الشام و ثمة غابات و محتطبات لا کبیر شأن لها الیوم لما لحقها من الأذی بسبب انکباب الإنسان علی قطعها أو عیث الماشیة بها، مثل غابات بعلبک و سنیر و جبل الشیخ و القنیطرة و صفد و الناصرة و الکرمل و الصلت و غزة و غیرها. و کانت الحکومة الترکیة خلال الحرب الکبری (۱۹۱۴- ۱۹۱۸) تأمر بقطع الشجر بلا رویة لاستعماله بدلا من الفحم الحجری الذی کان یعوزها.

الری فی الشام:

یروی الیوم فی الشام (عدا فلسطین و شرقی الأردن) مساحة تقدر بنحو ۷۷ ،۰۰۰ هکتار علی وجه التقریب و أهم المناطق التی تروی هی الغوطة و المرج اللذان یسقیان من بردی و الفیجة و الأعوج و مشتقاتهما و من قنی موضعیة.

و تقدر المساحة التی تروی من هذا السهل الواسع بنحو ۲۵ ،۰۰۰ هکتار و یسقی فی وادی العجم من نهر الأعوج نحو ۵ ،۰۰۰ هکتار. و یسقی فی حمص بمیاه القناة التی تشتق من بحیرة حمص بساتین واسعة. و فی الزبدانی سهل یبلغ ۱۲۰۰ هکتار یروی من أنهار صغیرة و ینابیع. و یسقی فی القنیطرة و الزویة نحو ۲۰۰۰ هکتار لا سیما فی البطیحة و شمالی بحیرة الحولة إلی الشرق. و فی حماة نواعیر لا یقل عددها الیوم عن ثمانین ناعورة تبدأ بین حمص و حماة و تمتد شمالا إلی العشارنة و تسقی نحو ۱۵۰۰ هکتار. و فی سلمیة و القری التی فی تلک المنطقة قنوات عدیدة قدیمة دائرة أخذ الأکارون منذ بضع سنوات یکرونها و یعیدونها إلی سالف عهدها و فی جیرود و النبک و یبرود و دیر عطیة و القری المجاورة لها قنوات و ینابیع تسقی ۲۵۰۰ هکتار تقریبا.

و فی لبنان نحو عشرة آلاف هکتار من الأرض التی تروی، أهمها ۱۲۰۰ هکتار تقریبا فیها من شجر اللیمون و البرتقال فی طرابلس. و یتلوها بساتین واسعة حول بیروت و صیدا و صور و رأس العین و الهرمل و بعلبک و بعض قری البقاع الخ.

و مما یسقی سهل عکار و البقیعة و حول اللاذقیة و بعض أرض العمق و أریاض

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۷۶

أنطاکیة و مدینة حلب و الإسکندرونة. أما فی جنوب الشام (فلسطین) فأعظم الأرض شأنا ما یسقی شمالی بحیرة الحولة حیث تهر الحاصبانی و البانیاسی و اللّدان أی أصل الأردن. ثم الغویر و مجدل طبریة ثم بیسان و ما حولها مما یسقی من نهر الجالوت ثم سهل عکا ثم ضواحی مدینة یافا حیث یسقی نحو ۲۰۰۰ هکتار من شجر البرتقال و اللیمون بواسطة آبار ترفع میاهها بالمحرکات.

و مما یستطاع إسقاؤه من الأرض فی المستقبل إذا وجد رأس المال الکافی للقیام بأعمال عظیمة للری. حتی لتبلغ مساحته ضعفی المساحة التی تسقی الیوم و ربما إلی ثلاثة أضعافها، الأراضی الواقعة حول النهر الأسود عند مصبه و حول نهر عفرین و سهل العمق (نحو ۲۰۰ ،۰۰۰ هکتار) و سهل الغاب الممتد شمالی قلعة شیزر (سیجر) (نحو ۶۰ ،۰۰۰ هکتار) و السهل الواقع شرقی جسر الشّغر و السهل الممتد بین صیدا و صور و حول بحیرة الحولة و أرض واسعة فی الغور بین بحیرة طبریة و بحیرة لوط الخ.

زروع الشام و أشجارها:

نذکر هنا بإیجاز أهم ما یزرع فی الشام من الحبوب و البقول و النباتات الصناعیة و ما یغرس من الشجر المثمر، ثم ما ینبت لنفسه من النباتات الطبیعیة المفیدة.

الحبوب: أهمها الحنطة فالشعیر فالذرة الصفراء و البیضاء فالأرز فذرة المکانس.

الحنطة: أعظم الزروع شأنا و أغزرها محصولا و أعمها انتشارا. یقدر ما نتج منها فی (سنة ۹۲۲) ب ۸۰۰، ۳۴۵ طن (الطن أربعة قناطیر)

فی الشام عدا فلسطین و شرقی الأردن و أشهر أصنافها الحورانیة و البیاضیة و البیرودیة و البقاعیة و الحماریة و النورسیة و حنطة عین غرة و الدوشانیة و الشلمونیة و الهیتیة. فالحورانیة تعرف بساق متوسطة الطول و سنبلة غلیظة کثیفة مربعة ذات سفا لونها إلی سمرة و حب سمین قاس إلی حمرة. و هی أجود الأصناف و أعمها. تزرع فی حوران و وادی العجم و فلسطین و البلقاء و حلب، و بالاختصار فی کل أنحاء الشام علی درجات متفاوتة. أما موطنها الأصلی فحوران. و للحنطة البیاضیة سنبلة بیضاء

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۷۷

طویلة و برة نصف فرقة ذات سفا، و حب أبیض سمین مکسره نصف دقیقی و هذا الصنف یزرع فی الغوطة و المرج و وادی العجم خاصة.

و للقمح البیرودی ساق طویلة صلبة ثخینة نصف فارغة، و سنبلة مستطیلة کثیفة ذات سفا، و حبات ضاربة إلی بیاض مکسرها قرنی. و هذا الصنف یزرع فی دومة و قلمون. و للحنطة البقاعیة سنبلة دکناء إلی سواد، و حب إلی سمرة و هی تزرع فی البقاع. أما القمح الحماری فهو یزرع فی حمص و حماة و ما جاورهما. و أما النورسی فیزرع فی فلسطین و هو یعرف بسنبلة مستطیلة ذات سفا، و حبات مستطیلة حنطیة إلی حمرة.

و قمح عین غرة أشهر الأنواع فی الغوطة، و له ساق طویلة فارغة. و سنبلة سمراء متوسطة الکثافة ذات سفا إلی سواد، و حب سمین طحینی اللون. أما الدوشانی فله سنبلة فرقة طویلة لا سفا لها، و حب أبیض ثخین، و هو یزرع فی البقاع و بعلبک و فی الغوطة علی الندور. و یزرع السلمونی فی الأمکنة الجبلیة و یعرف بسنبلة مستطیلة فرقة ذات سفا، و حب مستطیل ذی مکسر دقیقی.

و القمح الهیتی من الأصناف التی تزرع فی الکرک و البلقاء، و سنبلته ذات سفا، و حبه حنطی إلی حمرة. و قد جرب علی القمح الطلیانی فی الغوطة فأتی بأحسن محصول.

الشعیر: هو فی الشام أشهر الزروع بعد الحنطة و أکثرها منتوجا، و قد قدرت غلاته فی سنة (۱۹۲۲) بنحو ۵۰۰، ۱۸۲ طن فی الشام عدا فلسطین و عبر الأردن. و هو علی صنفین العربی و الرومی. فالعربی ساقه قصیرة فارغة و سنبلته علی صفین و هی مستطیلة ذات سفا طویل. و حباته أقل غلظة من حبات الشعیر الرومی. ینضج قبل الرومی و هو أشهر منه و لا یتطلب مثله أرضا غنیة. أما الشعیر الرومی فسوقه غلیظة فارغة یتخللها عقد ملآنة و سنبلته علی ستة صفوف، و هی متوسطة الطول کثیفة ذات سفا. یکثر هذا الصنف فی الغوطة و المرج و هو یتطلب أرضا غنیة مسمدة.

و تزرع الذرة الصفراء فی أنحاء الشام فی الأرض التی تسقی، أما الذرة البیضاء فتزرع عذیا فی أنحاء فلسطین و فی عجلون لا سیما فی مرج ابن عامر. و أما الأرز (۴- ۱۲)

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۷۸

فیزرع فی الحولة و هو قلیل الشأن. و من حبوب الفصیلة القرنیة الشائعة ما تعلفه الماشیة کالبیقیة و الجلبان و الکرسنة و الحلبة. و من الکلإ الفصفصة و هی ذائعة فی الأماکن التی تسقی.

البقول: لا تعیش أکثر الخضر و الأبازیر بلا ری فی أقالیم الشام کافة.

و لهذا یستدل من وجودها فی أرض علی کونها مما یمکن إسقاؤه. و أنواع الخضر التی تزرع کثیرة جدا و کلها تستهلک فی القطر.

الزروع الصناعیة: أشهرها القنب و القطن و السمسم. أما الکتان و النیلة و الحناء و الخشخاش و الخروع فلیست ذات بال فی الشام. فالقنب یزرع فی الغوطة و فی حلب، لکنه فی الغوطة أعظم شأنا، إذ تقدر فیها مساحة الأرض التی تزرع قنبا بنحو ألف هکتار فی کل سنة، أما فی حلب فقلما تزید علی مائتی هکتار.

و زراعة القنب رابحة لأسباب شتی أهمها کون هذا النبات لا یتطلب عنایات غیر التعطین بعد قلعه، و کونه فی مأمن من الأمراض و الحشرات حتی إن الماشیة لا- تأکل ورقه. و قد ألف إقلیم الغوطة الوسطی و صار من زروعها الأساسیة التی لا یرجح علیها سوی

أشجار الفواكه. و من الغلط الفاحش أن يقوم بعضهم فيبحث فى استبدال القطن به، لأن للقطن أقاليم غير إقليم الغوطة، و لأنه تصيبه عاهات لا تصيب القنب. هذا عدا العنايات التى تستلزمها زراعة القطن مما لا لزوم له فى زرع القنب.

القطن: يمكن زرع القطن بلا رى فى الشمال كمنطقة إدلب و دانة و ريحا حيث قدر ما ينتج منه سنة (۱۹۲۳) بنحو ۰۰۰، ۱۳ بالة. و قد علمت أنه نتج هنالك و فى باقى المناطق التى يزرع القطن فيها نحو ۰۰۰، ۱۵ بالة فى سنة (۱۹۲۵).

و لكن للقطن الذى ينتج فى البعل من أرض منطقة إدلب شعر غليظ مجعد و هو لا يصلح إلا للمنسوجات الغليظة، و لهذا لا يباع إلا بنحو نصف ثمن القطن المصرى عادة. أما الأقطان المصرية فلا تنجب إلا فى الأرض التى تسقى.

السمسم: زرع السمسم شائع فى فلسطين و عجلون و لا سيما فى مرج ابن عامر حيث ينجب فى الأرض البعل كالذرة البيضاء. و يزرع منه قليل فى الغوطة و وادى العجم و هناك يكون زرعا مسقيا. و الغاية من زرعه استخراج زيت الشيرج المعروف من بزوره و تتكوّن أثناء عصر هذه البزور مادة الطحينة المعلومة.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۷۹

المنتوجات الطبيعية: تنبت الطبيعة فى بعض الأرجاء نباتات طبيعية لها شأن فى اقتصاديات البلاد مثل السوس و الكمأة. فالسوس ينبت فى سهل العمق و جسر الشغر حيث أجود عروقه، ثم فى أنطاكية و الباب و منبج و دير الزور و السويدية و كلها فى الشمال. و ينبت أيضا فى الغوطة و المرج. و يقدر ما يقتلع من عروق السوس فى الشمال بنحو عشرة آلاف طن كل سنة، و كلها تنقل إلى إسكندرونة حيث تسحق و تشحن إلى أميركا خاصة. أما فى الغوطة و المرج فيقتلع نحو ألف طن سنويا. و فوائد عرق السوس عظيمة و هو يضاف إلى عدد كبير من الأدوية و يصنعون منه فى دمشق شرابا سكريا لذيذا يزيد الإدرار.

و ليس للكمأة مكانة السوس و هى لا تكثر إلا فى السنين الغزيرة الأمطار.

و تنبت فى قلمون و جيرود و كثير من القرى الشرقية القريبة من البادية. و يختلف مقدار ما يرد منها إلى المدن باختلاف السنين.

الأشجار المثمرة:

أسماها مكانة الزيتون فالكرم فالبرتقال فالليمون فالمشمش فالتين فالفستق فالجوز. أما باقى الأشجار فتأتى فى الدرجة الثانية و أنواعها كثيرة مثل التفاح و الكمثرى و الخوخ و اللوز و الرمان و الدراق و السفرجل و الموز و النخل و الآس و الصبار و التوت و العناب و الخروب الخ.

الزيتون: أفضل الشجر و أعمه فى مختلف المناطق. و هو يكثر فى جزين و المختارة و الشويفات و زغرتة و الكورة، و فى الغوطة و المرج، و ضواحى طرابلس و فى طرطوس و صافيتا و جبلة و اللاذقية و الباير و فى أرباض أنطاكية، و فى السويدية و القصير و كردطاغ، و يقل حول حلب و الباب و سلقين و إدلب.

و قد اشتهر فى الجنوب زيت الرامة كما اشتهر زيتون جبال نابلس و القدس و سهول لدّ و الرملة. و ينجب الزيتون فى البعل من الأرض و لا يسقى إلا فى الغوطة و المرج و فى القرى القريبة من البادية. و أصنافه كثار أشهرها فى دمشق الدان و الأخضر (أو المصعبى) و الجلط و التفاحى. و أشهرها فى لبنان الصورى و الشامى و المصرى و الشتوى و العيرونى و بيض الحمام و البلدى. و أعمها فى اللاذقية الخضيرى و الطمرانى و قلب الطير. و فى الإسكندرونة القرمانى و الخلخالى و الرمانى و التفاحى الخ.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۸۰

فالدان أنفع الأصناف بدمشق و أغناها زيتا (۱۸- ۲۰ فى المئة) يستخرج الزيت منه و قلما يؤكل أخضر أو مكبوسا. يبلغ طول ثمرته ۲۰ ميليمترا و عرضها ۱۳ ميليمترا و هى تسودّ بعد أن تنضج. و شجرة الزيتون الأخضر أو المصعبى كبيرة أحد طرفيها حاد يبلغ طولها ۳۲ ميليمترا و عرضها ۲۴ ميليترا، و هى تقطف خضراء و تكبس و لا تعصر لاستخراج زيتها. و ثمرة الجلط كبيرة مستطيلة سوداء تشبه

ثمرة البلح شكلا طولها ۳۵ ميليمترا و عرضها ۲۵ ميليمترا و هذا الصنف أغلى الأصناف و أجودها مكبوسا و يندر عصره لاستخراج زيته منه.

الكرم: الكرم شائع كثير فى الشام، و تقدر مساحة الكروم بنحو ستين ألف هكتار (عدا فلسطين و شرقى الأردن). و أوسع الكروم اليوم فى الصلت و دومة و داريا بالقرب من دمشق و فى زحلة و بحمدون و حمص و تلبيسة بالقرب من حمص و فى حلب الخ. و لا تخلو قرية من قرى لبنان و وادى التيم و جبال النصيرية و قلمون من قليل من الكروم. و الكرمة تعيش فى البعل من الأرض لا يسقى من الكروم إلا ما كان منها فى الغوطة و المرج و فى أرجاء سلمية. و تؤكل الأعناب أو تصنع زبيبا أو دبسا أو خلا أو عرقا أو نبيذا. و الكرم أصناف عديدة، أشهرها الزينى و البلدى و الأحمر و الأحمر الدارانى و الدربلى و الحلوانى و الأسود فى دمشق و الغوطة، و الفضى و القاصوفى و الشقيفى و القمحانى و المريمى و الخانقى و بيض الحمام و الزحلاوى فى وادى التيم و البقاع، و الجحافى و البياضى فى سلمية. و عنب الشيخ و اصبع الست فى الإسكندرونة الخ.

و قضبان الزينى طوال سلامياتها متوسطة و عناقيده ضخمة نصف كثيفة و ورقه كبار مشرحة بشقوق عميقة حافاتها مسننة و ثمرته مستطيلة قشرتها بيضاء غليظة و لبها مائع. تؤكل ثمار هذا الصنف و لا يصنع منها زبيب أو خمر و هى من أجود الأعناب.

و عناقيد البلدى رهلة و ثمرته أسطوانية طويلة بيضاء إلى خضرة، ذات قشرة ملتصقة باللب و اللب لحمى قاس لذيذ. و ثمار هذا الصنف كالسابق تؤكل و لا يصنع منها شىء. و ليس العنب الأحمر من الأعناب اللذيذة و يصنع منه زبيب و دبس و خمر و عرق. أما الأحمر الدارانى فثمرته قليلة الحمرة مستديرة مع شىء من الاستطالة لبها نصف لحمى لذيذ و هى تؤكل و يصنع منها زبيب و مسكرات

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۸۱

و يعادل ثمن هذا الصنف ثمن العنب الزينى.

و الفضى من أجود أعناب وادى التيم ثمرته مستديرة متوسطة الجرم قشرتها رقيقة صفراء و لبها يكاد يكون مائيا و بزورها متوسطة. أما القاصوفى فثمرته أسطوانية منتفخة قليلا فى وسطها نصف لحمية بيضاء إلى خضرة و هى أصغر قليلا من ثمرة العنب الزينى.

البرتقال و الليمون الحامض: ذكر علماء النبات أن موطن هاتين الشجرتين الأصلية فى شرق آسيا، و أن الفضل يعود إلى العرب فى نقلهما إلى سواحل بحر الروم. و هما ينجبان فى الغور و سواحل الشام و لا بد من إسقائهما. أما فى مناطق السهول المرتفعة و الجبال كالغوطة و حوران و حلب و الزبدانى مثلا فإن هبوط الحرارة فى الشتاء إلى بضع درجات تحت الصفر يودى بحياتهما، و لهذا لا يزرعان فى تلك الأرجاء إلا فى حدائق البيوت حيث يكونان بين جدران تقيهما تأثير الرياح الباردة فيهما.

و أوسع بساتين البرتقال و الليمون اليوم فى يافا (نحو ۲۰۰۰ هكتار) ثم فى طرابلس (نحو ۱۲۰۰ هكتار) و يليهما منطقة الإسكندرونة (درت يول و بياس) و بيروت و صيدا و صور و عكا الخ.

و أجود أصناف البرتقال اليافاوى أو اليافونى (شموطى) ثمرته ضخمة بيضية ذات قشرة غليظة و لب قاس لذيذ، لكنه قليل العصارة لا سيما بعد تمام نضجه. و هو ينقل بسهولة إلى القاصية مثل إنكلترا حيث يرجح على كثير من الأصناف. و مما يستملح فيه سهولة تقشيره دون تلويث اليدين.

و من أكثر الأصناف انتشارا البرتقال البلدى و هو ذو ثمرة كروية أصغر من ثمرة اليافاوى قشرتها رقيقة و لبها كثير العصارة. و هذا الصنف لا يصلح للأسفار مثل اليافاوى. و من أصناف البرتقال الماوردى و هو يعرف بقشرة رقيقة حمراء ملتصقة باللب و لب أحمر كثير العصارة. و هذا الصنف لا يألف الأسفار الطويلة و تقشيره صعب.

كان يقدر محصول البرتقال فى يافا فى سنة (۱۹۱۴) أى فى بدء الحرب الكبرى بنحو ۰۰۰، ۸۵۰ ۱ صندوق، أما بعد الحرب فقد هبط المحصول إلى ۰۰۰، ۴۰۰ ۱ صندوق تقريبا. و قد زاد فى العهد محصول البرتقال اليافاوى و بعبارة أصح

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۸۲

الفلسطینی أربعة أو خمسة أضعاف ما کان علیه قبل ربع قرن. و کان محصول طرابلس قبل الحرب ۸۰۰، ۰۰۰ صندوق من البرتقال و ۲۴۰، ۰۰۰ صندوق من الیمون الحامض علی وجه التقریب (یحتوی الصندوق علی ۱۵۰ برتقالة أو ۳۰۰ لیمونة). أما بعد الحرب فهبطت هذه المقادیر إلی نصفها.

و یشحن معظم محصول یافا إلی إنکلترا و مصر، أما محصول طرابلس فإلی أودیسا و بلغاریا و القسطنطینیة و مصر. و کذا محاصیل صیدا و الإسکندرونة.

المشمش: یمکن غرس المشمش فی جمیع أقالیم الشام الزراعیة و لیس فیها ما لا یصلح له سوی الجبال العالیة حیث یخشی علی أزهاره و فراخه من تأثیر الصقیع فیها فی الربیع. و هو لا ینجب فی غیر الأرض التی یمکن إسقاؤها.

و أعظم مغروساته فی الغوطة و المرج و وادی العجم و وادی بردی و حول صیدا و بیروت و بعلبک و أنطاکیة و أرسوس. و منه قلیل فی کثیر من البلدان التی یمکن فیها إسقاؤه. و أشهر أصنافه الیوم الحموی و البلدی و السندیانی و الوزری و العجمی و الکلابی فی دمشق ثم اللوزی فی الساحل.

و للحموی ثمرة متوسطة الحجم صفراء ذهبیة لامعة تذوب فی الفم و تهضم بسهولة و داخلها بزرة حلوة. و هی أجمل ثمار المشمش منظرا و ألذها طعما و أعطرها رائحة و أغلاها ثمنا تؤکل رخصة و لا یصنع منها قمر الدین. أما ثمار المشمش البلدی فکبیرة ضاربة إلی حمرة ضمنها بزور حلوة و تجیء فی اللذة بعد الحموی، تؤکل رخصة و یصنع منها ألذّ المفلقات (النقوع). و تبلغ أشجار هذا الصنف عشرین فی المئة من مجموع شجر المشمش فی الغوطة و المرج. أما الحموی فلا یزید علی خمسة فی المئة. و یشبه المشمش السندیانی الحموی بشکل ثماره و شتان بین الثمرتین فی اللذة لأن السندیانی هو تقلید الحموی کما یقول الدمشقیون. و نسبة البلدی إلی الوزری من هذه الوجهة کنسبة السندیانی إلی الحموی أما المشمش العجمی فثماره کبیرة جمیلة المنظر صفراء إلی خضرة لبها قاس و طعمها سکری لکنه مجرد عن طعم المشمش الخصوصی بل هو یشبه طعم الدراق، و لهذا لا نستملح هذا الصنف و هو غیر شائع. و ثمار المشمش الکلابی أصغر الثمار حجما و أردؤها طعما و هی صفراء إلی حمرة بزورها مرة، و هذا الصنف أشهر الأصناف فی الغوطتین إذ تبلغ نسبته نحو ۷۰ فی المئة من مجموع

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۸۳

شجر المشمش، و منه یصنع قمر الدین المشهور. و هو یولد من بزوره و لا یطعم فهو إذن أقرب الأصناف إلی المشمش البری. و ثمرة المشمس اللوزی فی الساحل شبیهة بثمرة الحموی بدمشق و لعلهما صنف واحد.

دمشق مرکز تجارة المشمش و ما یصنع منه، و منها یصدر قمر الدین و النقوع و بزر المشمش إلی مصر و الأناضول و إلی أمیرکا الشمالیة و یقدر الیوم متوسط حاصلات المشمش فی الغوطة و المرج بنحو اثنی عشر ملیونا من الکیلو غرامات سنویا منها نحو ۸۰ فی المئة من المشمش الکلابی الذی یصنع منه قمر الدین، و یظهر أن مستغلاته قبل الحرب الکبری کانت أعظم منها الیوم.

الفستق: إن غابات البطم فی البلعاس و بقیة أشجار الفستق الهرمة فی قریة عین التینة تحمل علی دعوی أن الشام من البلاد التی تعد بلاد الفستق الأصلیة.

و تکاد زراعة الفستق لا تتجاوز الیوم حلب حیث تأتی أجود ثماره و ألذّها و أغلاها و من أصنافه فی تلک المدینة الأبیض المراوحی و العاشوری و العلیمی و الباتوری و ناب الجمل و العینتابی، و یقدر ما ینتج من ثماره حوالی حلب بنیف و مائة ألف کیلو فی السنة.

الحیوانات الدواجن فی الشام:

الخیل- الخیل فی الشام ثلاثة أصناف العراب أو الأصیلة، و البراذین أو ما تعرف الیوم بالکدش، و المولدة و هی التی تولد من أم

عربیة و أب أعجمی أو علی العکس. ففی الحالة الأولی یسمی المولّد هجینا، و فی الثانیة مقرفا.

تجلب الکدش من الأناضول خاصة و هی بشعة المنظر إذا قیست بالخیل العراب، لا ترکب بل تصلح لحمل الأثقال أو جرها أو درس الحصائد و عددها عظیم یبلغ نحو سبعین فی المئة من مجموع خیل الشام. أما الخیل المولّدة فأجمل من البراذین و أقوی و هی ترکب أکثر ما تستعمل فی جر المرکبات فی المدن و نسبتها للمجموع نحو ۲۰ فی المئة.

و أجمل الخیل فی العالم هی العراب و تحلیتها علمیا کما یلی: مستقیمة الرأس متوسطة الجثة طول أعضائها متوسط لها رأس مربع و جبهة مسطحة و مقدم مستقیم و وجه متوسط الطول، و فکان متباعدتان و منخران جامدان و مرنان معا، و أذنان

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۸۴

حساستان و عینان کبیرتان تنمان عن ذکاء، و عنق رشیق شدید العضل، و ظهر مستقیم و ردف أفقی مکتنز، و عجزان مستدیران و صدر واسع و بطن صغیر، و قوائم رشیقة قویة العضل عمودیة لا عیب فیها، و أوتار جلیة و مفاصل عریضة و جلد رقیق مرن و شعر لا مع قصیر و عرف و سیب طویلان ناعمان متموجان.

و مجموع الجواد العربی آیة فی انتظام تکوینه فهو جمیل قوی شهم، و لا ریب أنه أکمل جواد علی وجه الأرض.

و یختلف لون الخیل العراب و قد استفاضت شهرة الشهب و الشقر و الکمت. و أجملها الشهب المدنرة أی التی یخالط الشهبة فیها نکت سود (أبیض مبقج أو أزرق مبقج).

وزن الجیاد العراب بین ۴۰۰ و ۴۵۰ کیلو غراما ارتفاعها ۱ إلی ۴۲، ۱ إلی ۵۵، ۱ متر، و دورة صدرها ۱ إلی ۷۲، ۱ إلی ۷۸، ۱ متر، و تصلح الخیل العربیة للرکوب و السباق خاصة و إن من إسفاد ذکورها علی إناث إنکلیزیة غیر کریمة منذ بضعة قرون تولدت الجیاد الإنکلیزیة الصافیة السبّاقة الشهیرة التی یقصر الیوم عن إدراکها کل جواد فی حلبة السباق.

و أجمل الخیل العراب ما کان فی دمشق و حمص و حماة ولدی بعض الأسر و العشائر القدیمة کالدنادشة فی تل کلح و الموالی فی شمال الشام. و لا تزید نسبتها علی عشرة فی المائة من مجموع عدد الخیل لدی أهل الحضر من الشامیین.

الحمیر- فی الشام ثلاثة عروق من الحمیر: الآسیوی و المصری و القبرصی أو الأوربی. فالصنف الأسیوی هو الأشهر (تبلغ نسبته ۹۵ فی المئة من مجموع حمر الشام) لونه إلی سواد و ارتفاعه متر إلی متر و ربع، و هو حیوان الفقراء، یصلح للرکوب و الحمل و لا یوازیه حیوان بصبره و قناعته و فوائده الجمة إذا قیست بالعلف القلیل الذی یعلفه. أما الحمر المصریة فبیضاء اللون ارتفاعها أکبر من ارتفاع الحمر الأسیویة و لا تستخدم إلا للرکوب و هی جمیلة المنظر سباقة فی نوعها و ثمن الجید منها غال لا سیما فی المدن. أما الحمر القبرصیة فتعرف من کبر قدها إذ یبلغ ارتفاعها ۱ إلی ۴۰، ۱ إلی ۳۰ متر و هی تستعمل فی سفاد إناث الخیل للحصول علی بغال عظیمة القد قویة البنیة.

البغال- تحصل من إسفاد الحمر القبرصیة علی البراذین (کدش) و هی

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۸۵

ذات قدّ یقرب من قد البراذین فهی إذن صغیرة القد و فائدتها بقناعتها و قوتها و تحملها الأتعاب و قیامها بأعمال تشق علی کل حیوان غیرها. فهی تستخدم مثلا- فی الحرث بمحاریث حدیثة لأن بقر الشام صغیر الجثة لا یقوی علی إثارة الأرض بها. و تحمّل أثقالا فی المناطق الجبلیة الوعرة المسالک کوادی التیم و القری الجبلیة من إقلیم البلان و تجر المرکبات الضخمة المحملة بضاعات و مؤنا علی الطرقات المعبدة فی لبنان و بین دمشق و بیروت. و من منا لم یر فی لبنان و بیروت المرکبات الشهیرة التی تسمی (کارات) یجرها أربعة بغال مصفوفة بعضها أمام بعض علی سطر واحد. و لقد ترک الجیش الإنکلیزی فی الشام عقب الحرب الکبری عددا عظیما من البغال الکبیرة القد لا تبرح بقایاها فی دمشق إلی یومنا هذا. و هی تتطلب عنایات کثیرة و علفا زائدا و لا تتحمل المشاق بقدر البغال الشامیة.

البقر- بقر الشام من العرق الآسيوى القصير الرأس ذى الجبهة المستقيمة العريضة و هو على ثلاثة أصناف: البلدى و العكش و الجولانى (أو الخميسى) فالبقر البلدى شائع فى الغوطة و فى أرجاء العاصى و يسميه الحمصيون البقر الحلبى و الحمويون البقر الشامى و هو كبير طويل القامة (متر و ربع إلى متر و نصف) صلب العود قصير الرأس و القرون ناعم الجلد تغلب الشقرة على لونه و قد يكون كميتا أو إلى سواد أحيانا. و وزنه ۳۰۰- ۵۰۰ كيلو غرام و هو بالنظر إلى كبر قده أقرب الأصناف إلى البقر الأوربية و لذا يصلح للحرث حرثا عميقا إذا علفت أنثاه علفا غزيرا تحلب فى الغوطة طول السنة تقريبا. و يحسب أنها تدر عندئذ ۱۲- ۱۵ كيلو فى اليوم خلال ستة أشهر عقب الوضع و ۸- ۱۰ كيلو فى اليوم فى الثلاثة الأشهر التى تليها ثم ۴- ۵ كيلو فى اليوم خلال شهرين آخرين. فيكون الوزن المتوسط لما تدرّه من اللبن فى السنة ۲۵۰۰- ۲۷۰۰ كيلو.

و لا يألف البقر البلدى أقاليم الشام بأسرها بل يتطلب إقليما معتدلا و رطبا، و لهذا يندر أن تراه فى غير البساتين و هو لا يقاوم الحر فى السهول التى لا ماء للرى فيها كحوران و البلقاء و سهول حمص و حماة و غيرها. و عدده ليس عظيما و لا يزيد على ۱۰ أو ۱۲ فى المائة من مجموع بقر الشام. و يسمى البقر الجولانى بأسماء مختلفة فيقال له الخميسى فى النبك و الزبدانى و البزرى فى حماة. و يغلب

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۸۶

على الظن أنه حصل من إسفاد الثور البلدى على البقرة العكش و لذا جاء قده و وزنه و تكوينه و طباعه بين بين. فإن له رأسا قصيرا و جبهة عريضة و قرنين متجهين إلى الأمام و ثوبا أسود فى الغالب و قد يكون أشقر أحيانا. و طوله نحو ۱۵، ۱ إلى ۳۰، ۱ متر و وزنه نحو ۲۵۰ كيلو. و هو يعد فى العوامل و تعطى أنثاه قليلا من اللبن. و ليس له رقة البقر البلدى و هو أكثر منه تحملا للحر و القر و الجوع و التعب. و نسبته للمجموع ۱۵ فى المئة تقريبا.

و أشهر البقر اليوم هو الذى يدعى البقر العكش فى أكثر أنحاء الشام. و يسميه الحمويون القليطى و الحمصيون الأناضولى. و لا تختلف تحليته من حيث تكوينه عما ذكر. و له جرم صغير و لا يزيد ارتفاعه على متر و عشرة سنتيمترات إلى متر و ربع و وزنه نحو ۲۰۰ كيلو و قد يكون أقل من ذلك فهو إذن لا يصلح للحرث بمحاريث حديثة تغور فى التراب كثيرا. و يغلب عليه اللون الأسود و قليلا ما يكون أبرش أو أشقر. و يحتمل هذا الصنف من البقر الجوع و التعب و الحر و اليبوسه و لهذا تبلغ نسبته نحو ۷۵ فى المئة من مجموع بقر الشام. و درّ أنثاه قليل و يسهل علفه و تسمينه بالغذاء.

الضأن- ينتسب للضأن فى الشام إلى العرق الشامى أو الآسيوى و هاك تحليته فنيا: رأسه طويل قليلا و جبهته تكاد تكون مستقيمة، و قرناه معقوفان متجهان إلى الوراء، و قد يتفرعان، و وجهه مستطيل، و عظام منخره طويلة، و منظر رأسه و وجهه ينم عن احديداب قليل، و ذنبه عظيم فيه مقدار كبير من الدهن.

و وزنه المتوسط نحو ۴۰ كيلو غراما و طوله ۶۵- ۷۵ سنتيمترا. و هو يسمن بسهولة أما مقدار الدرّ فى النعاج فمتوسط.

و فى الشام أصناف للضأن أشهرها المسمى (عواس) أو ضأن الموصل و هو شائع فى حمص و حماة و البقاع و دمشق و لبنان و غيرها. صوفه أبيض يبلغ كيلو غراما و نصفا إلى كيلو غرامين و قد يزيد على ذلك. و ينقص نحو نصفه إذا غسل و يبلغ وزن إليته ۵ إلى ۶ كيلو غرامات و طول الشعرة من صوفه ۱۵- ۱۸ سنتيمترا.

و ما ذكر من الأرقام هو الحد الأوسط، و ربّ كبش سمن فى لبنان بورق التوت و الكرمة فبلغ وزنه ضعفى ما ذكر، و بلغ طول الشعرة من صوفه ۳۰

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۸۷

سنتيمترا و زاد وزن إليته على ثمانية كيلو غرامات، ورقّ صوفه و مرن.

و يرد إلى الشام أصناف أخرى للضأن كالحمراء و البرازية و الشقراء و النجدية ثم ضأن أرزنجان أو المور فى حلب و هو ذو صوف

أحمر أو إلى سواد. و تـدر النعجة لبنها ۴- ۵ أشـهر فتعطى فى اليوم نحو ۵۰۰ غرام. و إذا علفت كمـا تعلف فى حمص و البقاع تعطى ۷۵۰ غراما إلى كيلو غرام من الحليب فى كل يوم.

و يبدأ جز الصوف فى آذار و ينتهى فى أيار فى المناطق الباردة، و أكثر ما يكون فى نيسان.

و يزيـد عـدد الضأن فى الشام على مليونى رأس و تربيته شائعـة لدى العشائر البدوية الضاربة فى الشـرق و منها الجزيرة. و قد اشـتهرت عشـيرة الحديديين بحسن تربية الكباش و النعاج الصالحة للسـفاد. و اشـتهر السـمن الحديدى نسبة إلى تلك العشيرة التى تقطن منطقة الحمراء و معرة النعمان فى الصـيف. و ينقل فى كل سـنة قطعان عظيمة من الغنم من الروم و العراق إلى الشام حيث يستهلك بعضها و يرسل الآخر إلى مصر و جزر يونان و غيرها.

المعز- معز الشام من العرق الإفريقى و تحت العرق النوبى (نسـبة إلى النوبة) و هى تعرف برأس طويل و وجه قصـير على شـكل مثلث قاعدته ضيقة، و جبهته محدبة كثيرا. و هى على صنفين البلدية و الجبلية، فالمعز البلدية يبلغ ارتفاعها ۷۰- ۷۵ سنتيمترا و وزنها ۳۰- ۳۵ كيلو غراما، و لها ثوب أحمر أو أحمر ملمع ببياض.

و قد تكون شهباء أو سوداء أحيانا و قد تجمع ثلاثة ألوان متفرقة: بياض و حمرة و سواد. و إذا كان لونها أحمر و جبهتها بيضاء سميت صبحاء بدمشق، أما إذا جمعت البياض و الحمرة فتسـمى عجمية، و هى جمّاء فى الغالب. و إذا نجمت لها قرون تظل صـغيرة و كثيرا ما تقطع، و ينمو لكل منها زنمتان طويلتان فتسمى الشاة قرطاء و هى شية حسنة تزيد ثمنها و اذناها طويلتان متدليتان و كثيرا ما ينيف طول واحـدتهما على شبر و يقطعهما الأكارون إذا أفرطتا فى الطول. و البلدية من أجود المعزى الحلوبة فهى إذا صادفت عناية تدر فى اليوم ليترين إلى ثلاثة من الحليب مدة ستة أشهر و تدر نصف هذا المقدار تقريبا خلال شهرين آخرين.

و هى ترعى فى الغوطة العشب النامى حول القنى و مجارى الماء و ترعى أيضا الفصفصة و البيقية الخضراء، و كثيرا ما تعلف نحو كيلو غرام من حب الجلبان

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۸۸

صباح كل يوم قبل تسريحها و هذا خاص بالحلوبة منها.

و المـاعز الجبليـة تشـبه البلديـة بصـفاتها الفنيـة لكنها أقصـر منها، و لها ثوب أكثر ما يكون أسود، و هى ليست دروراً بقـدر البلديـة. و المعزى الجبليـة منتشـرة فى أنحاء الشام لا تخلو منها قرية و على العكس فى البلدية التى تكاد لا تخرج عن المدن و المناطق التى يكثر فيها الكلأ فى فصول السنة.

الإبل- إبل الشام من ذوات السـنام الواحـد. أما ذوات السـنامين فتوجد فى جبال فارس و الأناضول و بلاد الكرد و تنقل إليها من آسـيا الوسـطى. و لما كانت تحتمل البرد و السير فى المسالك الوعرة فقد فكر الشاميون فى إسـفاد فحولها على النوق الشامية فحصـلوا على هجن لها سـنام واحد كأمهاتها و ذات جلد على السير فى الجبال و الأوعار كآبائها. و هذه الهجن شائعة فى الجزيرة و لبنان و عجلون و غيرها و هى تعرف بقصر القامة و صغر الرأس.

و الركائب من إبل الشام أصـناف و أشـهرها اليوم إبل الحرة لدى عشـيرتى بنى صخر و الشرارات و غيرهما فى البلقاء. و ينتقى الجيش ركائبه من هـذه الإبل غالبا. و منها الإبل العمانيات أصـلها من عمان و هى ذات رأس نحيف و قدّ أهيف و مزاج عصبى. و جيش الهند يبتاع منها ما يلزمه من الإبل، و منها الإبل التيهية أصلها من السودان و ترد إلى فلسطين و البلقاء مع القوافل الآتية من مصر.

و قد كانت إبل الجيش الإنكليزى من هذا الصنف خلال الحرب الكبرى.

و يطلق الأوربيون كلمة مهرى على الإبل السباقة عموما أو على عرق معلوم منها. و يظن أن هذا الاسم مشتق من الإبل المهريّة المنسوبة إلى مهرة بن حيدان و هى مشهورة بالسبق.

و البعير صـديق البدوى الحميم و لولاه لزالت البداوة، فهو يحمل الخيام و الماء فى المراحل الخالية من الماء و مؤنا تكفى لسـتة أشـهر

یقضیها البدوی مع عشیرته فی صحراء الشام، و یحمل البدوی نفسه و عیاله و سلاحه و تحلب الناقة بعد الوضع فی کل یوم خمسة لیترات إلی عشرة فی مدة سنة أو أکثر، و حلیب النوق لذیذ ملین، و لیس لحم الجمل أردأ من لحم البقر الذی یأکله الأوربیون و وبر الجمل ألین من صوف الضأن و منه تصنع عباءات الوبر العراقیة الشهیرة، و تصنع من جلده قرب عظام منها ما یسع ۲۰۰ لیتر من الماء و تعمل أیضا نعال

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۸۹

قویة لا تفنی من جلد رکبتیه و غیرهما من أعضائه التی تحتک بالأرض بینما یکون الجمل جالسا.

الصناعات الزراعیة فی الشام:

لیس فی الشام الیوم معامل عظیمة للمصنوعات الزراعیة کما فی أوربا، لکن لبعض هذه المصنوعات (و إن کانت تصنع علی الطرائق القدیمة) شأنا کبیرا فی الحیاة الاقتصادیة. و أهم هذه المصنوعات قمر الدین و النقوع و الزبیب و الدبس و الصابون و الزیت و السمن و العرق و الخمر و الجبن و الطحین و النشاء.

قمر الدین- یصنع أشهر قمر الدین فی الغوطة و المرج و قلیلا فی وادی العجم و الزبدانی و بعلبک و فی کل مکان فیه مقدار من شجر المشمش و یلزم أربعة أرطال إلی أربعة و نصف من المشمش للحصول علی رطل من قمر الدین، و هو یصنع من المشمش الکلابی و ینـدر صنعه من المشمش البلدی، و اشتهر منه بدمشق ما یرد من قریتی زملکا و عربیل من قری الغوطة، و لیس صنعه أمرا عسرا فالمشمش یسحق بالأیدی فی غربال موضوع فوق بناء یسمی تیغارا مفروشة أرضه بالاسمنت ثم یغترف العصیر بکیلة من خشب و یفرش بمهارة علی لوح من خشب بعد أن یطلی اللوح بقلیل من الزیت، و بعدها یوضع اللوح فی الشمس یوما و نصف یوم فیجف العصیر و یصیر شرائح وزن کل منها رطل تقریبا و هی «لفات» قمر الدین المعلومة.

و معظم القمر الدین الذی یصنع حوالی دمشق یشحن الیوم إلی مصر و شمال الشام، و یقدر ما یصنع منه سنویا بنحو ۰۰۰، ۴۰ قنطار دمشقی و هو المقدار المتوسط، (یساوی القنطار الدمشقی ۲۵۶ کیلو غراما).

النقوع- هی ثمار المشمش المجففة و تسمی بالعربیة المفلّق، تصنع من المشمش البلدی و ذلک بأن یوضع المشمش فی الشمس علی مسطاح من القش مدة أربعة أیام، ثم تکبس الثمار بین الکفین و تترک یومین آخرین، ثم ترقق أطرافها بالأصابع ثم تترک یومین أو أکثر فتجف، و یلزم خمسة أرطال من المشمش للحصول علی رطل من النقوع، و یدل إحصاء المکس فی بیروت علی أنه صدر منها وحدها سنة، (۱۹۱۱) ۰۰۰، ۶۸۰ کیلو غرام من النقوع و ملیون و نیف کیلو

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۹۰

غرام من بزور المشمش و هی تصلح لاستخراج زیت منها.

الزبیب و الدبس- أجود زبیب فی الشام ما یحصل من تزبیب العنب الدربلی فی جیرود و الرحیبة و الریحان و دومة، و یلیه زبیب الصلت. و یصنع الزبیب فی کل القری التی فیها أعناب، و لیس فی صنعه صعوبة، فالعنب یغطس بماء فیه شیء من القلی و الزیت ثم یفرش علی مسطاح مدة ثمانیة أیام فیجف. و یحسب أن کل أربعة أرطال من العنب ینتج منها رطل من الزبیب. و للثمار المجففة شأن کبیر إذا صحت العزیمة علی الاعتناء بصفها و بقطفها و شحنها إلی الدیار الأجنبیة کما یفعل الزراع حول مدینة أزمیر بزبیبهم و تینهم المجفف.

و یصنع الدبس من الزبیب أو العنب، ففی الحالة الأولی یدرس الزبیب فی المعصرة بمدرس من حجر حتی یصیر کتلة لزجة، ثم یوضع فی قدور کبیرة و یغمر بالماء مدة ۲۴ ساعة، ثم یؤخذ ماء الزبیب (جلاب أو صلیبة) و یوضع فی مرجل و تضرم النار تحته حتی یتحصل الدبس. و یلزم مائة رطل من الزبیب للحصول علی ۶۰ إلی ۸۰ رطلا من الدبس. و اشتهر دباسو قری معربا و دومة و عربیل

بصنع دبس لذيذ يعطرونه بعطر الورد أحيانا.

الصابون- أشهر مصابن الشام فى طرابلس و نابلس و دمشق و حلب و كلز، و يبلغ المقدار المتوسط للصابون الذى يصنع سنويا فى الشام نحو ۰۰۰، ۱۳ طن.

و صناعته على الأصول القديمة.

الزيت- أشهر الزيوت ما يصنع فى معاصر لبنان و فلسطين و أشهرها جميعا زيت الرامة، و اعتاد أرباب الزيتون فى دمشق أن يتركوه مدة طويلة فى المعصرة، فيختمر و يتعفن و يحصل له طعم كريه، حتى إنه ليشق تصريفه خارج الشام.

و الداعى إلى ذلك قلة المعاصر بدمشق و خصوصا اعتقاد الزراع بأنه بقدر ما تطول المدة بين قطف الزيتون و عصره تزداد نسبة الزيت المتحصل بالعصر. و اعتقادهم هذا صحيح إلا أن زيادة نسبة الزيت لا توازى هبوط سعره المنبعث عن رداءة طعمه.

و يتوقف استخراج الزيت على الأعمال الآتية: (أولا) سحق الزيتون بأسطوانة من حجر يديرها بغل داخل وعاء مستدير من حجر. (ثانيا) كبس الزيتون المسحوق لتفريق الزيت عن الثفل و ذلك بمكبس عادى أو مكبس مائى.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۹۱

(ثالثا) تفريق الزيت عن الماء و العناصر الأجنبية المختلطة به و ذلك بترك العصير يروق فيفترق الزيت الصافى لأنه يطفو على وجه العصير. أما الثفل فهو يسحق و يكبس فيخرج منه زيت أسود يسميه الدمشقيون زيت الجفت يستعمل فى صنع الصابون.

و فى الشام اليوم أكثر من ۴۰۰ مكبس منها نحو ۲۰۰ مكبس مائى، و يستدل من عدد المكابس على عدد المعاصر، و إذا استثنينا فلسطين و شرقى الأردن فإن متوسط ما يستخرج من الزيت فى باقى أنحاء الشام يقدر بنحو ۵۰۰، ۱۰ طن نصفها اليوم فى لبنان.

السمن- هو المادة التى يطبخ بها الشاميون أكثر أغذيتهم على العكس من الفرنج فهم يطبخونها بالزبدة و لا يعرفون السمن، و يصنع السمن بمخض اللبن فى مماخض من جلد الغنم، تعلق بحبلين يشدان إلى دعائم و يدوم المخض نحو ساعتين و نصف فيلتصق السمن بداخل الممخضة و يقشط بعد تفريغ اللبن. و يقدر أنه يحصل أربعة أرطال من السمن من مائة رطل من اللبن. و السمن من صناعات البدو، و أجود السمون ما يصنعه عشيرة الحديديين بلبن الضأن.

العرق و الخمر- العرق ألذ المسكرات و أرجحها لدى الشاميين، و يصنع منه ما لا يقل عن ۰۰۰، ۱۵ هيكتوليتر فى كل سنة فى دمشق و النبك و حمص و زحلة و كثير من قرى فلسطين و لبنان و وادى التيم. يوضع عصير العنب فى دنان عظيمة حتى إذا اختمر يضاف إليه الأنيسون بحيث يكون حظ كل مائة كيلو غرام من العصير ثلاثمائة غرام من الأنيسون، و بعدها يقطر العرق بالانبيق فيكون مقداره ربع العصير تقريبا، و إذا أريد الحصول على عرق نسبة الكحول فيه أكبر (عرق مثلث) يعمد إلى العرق الأول فيضاف إليه مقدار من الأنيسون و يقطر منه عرق ثقيل.

و ليس شرب الخمر شائعا فى الشام شيوعه فى أوربا حيث يقوم مقام الماء أثناء الطعام. و أكبر المعامل لصنع الخمرة هو معمل ريشون فى عيون قارة فى فلسطين و هو معدود من أكبر معامل العالم و يشحن نبيذه إلى مصر و العراق و إلى أوربا و لا يستهلك من نبيذه فى الشام إلا مقدار قليل، و يليه معمل كسارة و معمل شتورة فى البقاع.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۹۲

النشاء- يصنع فى الشام لا سيما فى دمشق و حلب مقدار من النشاء لاستهلاكه و قاعات النشاء فى دمشق معروفة، و هو يستخرج فيها من الحنطة على طريقة قديمة بسيطة لا شأن للآلات الحديثة فيها. تنقع الحنطة فى الماء نحو عشرة أيام ثم تسحق بحجر الرحى و تمرس بضع مرات بالماء حتى يخالط النشاء الماء و بعدها يترك المائع فيرسب النشاء فى قعر الوعاء، و يحسب أن القنطار من الحنطة يعطى ۶۵- ۷۰ رطلا من النشاء بهذه الطريقة، أما الثفل فتعلفه الجمال.

المطاحن- كانت مطاحن الشام إلى عهد قريب عبارة عن أحجار رحى يديرها الماء بقوة انحداره، أما اليوم فيشاهد المرء عشرات من

المطاحن البخاریـة فی الأماکن التی لا ماء فیها عـدا بضع مطاحن علی آخر طراز من الفن أی إن أرحیتها أسـطوانات تـدار بالکهرباء و هی فی دمشق و حیفا و یافا.

الجبن و القشـطة- تعزل القشـطة عن الحلیب فتؤکل وحدها و تضاف إلی بعض الحلواء، و تصـنع جبنة لا لذة لها بالحلیب الذی فرزت قشـطته، و أشهر أنواع الجبن المصنوع فی الشام الأبیض و الحالوم الحلبی، و قد أخذ الشامیون یصنعون جبن البلقان المسمی قشقوان و لم یتوصـلوا إلی تخمیره کمـا فی مواطنه الأصـلیة و جمیع أنواع الجبن المـذکورة بعیـدة عن أن تساوی أنواع الجبن الأوربیـة بلـذتها و تعدد أنواعها.

زراعة الشام من الوجهتین المالیة و الاقتصادیة:

نذکر فی هذا البحث أقسام الأرض و الضرائب الزراعیة و طرائق استثمار الأرض و إقراض الزراع.

أقسام الأرض- تقسم الأرض فی الشام من الوجهـة القانونیة إلی خمسة أقسام و هی الأرض المملوکة و الأمیریة و الموقوفة و المتروکة و الموات، و لکـل قسم من هـذه الأقسـام نظـام خـاص فی دفع الضـرائب الزراعیـة. فالأـرض المملوکـة هی التی یملکها صاحبها ملکا صحیحا تاما بحیث یسـتطیع وقفها و عدم زرعها مدة طویلة، و مثالها الحدائق المتصـلة بالبیوت و ما یسـمی الأرض العشـریة و الخراجیة (بعض بساتین محیطـة بمدینة دمشق الخ). و الأرض الأمیریة هی التی یعود تملکها (رقبتها) لبیت المال، و هو یخول الأهلین اسـتثمارها أی حق التصرف بها بصک یسمی

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۹۳

«سـند التصـرف». و معظم الأرض فی الشام من هذا القسم. و لیس من فرق کبیر فی الأمور الجوهریة بین المتصرف بالأرض الأمیریة و بین مالک الأرض المملوکة، لأن الأول و إن لم یملک الأرض قانونیا فإن له سـلطة کافیة فی استثمارها و النزول عنها حسب إرادته، و هی تنتقل لورثته بعد وفاته، إلا أنه لا یسـتطیع وقفها إلا بإذن و هو إن لم یسـتثمرها ثلاث سـنین بلا عذر مقبول یضـطر إلی دفع قیمتها علی شـکل معلوم، حتی إذا اسـتنکف من الدفع عدت الأرض محلولة و وجب بیعها بالمزاد العلنی. و ثمة فرق بین الأرض المملوکة و الأـرض الأمیریـة، و هو أن للورثـاء من الدرجـة الواحـدة حصـصا یتسـاوی فیهـا الـذکر و الأـنثی فی الأـرض الأمیریـة، أمـا فی الأرض المملوکـة فللـذکر مثل حظ الأنثیین. و لا یسـمح للمتصـرف بالأرض الأمیریة أن یوصـی بها بعد مماته و علی العکس فی رب الأرض المملوکـة. و الأـرض الموقوفـة هی التی حبست فی سبیـل البر و لیس من شأننـا البحث فیها، و الأرض المتروکـة هی التی ترکت للنفع العام کالطرق و الساحات و البیادر و المحتطبات و مراعی القری. و هی لا یملکها أحـد و رقبتها لبیت المال و التصـرف بها للجماعة. و الأرض الموات هی الأرض البعیـدة عن العمران التی لا یتصـرف بها أحـد. و الحکومة تعطی رخصا بإحیاء الأرض الموات فبالتصـرف بها علی شروط موضحة فی قانون الأرض.

الضرائب الزراعیة:

علی الأرض الأمیریـة فی یومنا هذا نوعان من الضـرائب، ضـریبة تابعة لقانون ۷ رمضان سنة (۱۲۷۴ ه) و قـدرها ۴ فی الأـلف من ثمن الأرض، و ضـریبة أعظم شأنا و أکبر تأثیرا فی الزراعة و هی العشر أی استیفاء عشرة فی المائة من محاصیل الأرض غیر الصافیة یضاف إلیها اثنان و نصف باسم المعارف و المصـرف الزراعی أما الأرض المملوکـة (و هی کما قلنا قلیلة فی الشام إلا فی لبنان الصـغیر حیث کل الأرض تعد مملوکة) فصاحبها لا یدفع العشر من غلاتها بل یدفع عشرة فی الألف من ثمنها فی کل سنة.

و العشر من المصائب المزمنة فی هذا القطر لأن ۵۰، ۱۲ فی المئة من المنتوجات

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۹۴

غیر الصافیة هی نسبة کبیرة فی ذاتها، و لأنه یصعب جدا تخمین الغلات علی وجه الضبط لأخذ هذا المقدار منها. فقد حارت حکومات الشام فی طریقة استیفاء العشر أو ثمنه و لا تزال حائرة، لأنها إذا خمنت الغلات تخمینا فقد یضل المخمنون أو یتعمدون الخطأ أحیانا فیظلم الفلاح إذا جاء التخمین زائدا عن الحقیقة، و إلا فیخسر بیت المال. و إذا باعت العشر بالمزاودة العلنیة من ملتزمین فهم لا یقدمون علی سوی قری الفلاحین فیظلمونهم بطرق شتی دون أن یجسروا علی المزاودة فی عشر قری الوجهاء، فیکون الضرر مزدوجا علی الفلاح و علی بیت المال معا. و قد رأت الحکومة أخیرا أن تعمد إلی معدل عشر أربع سنین ماضیة فتقره و تستوفی ضریبة محدودة مساویة له سواء زرع الفلاحون الأرض أو لم یزرعوها. و هذه الطریقة فی استیفاء العشر و إن کانت أصلح من الطریقتین السالفتین إلا أنها لیست عادلة إذا قلّ المطر فی إحدی المناطق بعض السنین هذا عدا أن أساسها فاسد، لأن متوسط عشر سنین أربع فی قری الفلاحین یکون قریبا من العشر الحقیقی غالبا. أما فی قری الوجهاء فیکون أنقص لأن الأعیان لا یدعون الحکومة تصل إلی حقها.

و الخلاصة أن مسألة العشر فی الشام من أعقد المسائل و کثیرا ما اقترح أرباب الفلاحة علی الحکومة أن تمسح الأرض کما فی بلاد الفرنج و تضع علی الأرض و ما تنتجه ضریبة واحدة لا تتبدل تخلصا من العشر کما یجری العمل به فی أرض مصر. و إن هذا الاقتراح فی غیر محله أو هو مما یتعذر اتباعه فی کل أنحاء الشام علی السواء، لأن الأمطار فی الشام متفاوتة التهطال. فقد یهطل فی سنة ثلاثة أضعاف ما یهطل فی السنة التالیة، لا سیما فی سهول الشام الشرقیة، و لهذا یختلف محصول الأرض اختلافا عظیما کل سنة. و قد تمحل منطقة واسعة فی إحدی السنین و لذلک لا یجوز أن یستوفی منها فی تلک السنة ضریبة کالتی تستوفی فی سنی الخصب. أما إذا کانت الأرض تسقی بماء نهر أو قناة فعندها یمکن وضع ضریبة ثابتة علیها کما فی الغوطة مثلا.

طرائق استثمار الأرض:

إذا قلنا إن أکثر من ستین فی المائة من سکان الشام یعملون فی الفلاحة رأسا

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۹۵

أو بالواسطة فلا نکون مغالین فی قولنا لأن سکان المدن الکبیرة و المتوسطة و إن کان عددهم یقرب من نصف مجموع السکان فی الشام فکثیر منهم لا عمل له غیر الفلاحة. و یتصرف الشامیون الیوم بالأرض علی نسبة غیر عادلة، و معنی هذا أن أرباب الوجاهة و الثروة علی قلتهم یتصرفون بمساحات واسعة جدا فی کثیر من المناطق، بینا الفلاح یعمل فی الأرض دون أن یکون له فی تملکها نصیب ففی أطراف حماة مثلا ۱۲۴ قریة منها ثمانون فی المائة لأرباب الوجاهة من عیال لا تتجاوز عدد الأصابع، و الباقی و هو عشرون فی المائة یتصرف به الفلاحون و رجال الطبقة المتوسطة من الشعب. و فی أرجاء حمص ۱۷۶ قریة منها ثمانون فی المائة للوجهاء دون غیرهم و عشرون فی المائة مشاع بین هؤلاء الوجهاء و الفلاحین إلا بضع قری لم تمتد إلیها أیدی المتغلبین فلبثت للفلاحین وحدهم. و هکذا قل عن کثیر من مناطق الشام کقری معرة النعمان و غیرها فی حلب. و لیست الحالة کذلک فی حوران حیث تری ۹۵ فی المائة من الأرض موزعة بین سکانه علی نسبة عادلة، و کلهم أرباب فلاحة و کذا فی جبل حوران و عجلون و البلقاء و الکرک و وادی التیم و إقلیم البلان، و ما من بیت من بیوت دمشق الکبیرة إلا و یملک مساحات واسعة فی الغوطة بل نصف الأرض فیها بید متوسطی الزراع و الربع بید صغارهم و الربع الأخیر یخص أرباب الوجاهة بدمشق.

و بعد، فقد کان السلطان عبد الحمید العثمانی من أقدر السلاطین علی تملک الأرضین و جمع الثروة، فقد تملک لشخصه شرقیّ حمص و سلمیة نحو ملیون هکتار من الأرض تشتمل علی جبل البلعاس و الشومریة و تمتد إلی مقربة من تدمر، و عمّر فیها نحو مائة و عشرین قریة و مزرعة تستثمر نحو مائة ألف هکتار. و تملّک فی أنحاء حلب نحو ۵۰۰،۰۰۰ هکتار فیها الیوم ۵۶۷ قریة و مزرعة عامرة حوالی منبج و الباب و علی الشاطیء الغربی من الفرات من مصب الساجور إلی مسکنة و یشمل معظم جبل الحاص و مساحات واسعة

جنوبی حلب عنـد مصب نهر قویق و اقتنی أیضـا سـبع قری فی حوران منها قریـة المسـمیة کما اقتنی بیسان و بضع قری بالقرب منها. و کان یوطـد الأمن فی هـذه المملکـة الخاصـة الواسـعة و یعفی الزراع المسـتأجرین من الجندیـة و یحمیهم من تعـدی أرباب الوجاهة و یسلفهم المال بلا ربا

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۹۶

حتی عمرت تلـک الأنحاء بعـد أن کانت منازل للعربان یعیثون فیها فسادا. و لما حصل الانقلاب العثمانی سـنة (۱۹۰۸) اضطر السلطان المشار إلیه إلی التنازل عن هـذه المعمورات إلی بیت المال، فأصـبحت ملکا له و أصـبح فلاحوها مسـتأجرین لدی المالک الجدید، و هو بیت المال أو الحکومة. و یدفع الفلاحون إلی الحکومة عشرین فی المائة من المستغلات فی بعض الأماکن و ۵۰، ۲۲ فی المائة فی أمـاکن أخری (عشـر و أجرة أرض معـا). و هم و إن کـانوا مسـتأجرین لاـ یملکون الأرض رسـمیا فهم یتوارثونها کأنهم مالکون لها و الحکومـة لاـ تخرج فلاحـا من قریته إلاـ إذا أتی عملاـ منکرا من إحـداث فتنـة أو التمادی علی الإضـرار بالناس. و لما کانت الحکومة تسـلف هؤلاـء الفلاـحین أموالاـ بلا ربا و کانت تسـتوفی من غلات الأرض نسـبة أقل منها فی قری الوجهاء، رجحت حالـة الفلاح فی أملاک الدولة من کل وجه علی حالة الفلاح المسکین الذی یستعبده المتغلبون فی قراهم.

و مع هـذا اقترح علی الحکومـة منذ نحو سـنتین أن تبیع هذه الأملاک من الفلاحین أنفسـهم دون سواهم علی أن یدفعوا الثمن أقساطا خلال خمس عشـرة سـنة، و علی أن یضـمن عدم مد المتغلبة أیدیهم لهذه الأرضین، فأقرت الحکومة البیع مبدئیا. و قد أثبتت لنا الأیام أنه لا یستطیع أن یزید فی غلات الأرض سوی الذین یملکون فیها مساحات متوسطة أو صغیرة.

و لنرجع إلی طریق اسـتثمار الأرض المتبعـة الیوم فی الشام فنقول: إذا اسـتثنینا الغوطة و المرج و بعض ما یسـقی و ما حوالی المدن من المزارع، حیث یسـتغل بعض أرباب الزراعة أرضهم مباشرة و یدفعون إلی الفلاحین المشتغلین بها أجورا مقطوعة سنویة أو شهریة، فإن الأرض فی سائر الأنحاء تستغل علی طریق المزارعة بشرائط مختلفة (بالقسم). ففی حمص و حماة یأخذ صاحب الأرض ربع المحصول فیـدفع منه العشـر و تبقی الثلاثـة الأربـاع للفلاـح. و فی هـذه الحـال یلزم الفلاـح بجمیع النفقات و الأعمال، و لکن صاحب الأرض قد یقرضه البذار بربا فی الغالب علی أن یسـتوفیها من البیدر. و یأخذ أصحاب الأرض ربع المحاصیل فی بعض قری حوران و یدفعون منه العشـر و ضـریبة الأـرض و یکون الباقی للفلاح مقابل النفقات و الأتعاب. لکن الطریقـة الشائعـة فی حوران هی إیجار الأرض بمقـدار معلوم من الحب کأن تؤجر (الربعة) بنحو ۵۰- ۶۰ مدا

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۹۷

من الحنطة، و لما کان یزرع فی الربعة أرض تستوعب ۵۰- ۶۰ مدا من البذار، فإذا أغل المد أربعة أمثاله أو خمسة أمثاله تکون الأجرة التی استوفاها صاحب الأرض معادلة لربع المحصول أو خمسه.

و کلما کانت القریـة فی منطقـة سـکانها کثار و أرضـها ضـیقة، یزداد المقـدار الذی یسـتوفیه صاحب الأرض من المحصول و العکس بالعکس. ففی البقاع مثلا یأخذ صاحب الأرض نصف المحصول و یؤدی العشر منه إلی الحکومة.

و فی الحولـة حیث الأـرض تروی تکون حصـة صاحب الأرض ثلث المحصول و یکون عشـر المحصول علیه. أما فی الغوطـة و المرج فحصة صاحب الأرض الثلث لکنه لا یدفع إلی الحکومة سوی عشر هذا الثلث، و علی الفلاح أن یدفع العشر عن ثلثیه.

هـذه بعض طرائق اسـتثمار الأرض و تعود فیها جمیع النفقات و الأتعاب علی الفلاح. أما إذا أحب صاحب الأرض أن یکون رأس مال الاسـتثمار منه فالفلاح الـذی یشـتغل فی أرضه یسـمی (مرابعا) و هو مطالب بأعمال فـدان من البقر (زرع نحو ثمانیة هکتارات حبوبا و تجهیز مثلها للسنة القادمة). و یأخذ ربع المحصول أو خمسه بعد رفع العشر من المجموع فی الغالب

إقراض الزراع:

يعوز الفلاحين فى الشام النقود الكافية لاستثمار أرضهم على مقتضى قواعد الفن. و هم كثيرا ما يستدينون المال من المرابين بفوائد فاحشة لا يبعد أن تبلغ ۱۰۰ فى المئة أحيانا. و لهذا ترى غلة أرضهم تكاد لا تكفيهم للإنفاق على حاجياتهم الضرورية و قلما ترى فلاحا فى سعة، يكدحون كلهم طول السنة لتحصيل بلغة من القوت، و سبب ذلك ضيق ذات يد الفلاح، فهو لا يستطيع أن يحرث الأرض حرثا عميقا بأبقاره الصغيرة المهزولة التى لا تعلف غير التبن، و لا يستطيع أن يبتاع آلات زراعية حديثة أو أسمدة معدنية، و يستحيل عليه أن يخزن محصوله بقصد بيعه عندما يغلو ثمنه، لأنه فى حاجة دائمة إلى المال. و السعيد من الفلاحين من لم يثقل الدين كاهله و من كان مفلتا من براثن المتغلبين و المرابين.

اتضح للحكومة العثمانية أن الأكارين و أصحاب الأرض فى حاجة كبيرة

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۹۸

إلى مصرف زراعى يقرضهم المال بفائدة محدودة إلى مدة طويلة فأسست المصرف الزراعى و جمعت له رأس مال صغير بأن أضافت إلى العشر الذى تستوفيه من حاصلات الأرض ۵۰، ۰ فى المئة من الريع باسم هذا المصرف، و أنشأت له فروعا فى الأطراف و سنت له قانونا محكما بعد درس و اختبار فأقبل الفلاحون عليه أيما إقبال. و لما كان رأس ماله قليلا فقد لبثت فائدته محدودة، فعسى أن تهتم الحكومة الحاضرة بتزييد رأس ماله و هو من أنفع أعمالها و لعلها لا تسمح لبراثن الأجنبى أن يناله أذاها.

الخلاصة:

الشام فقير جدا بمعادنه المفيدة من الوجهة الاقتصادية. و معناه أن عدد هذه المعادن و إن كان عظيما و كذا أنواعها فهى لا كبير فائدة منها اللهم إلا- معدن الحمر فى حاصبيا. و الأرجاء التى ليس فيها معادن ذات شأن (لا سيما الفحم الحجرى الخالص لا اللينيت) لا يمكن أن يكون فيها صناعات كبيرة. و لهذا لا نرى فى الشام إلا صناعات يدوية كنسج الملبوسات الأهلية فى دمشق و حمص و حماة و كالمصنوعات الخشبية و النحاسية و غيرها. فالشام إذن لا يمكن أن يكون له عظيم شأن فى المعادن و الصناعة، و ليس له اليوم شأن يذكر فى التجارة لكن له مستقبل حسن فى قضية الاتجار بالسيارات مع العراق و بلاد العجم عن طريق بادية الشام. و نستنتج من بحثنا عن الفلاحة أن لها فى الشام شأنا غير شأن الصناعة و التجارة. فإذا أحصينا بالمكس مثلا أنواع الأشياء الأهلية التى تصدر من الشام إلى البلدان الأجنبية نجد أن أكثر من ۹۰ فى المئة من هذه الصادرات هى غلات أو مصنوعات زراعية نباتية أو حيوانية. ثم إذا أمعنا النظر فى أنواع واردات الحكومة فى الشام نرى أن نحو ۵۰ فى المئة منها هى واردات زراعية مثل عشر المستغلات و الضريبة على الأرض و الماشية و واردات أملاك الدولة و واردات الحراج و غيرها. فزراعة القطر الشامى إذن و إن كانت لا تساوى زراعة الأقطار الغزيرة الأمطار أو التى منحتها الطبيعة أنهارا كبيرة هى الركن الأعظم فى حياة هذا القطر الاقتصادية ا ه.

خطط الشام، ج۴، ص: ۱۹۹

الصناعات الشامية

مواد الصناعات:

تتوقف الصناعات فى بلد على وجود الموارد الأولية فيه، و كان ذلك فى القديم أقوى عامل فى قيام الصناعات، و المواد الأولية فى الشام على حصة موفورة لا ينقصها اليوم إلا الفحم الحجرى و بعض الأصباغ. و كانت الشام منذ عرف تاريخها مشهورة بصناعاتها لتوفر موادها المستخرجة من سطح أرضها و بطنها.

و تسلسلت الثقافة بها تسلسلا عجيبا فى البيوت الصناعية، و كانت الأمة الخالفة تأخذ عن الأمة السالفة هذه الثقافة و الدربة على نحو ما

يعلم الصناع أبناءهم.

و الصنائع كما قال ابن خلدون لا بدّ فيها من العلم، و إنك لتجدها فى الأمصار الصغيرة ناقصة و لا يوجد منها إلا البسيط، فإذا تزايدت حضارتها و دعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع خرجت من القوة إلى الفعل، و على نسبة رسوخ الحضارة و طول أمدها تكون جودة الصنائع فى الأمصار.

إن قطرا هو معدن الحرير و الصوف و الوبر و المرعزّى و القطن و الكتان و القنب يفيض عن حاجياتها و كمالياتها. و فيها الحديد و النحاس و القصدير و غيرها من المعادن، و تجود فى سهولها و جبالها الأخشاب على أنواعها، و تكثر فى أرجائها الحيوانات الداجنة و المفترسة، و فيها المياه الدافقة و الشلالات البديعة. إن قطرا يحوى هذه الخيرات لا يحتاج إلا إلى أيد صناع لصنعها، و عيون عوّدت النظر إلى الجميل و اقتباس النافع منه، و نفوس طبعت على حب التقليد و الاحتذاء، حتى تخرج ما به تفاخر، و تعيش من عملها عيشا غضا نضرا.

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۰۰

الغزل و الحياكة و النساجة:

كانت النساجة و الحياكة و الغزل راقية فى معظم ما عرف من أدوار الارتقاء و قلما أخرجت الشام رذالة المتاع و رديئه، بل كانت تخرج جيده و نفيسه، و كان أهلها و لا يزالون يحسنون غسلها و نفشها و مشطها و حلجها و فتلها و مشقها و حياكتها و نسجها. و اشتهر القطر منذ القديم ببزه و قماشه و ديباجه و خزه و بروده و كان للدباجين صناع الديباج و الأكسية و المسوح صناعة رابحة، و إلى اليوم لم يبرح حلاجو القطن، و منهم من يستعمل لها الآلات الإفرنجية الحديثة، و منهم من اقتصر على القوس و الندف على الطريقة القديمة فى الحلج و الغزل فى مغازل أولية تدار بالأيدى يخرجون بها كل ما يقوم بالحاجة.

أخذت معظم المدن و البلدان حظها من هذه الصناعات، فاشتهرت فى غابر الدهر مدينة أعناك فى حوران بأكسيتها الجيدة اشتهارها ببسطها، و عرفت بعلبك بثيابها المنسوبة إليها من الأحزام و المشدّات و ثوبها المعروف بالبعلبكى. و تأفقت شهرة الثياب البلعسية نسبة إلى كورة البلعاس من عمل حمص على الأرجح.

و عرفت منبج بالأكسية التى كانت تعمل فيها و تنسب إليها فيقال «الأنبجانى» و الأنبجانى كساء صوف له خمل و لا علم له و هى من أدون الثياب. و من ثيابهم الخميصة الشامية و هى برنكان أسود معلم من المرعزّى و الصوف و نحوه أو كساء أسود مربع له علمان، و قد تكرر فى الحديث الشريف ذكر الأنبجانى و الخميصة. و الخميصة قد تكون من الحرير و البرنكان و البرّكان و البرّكانى و البرنكانى الكساء الأسود و جمعه برانك.

و كان يعمل فى صفد من الثياب ما يقال له الصفدية. و تعمل الثياب الحفية نسبة لكورة الحفة غربى حلب. و كان لأهل رصافة هشام بن عبد الملك فى غربى الرقة حذق فى عمل الأكسية و كل رجل فيها غنيهم و فقيرهم يغزل الصوف و النساء ينسجن. و كانت تعمل فى الشام الأكسية المرنبانية قال ابن سيده: يقال كساء مرنبانى و مؤرنب فالمرنبانى لأنه لون الأرنب و المؤرنب ما قد خلط فى غزله وبر الأرانب، و يقال بل هو كالمرنبانى. و كانت تصنع فيها القطيفة المخملة أى ذات الخمل و هى المخمل.

و اشتهرت حمص بمصنوعاتها من ثياب و فوط و غيرها و قيل: إن حمص تتلو

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۰۱

إسكندرية مصر فيما يعمل فيها من الثياب الفائقة على اختلاف الأنواع، و حسن الأوضاع، لو لا قلة مائه، و قحولة جسمه، مع أنه يبلغ الغاية فى الثمن، و إن لم تلحق بالإسكندرية فإنها تفوق صنعاء اليمن. و قال الأدريسى فى صور: إنه يعمل فيها من الثياب البيض المحمولة إلى الآفاق، كل شىء حسن عالى الصفة و الصنعة، ثمين القيمة، و قليلا ما يصنع مثله فى سائر البلاد المحيطة بها. و كذلك

حماة و طرابلس و حلب. و لكل بلد و مدينة خاصية تحتفظ بها فى نوع من الصناعة تبرع فيها، و أهم ما كان منها فى مدينة دمشق.

فقد ذكر الإدريسى أنها كانت فى عصره جامعة لصنوف من المحاسن «و ضروب من الصناعات و أنواع من الثياب الحرير كالخز و الديباج النفيس الثمن العجيب الصنعة، و العديم المثال، الذى يحمل منها إلى كل بلد، و يتجهز به منها إلى كل الآفاق و الأمصار المصاقبة لها، و المتباعدة عنها. و مصانعها فى كل ذلك عجيبة، تضاهى ديباجتها بديع ديباجة الروم، و تقارب ثياب دستوا، و تنافس أعمال أصبهان، و تشف على أعمال طرز نيسابور، من جليل ثياب الحرير المصمتة، و بدائع ثياب تنيس، و قد احتوت طرزها على أفانين من أعمال الثياب النفيسة، و محاسن جمة، فلا يعادلها جنس و لا يقاومها مثال».

و قيل: إن اسم «الدمقس» مشتق من اسم مدينة دمشق. و نقل الشاميون إلى الأندلس صنعة الثياب المزركشة بالرسوم من الحرير و الكتان من دمشق فنسبت إليها عندهم و قالوا فى فعلهاDamasser أى عمل ثيابا على النمط الدمشقى.

قال البدرى: و من محاسن دمشق ما يصنع فيها من القماش، و هو النسج على تعداد نقوشه و ضروبه و رسومه، و منها عمل القماش الأطلس بكل جنسه و أنواعه و منها عمل القماش السابورى بجميع ألوانه و حسن لمعانه، و منها عمل القماش الهرمزى على اختلاف أشكاله، و تباين أوصاله، و منها عمل القماش الأبيض القطنى.

و كان من أنواع الثياب فى القديم ما أنسيناه و أنسينا أسماءه و منها المتيّر و المعيّن و المسيّر و المفوف و المسهم و المعمد و المعرّج و المهلهل و المكعب و المطيّر و المخيّل.

و لاشتهار دمشق بالحرائر و المنسوجات الغزلية الفائقة بوشيها و حسن طرازها، عرفت هذه الصناعات باسم المدينة فيقال لها «الداماسكو» و الداماسكو ثوب غليظ برسوم جعلت فى جسم الثوب و يتفننون فى ذلك تفننا غريبا و يعملون كل

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۰۲

ما يجمع إلى المتانة الإبداع فى الصناعة. قال ابن عربشاه: إن الحريريين فى دمشق نسجوا لتيمورلنك قباء بالحرير و الذهب ليس له درز فإذا هو شىء عجيب.

و لما نجحت الصنائع الإفرنجية- و كانت صناعة الحرائر و الطرائف تروج زمنا ثم تنحمق و تكسد- و اخترع أحد صناع الإنكليز نسيج الشيت (اليمنى) كاد يقضى على صناعاتنا هذه، لو لا رجل دمشقى اسمه عبد المجيد الأصفر من أهل هذه الصناعة، فاخترع القماش المعروف بالديما فحال دون النساجة و البوار دفعة واحدة. ثم إن رجلا- اسمه الرومانى من أهل دمشق أيضا، تفنن فى المنسوجات الحريرية تفننا عجيبا، فلما مات كادت هذه الصناعة تموت معه، و تغلبت المنسوجات الأوربية على منسوجات حلب و طرابلس و حماة و حمص و دمشق لرخص ثمنها، و كثرة تفننهم فى تلوينها، و تغيير أشكالها و طرازها، و إن كان البلى يسرع إليها، و على الرغم مما تقدم لم تنفك هذه الصناعة متماسكة أحوالها، على ما أصاب القطر من الأزمات الاقتصادية. و يزعمون أن ما يتعلق بها من الصنائع حتى تصلح و تصير أثوابا، يقرب من سبعين صنعة. تصرف مصنوعاتها فى الشام و مصر و الجزيرة، و كانت قبل الحرب العامة تصرف منها كميات وافرة فى آسيا الصغرى و الروم ايلى فلما وضعت فى العهد الأخير الحواجز الجمركية فى وجهها فى تركيا عادت إلى الكساد.

و مع هذا لا يزال بعض أهل هذه الصناعة يصنعون الديما و أنواع الحرير و الحبر و الشال البديع و الأعبئة الحريرية للنساء، ما يتفاخر سياح الإفرنج باقتنائه فى بيوتهم، و إلباس أسرهم منه فى السهريات و أوقات السمر، على حين كان الناس هنا و لا سيما فى المدن يزهدون فيها على متانتها و جمالها، لأنهم بلوا بداء التقليد يقبلون على كل ما تأتيهم به أوربا و لو كان فيه بوارهم. و أهل معامل الحرير و القطن اليوم فى المجدل من عمل غزة و بيروت و بكفيا و زوق مكايل و دير القمر و بيت شباب و الكفير و حمص و حماة و حلب و أنطاكية و دمشق، تعمل فيها الأعبئة و الكوفيات و الزنانير و الملاءات و الشراشف و الديما و الألاجة و النمارق و الأرائك و السجوف و الشفوف و اللحف و البرانس و الطيالسة و الميازر و البراقع و الأزر و الجلابيب و القطائف (المخمل).

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۰۳

و من الصناعات التی کانت الشام و ما برحت تفتخر بها صناعة الشقق الحریریة و القطنیة، و هی عبارة عن قماش محوک طوله تسعة أذرع فی عرض ذراع. و لصناعه تفنن فی نقشه و صبغه، یدل علی رسوخ قدم فی الصناعة، و ذوق جمیل فیها، و اشتهرت مدن الشام بإتقان تلک الصناعة، و منها دمشق و حلب و حمص و حماة و طرابلس، و أشهرها المسماة بالمصریة و الحامدیة و الحمویة و الحمصیة و الحلبیة. و تفصیل تلک الشقق علی الطراز العربی و هی قطنیها و حریریها علی غایة من المتانة و الجمال. و کانت قدیما لباسا عاما للأهلین فقیرهم و غنیهم رجالهم و نسائهم و قل المنفق منها الآن لاعتیاد الناس اللباس الإفرنجی، و لا تزال مع هذا لباس أکثریة الأهالی یعملون منها القفاطین (القنابیز) و تدر تلک الصناعة علیهم أرباحا و فیرة، و تصدر إلی الأناضول و مصر و الحجاز و العراق، و یعد تجار تلک الصناعة من الأغنیاء غالبا. و من الصناعات الدقیقة الصنع أیضا الشال القطنی و الحریری و الزنانیر و الشملات، و أتقنها ما عمل فی طرابلس و بیروت و حلب و دمشق، و من صناعات الشام الکوفیات الحریریة علی اختلاف ألوانها و وشیها بالقصب الفضی بنقوش و رسوم غایة فی الإبداع و سلامة الذوق و المتانة، و ما فتئت هذه الصناعات إلی الآن زاهرة رغم مزاحمة الأوربیین بکل ما عندهم من قوة تجاریة و صناعیة و تفنن و إبداع.

و من الصناعات التی کانت من متممات اللباس لکنها ضعفت للغایة صناعة المشدات المعروفة بالکمار و هی تنسج بالصوف و الغزل ذات طاقین طویلین تشد علی الخصور، و لا تزال لباس الوطنیین الذین لم یتأوربوا أی لم یتشبهوا بالأوربیین فضعفت صناعتها. و قد أحدث السادة کسم و قبانی معملا لحیاکة الحریر فی دمشق ضاهیا به ما یصنع من نوعه فی فرنسا، و کذلک أحدث السادة توفیق و کامل و سعید الکحالة معملا لصنع ثیاب الکتان و الشراشف ینافس مصنوعات أوربا، و أحدث السید أنطون مزنر فی دمشق معملا لصنع الشال الحریر غایة الغایات إتقانا و جمالا. و فی دمشق ثلاثون آلة لغسل الحریر علی الطرز الحدیث. و مما تمتاز به حماة عن سائر المدن الصناعیة نسج المآزر للنساء مما یستعملنه فی الحمام و تسمی المناشف، و ما تغطی به الفرش و یسمی الشراشف

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۰۴

و ینسج بالکتان و یوشی بالحریر من کل الألوان و هو غایة الغایات فی دقة الصنعة و المتانة یصدر إلی کثیر من جهات العالم. و تصنع حلب من هذه المآزر أنواعا کانت تضاهی بها المآزر التی ترد من العجم إلی أن بذتها و قامت مقامها.

و من المنسوجات الرائجة أیضا صناعة الأعبئة فهی من أهم الصناعات علی اختلاف أنواعها و منها الخشنة التی یلبسها الفلاحون، و حیاکتها غایة فی المتانة و لها ألوف من الأنوال فی دمشق و حمص و حلب و قری القلمون، و ذلک لتوفر مادتها الأولیة و لأنها لباس عامة الفلاحین، و یوجد أیضا ألوف الأنوال فی دمشق و قریة جرمانا و حمص و هی تصنع أعبئة من الصوف النحیف و الوبر برسم الأمراء و الکبراء و یصدر منها إلی الخارج و لا سیما إلی فارس و یبتاع الحجاج أیام الموسم من دمشق خاصة من تلک الأعبئة ألوفا و هی مشهورة بحسن صناعتها و علی غایة المتانة، مع أنها من النسج النحیف الناعم، و مما یدل علی ذوق صناعها تفننهم فی ألوانها علی اختلاف ضروبها، و فی دمشق و بیروت و لبنان و حمص و حلب من الأنوال لعمل الأعبئة من الحریر و هی علی غایة الرواء و الجمال و المتانة و فی النهایة من سلامة الذوق بوشیها و ألوانها. و تصدر إلی أوربا و أمیرکا و مصر و إیران. و مما یؤسف له الآن دخول الحریر النباتی إلی الدیار الشامیة و صنع العباءة منه مؤثرین له لرخص ثمنه مما یکون منه بعد بضع سنوات القضاء علی صناعة العباءة الحریریة فی الشام إن لم تتدارک بما یحفظ رواءها.

و اشتهرت حلب بالمنادیل الحریریة و المقصبة المعروفة بالبوشیة و فیها ۵۳ معملا کما فیها ۱۲۴ للخام و ۲۴۷ لمنسوجات الغزل و ۱۵۹ للحریر و ۱۱۷ للأغبانی أو تقلید الزنار الهندی، و صناعة الأغبانی فی دمشق رائجة کل الرواج و هی عبارة عن قطعة ثوب مربعة طولها ذراعان فی مثلهما، تعمل من الحریر الدقیق، لونها أبیض و أدکن، و تطرز بألوان الحریر الجمیلة، و بأنواع الرسوم التی قد تعجز عنها ریشة المتفننین من المصورین، و کانت تلک الصنعة مختصة أولا بالهند تصدر منها إلی أطراف العالم، و کان قلیل منها یطرز فی

حلب و يستعمل للعمائم فقط على قماش قطنى و بعض الحرير. و أما الآن فقد تناولتها أيدى جميع الشاميين الأذكياء و أكثر من يصنعها النساء يطرزن منها أثوابا

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۰۵

طول الثوب تسعة أذرع و عرضه ذراع واحد، و تعمل منها القفاطين، و هى الألبسة الوطنية فى الشام، و فيه اليوم ألوف من الآلات تصنع هذا النوع من القماش، و تسمى القطعة منه أى ما طوله ذراعان و عرضه كذلك «سلك أغبانى» و هو يستعمل فى الشام غطاء للرأس أى كوفية، و زنارا، و ملفا للأولاد الرضع، و عمامة، و يصدر منه إلى الخارج كميات وافرة، و له تجار كثار إخصائيون فى دمشق و حلب و بيروت و حماة و حمص و طرابلس و فلسطين و جميع المدن الصغيرة و يصدر إلى الهند و فارس و تركيا و الحجاز و العراق و مصر و السودان و الصين.

و اشتهرت الشهباء بصناعة الأشغال الحريرية المعمولة بالقصب و أقمشة الجوخ المعمولة بالسيم و الثياب المفصصة بالجوهر و الزبرج أى الزينة من و شى و ذهب و يقال لهذه الصناعة صنعة القصبجية و الألتونية فهى ممتازة بعمل الفضى و مشهورة بالزركشة و التطريز، و عرفت زوق مكايل بصناعة الوشى و زركشة القصب و النسيج أيضا، و اهتدى صناعها منذ تسعين سنة إلى رسم الأشكال التى يريدونها على المنوال بالمحواك، و اصطنعوا من الأثاث و الأكسية و الطنافس ما يأخذ بمجامع القلوب إتقانا، و عملوا نسائج هذا القز فأبدعوا فيه و أظهروا الصور الشمسية على النسيج فجاءت كأنها لم تمس بيد، صنعوا بها صور العظماء و الملوك و الأمراء مجسمة، فكانت من أنفس أعلاق القصور. و صناعة زركشة القصب هذه كانت راقية جدا فى دمشق، وصفها أحد سياح القرن الحادى عشر بقوله: و بباب جيرون على يسار الخارج منه حارة الذهبيين، و هى أماكن يمد فيها خيوط الذهب غلاظا أولا، ثم لا يزالون يعالجونها بالإدخال خرقا بعد خرق، و كل ثان أضيق من قبله، حتى تنتهى إلى الرقة، إلى أن تصير كالشعر ثم يطرقونها بمطارق لطيفة و صناعة محكمة، ثم يلفون ذلك المطروق على خيوط الحرير فيتركب منه القصب المعلوم و نحو ذلك عملهم للفضة ا ه.

و سمى هذه الصناعة البدرى «صناعة الذهب المسبوك و المضروب و المجرور و المرفوع و الممدود و المرصوع» و كان القوم يغالون فى لبس الأردية و الأكسية و المعاطف و السراويلات التى تعمل من هذا القصب على الجوخ و يلبسه المترفون

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۰۶

و العرس و أرباب النعيم، و بقاياها اليوم يلبسها الآذنون عند قناصل الدول و الرؤساء الروحيين.

الدباغة و صناعات الجلود:

كان للدباغة شأن مهم فى هذا القطر تعمل من الجلود الأحذية و السروج و المطارح و المقاعد و القرب و الروايا و المحافظ و المطاهر و الركوات و الإداوات و ما أشبهها، و كانت أهم معامله فى حلب و فيها اليوم ۴۰ مدبغة على الطريقة القديمة و فى حماة و دمشق و زحلة و مشغرة و الخليل. و تدبغ جلود الثعلب و بنات آوى التى تصلح للفراء فى جوار طرابلس و بيروت. و يقدرون عدد ما يدبغ من الجلود فى الشام بمليون و مائتى ألف جلد منها مليون من المعزى و الغنم.

و قد أنشأ فى دمشق السادة رومية و عمرى معملا لدبغ الجلود و عمل الشراك و الشسوع للأحذية، فجاءت مصنوعاتها كمصنوعات أوربا من كل وجه و زادت عليها رخص أثمانها، فأصبحت تباع حتى فى الغرب، و معظم معدات هذا المعمل الكبير من صنع دمشق و لم يجلب له غير أدوات قليلة، و الصناع كلهم من أرباب هذه الصناعة القدماء، و فى دمشق نحو ۳۰ دباغة على الطراز القديم و دباغات الخليل مشهورة و أشهر منها صناعة القرب فى تلك المدينة، تعمل من جلد الماعز و هى صناعة خاصة بها. و فى عكا معمل جيد للدباغة.

و صناعة الأحذية و السروج و الكنابيش و البرادع و الرباطات و الرشمات من أهم صناعات دمشق و حلب. و صناعة السروج من

الصنائع المشتركة فى الشام، و مما يعد فى جملتها لوازم الحيوانات كالعذر و الهمايين «الخراج» و البرادع «المراشح» و يعمل كل ذلك على غاية من الإتقان. و من السروج ما يصنع وجهه من الجوخ، و يطرز أحسن تطريز بالحرير و القصب. و الجلد الذى تعمل منه السروج هو غالبا من دباغة الشام.

و من صناعة السروجيين أيضا أحزمة الجلد و يسمونه «قشاطا» و جعاب رصاص البنادق و يسمونها «جنادا» و أرسان للخيل، و صناديق للسفر من الجلد و غير ذلك من الحاجيات المحلية، و يصدر ذلك إلى الداخلية فقط و هو يضاهى أعمال الأوربيين أنفسهم من ذلك النوع.

و تعمل الأحذية فى جميع المدن و منها ما تستخدم فيه الجلود الإفرنجية

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۰۷

المعروفة بلمعانها و متانتها و حذاء و الشام مشهورون منذ القدم، و أهل الرفاهية و البذخ اليوم يأتون بأحذيتهم من الغرب جاهزة و خصوصا النساء يرينها ألطف شكلا و أدق صنعة و يقبلن عليها و إن كانت أغلى قيمة و أقل متانة مما يعمل هنا.

و يلحق بصناعة الدباغة أو القرظية صناعة عمل الأوتار من المصير و المرى و هى نافقة يبعثون بها بعد تحضير قليل إلى معامل الغرب فتعمل منها أوتار الأعواد و القيثارات و غيرها.

تربية دود الحرير:

خطط الشام ؛ ج۴ ؛ ص۲۰۷

من أهم الصناعات تربية دود الحرير (الفيالج أو الشرانق) و هو عمل خاص باللبنانيين و بسكان أرجاء أنطاكية. و كانت مساحة الأراضى التى تغرس التوت الصالح لتربية دود الحرير واسعة أكثر من الآن فى أرجائنا. فقد ثبت أن عمالتى وادى التيم و البقاع كانتا كلتاهما مغروستين بشجر التوت. و اقتبس أصحاب تربية الدود فى العهد الأخير طريقة باستور فى تربية دود القز فزادوه إتقانا. و تصدر منه كميات وافرة إلى معامل ليون فى فرنسا و هناك يصلح الإصلاح المطلوب حتى يكون منه الحرير المعهود فى نسج الثياب و الطرائف. و من تربية دود الحرير يعيش عشرات الألوف من الناس فى هذه الديار. و الغالب أن مناخ لبنان و أنطاكية و ما إليها و بعض الأرجاء المعتدلة القريبة من الساحل تصلح فقط لتربيته و منذ القديم لم يحظّ الحظ سائر الأرجاء أن تشترك فى صنعه. و قد أسس فى الزبدانى فى العهد الأخير معمل لحل الحرير على الطرز الحديث و تصدر مصنوعاته إلى إيطاليا و فرنسا.

النجارة:

لم يكتف الصناع فى منجوراتهم بأخشاب الشام على كثرتها، بل أخذوا يجلبونها من قلقية و رومانيا و غيرهما، و منهم من يجلبونه من أميركا و هو الجوز الأميركانى. يعتمدون عليه و على خشب الحور و الجوز و الزيتون و الشربين و التنوب و الميس و العرعر و الدردار، و كان اعتمادهم يكثر فى القديم على الصندل و الصنوبر و السرو. و خشب السرو و الصنوبر كما قال قسطا بن لوقا

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۰۸

من أشرف الأشجار التى تستعمل أخشابها فى البناء يتخذ منها مصاريع الأبواب و الدعائم و السفن و يستعان بها فى كثير من الأمور.

ينشرون الخشب اليوم بمناشير ميكانيكية تدار بالبخار أو بالكهرباء أو بالطرق القديمة فيعمدون إلى أيدى العملة فى إحضارها، يصنعون منها مناضد و أصونة للثياب و إطارات و مقاعد و كراسى و مغاسل و صناديق و توابيت و رحالا و ألواحا لدرس الغلة و أعواد الطرب. و هذه الصناعة صناعة الأعواد قديمة جدا فى دمشق و دخلت حلب منذ نحو سبعين سنة. و قد اشتهرت دمشق بصناديقها التى كانت تعمل من خشب الجوز و تبقى القرون لا تتشقق و لا يسرع إليها البلى و لا تتأكل، و عليها من النقوش ما يدل على ذوق جميل،

كما اشتهرت إلى اليوم بمصنوعاتها الخشبية. و فى حلب معملان للنجارة بأنواعها، و كذلك مدينة بيروت فإن معامل هاته المدن الثلاث كادت تستأثر بتجهيز الدور و القصور و الفنادق و منها ما لا تقل جودته عن أدق ما يعمل من نوعه فى الغرب مع الرخص و الجودة و المتانة.

و إن ما يسمى بالحلقات فى القصور و القاعات القديمة دليل كاف على رقى فن النجارة. فإن القصر أو القاعة يبلغ طوله على الاعتدال ستة أمتار فى مثلها عرضا و ارتفاعه أيضا يتسامى إلى الستة أمتار، فجهاتها الأربع و سقفها مما يشهد للمتقدمين من النجارين بسلامة الذوق و إتقان الصنع، و يباع منجور بعض هذه القصور إذا كانت سليمة من الأوربيين بأثمان باهظة، و هو عبارة عن أخشاب فقط. و صناعة الدهان المدهون به ذلك الخشب هو من أبرع الصناعات يشهد بذلك من له أقل إلمام أو ذوق من الناظرين فى المحلات الخصوصية عدا ما كان من نوعه فى المساجد و غيرها من المحال العامة و كله يشهد للمتقدمين من النجارين الشاميين بالبراعة و الحذق. و النجارون فى الشام اليوم من أشهر نجارى العالم باعتنائهم بصنعتهم، و النجار بطبيعته ينبغى له أن يكون ذكيا، لما يقتضى لصنعته من الإلمام بالهندسة و المساحة و ضبط المقاييس و الحساب و أن يكون على جانب من سلامة الذوق فى الوضع و الصنع. فالنجار الذى يخلو من هذه الصفات لا يحق له أن يصير نجارا. إن هذا النجار الشامى الموصوف آنفا يعمل بيده و تدل عليه آثاره فى البناء الخشبى فى دور دمشق و حلب و غيرهما

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۰۹

و ما يسمونه الصلب و غيره من أبواب و نوافذ غاية فى الإتقان. و من صنع النجارين أيضا قديما الصناديق الخشبية و منها ما هو مغشى بالصدف و منه ما يسمونه بالحفر. و منذ نحو أربعين سنة دخلت بيروت و دمشق آلات النجارة الحديثة التى تدار بالكهرباء فاستطاع مديرو المعامل أن يقاولوا على بنايات كبيرة لصنع أبوابها و نوافذها بغاية السرعة.

و ظهرت صناعة جديدة على الطراز الغربى تسمى صناعة (الموبيليا) أى فرش الدور و تنضيدها و يتناول اسم الموبيليا جميع أنواع الخزائن و المغاسل و المقاعد الخشبية المغلفة بالنسيج الحريرى و لوازم غرف النوم و غرف الطعام و غرف الاستقبال، و كل ذلك يصنع فى دمشق و حلب و طرابلس و بيروت، و هى تضاهى المصنوعات الأوربية جمالا و إتقانا و متانة، و تعد هذه المعامل بالمئات، و مما يدل على الذكاء فى الصناعة أن تلميذات المدارس الصغيرات يشتغلن اليوم من جملة الأشغال اليدوية على اختلاف أنواعها و أوضاعها ما تقر به العيون و يبشر بمستقبل مجيد. و قلما تجد واحدة من النساء إلا و تجيد أكثر من صنعة يدوية.

و من الصناعات التى تمتاز بها دمشق خاصة، صناعة خشبية تسمى اليوم بالمصرى، و هى بواقى خشب الجوز اليابس تفصل بحسب المطلوب، و تصقل صقلا تاما، و يرسم عليها بالقلم عروق غاية فى الإبداع، و يحفر على حسب رسم القلم، و ينزل به الغراء و فوقه الصدف. و تقسم قسمين فما كان دقيق الرسم يسمى بالمصرى، و ما كان رسم عرقه ظاهرا كل الظهور يسمى فى عرف الصناع بالعرق. و يصنعون منه أنواعا، فمنها ما يسمى «بالجاردينيه» و هى أثاثة يوضع فيها قحف زهور صناعية، بعرض مترين أو ثلاثة أذرع، و يجعل فوقها إطار من تلك الصناعة النفيسة طوله متران و عرضه متر. و فى داخل ذلك الإطار مرآة و بجانبه من الطرفين جناحان لطيفان لهما رفوف توضع عليها التحف المنوعة، و فوقها تاج على علو متر أيضا. و كل ذلك محلى بتلك الصناعة الصدفية يتخلله صباغ أسود قليل يزيد فى لمعان الصدف.

و يصنع من تلك الصناعة أشكال و أنواع متعددة منها الأصونة خزائن (۴- ۱۴)

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۱۰

الثياب و منها ما يسمى بالعرف بالبيرو (مكتب) و هو عبارة عن أربعة دروج كبيرة فوقها درجان صغيران و يصنع منه إطار للمرآة، و إطارات للصور و مناضد، و جميع ما يصنع من الخشب البسيط. و منذ خمسين أو ستين سنة كثر طلب هذا الصنف إلى أوربا. و لكن الحكومة و البلدية لم تأخذا تلك الصناعة تحت رعايتهما فكثر الغش فيها، و صارت إلى البوار و انقطع عنها الطلب إلى الخارج بتاتا،

و هی لا- تروج الآن إلا- فی دمشق و ضواحیها تقریبا، و لو عنیت البلدیة بمراقبة صناعها، و جعلت لهم رئیسا مسؤولا لدرت تلک الصناعة علی دمشق أرباحا هائلة و لأصبحت أجرة الصانع یومیا نصف دینار و راجت فی أقطار العالم أجمع لجمالها و دقة صنعها.

و من أهم معامل النجارة و الفرش معامل الیاس جرجی السیوفی فی بیروت زرتها فی سنة (۱۳۳۰ ه ۱۹۱۲ م) و مما قلته فیها: رأیت صورة مصغرة من صورة الغرب فی الشرق، و تمثل لی فضل الذکاء العربی، و أنه و إن لم یفق الغربی فلیس دونه، و أن ید أبنائنا صناع فی الأعمال لا یفوقها ابن فرنسا و إیطالیا و إنکلترا و ألمانیا و سویسرا و بلجیکا إلا بأن الإفرنج یرجعون إلی أسالیب فی العمل تنقصنا، أو تکاد فی أکثر الأصقاع لا تجد لها أثرا بیننا، و هی ترجع إلی أسباب رئیسة مهمة، أولها الصبر علی العمل، و ثانیها تجوید العمل، و ثالثها القدر اللازم للعمل من المال و المعرفة، و رابعها الاقتصاد فی الوقت و الأیدی العاملة، و خامسها تنشیط الأهلین و الحکومات للمصنوعات الوطنیة و حمایة التجارة الداخلیة بقوانین تنفذ علی الصادر و الوارد، و سادسها وجود المواد الأولیة التی یمکن بها الاستغناء عن المواد الخارجیة فی الجملة.

دلت معامل السیوفی علی أن الشرقی بمفرده أمة، و أن الأمة بمجموعها ضعیفة، بمعنی أن الشرقی یعمل مفردا أحسن من عمله مجتمعا، و ذلک لفقد التربیة المشترکة بین المشارقة یرجعون إلیها و تضم عراهم. فلو کان معمل الغزل فی دمشق لفرد واحد منذ إنشائه له خیره و علیه شره، لما اضمحل هذا الاضمحلال الذی نراه علیه، و لو کانت معامل السیوفی فی بیروت لشرکة لما رأینا فیها هذا النظام و النجاح، و بذلک صح لنا إثبات ما قدمناه من أن الشرقی أمة بمفرده و الأمة ضعیفة بمجموعها، و أن لا سبیل إلی قیام الأعمال الکبری

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۱۱

و أن نقدر لها النجاح المطلوب إلا إذا اتحدت مناحینا و تعلمنا تعلیما وطنیا اقتصادیا واحدا.

علی هضبة من هضاب بیروت الجمیلة فی حی الأشرفیة، فی مکان بعید عن مرکز حرکة هذا الثغر، یطل علی سفوح لبنان و بیروت و علی البحر الرومی من أخری، قامت هذه المعامل البدیعة فی بقعة فسیحة من الأرض تدخلها فتخال نفسک فی إحدی معامل الغرب الکبری، و أول ما یبدؤک بعد الدخول من الرتاج ساعتان عن الیمین و الشمال بجانبهما صندوقان معلقان مقسومان إلی بیوت صغیرة، و فی کل بیت مقواة کتب علیها اسم أحد العملة و طبعت علیها ساعات الغدو و الغداء و الرواح، فمتی وصل العامل بعد الفجر و قبل الإشراق فی الشتاء مثلا یضع مقواته فی بیتها، فلا تلبث أن تکتب علیها ساعة مجیئه و الدقیقة التی جاء فیها بحروف عربیة، و فی آخر الیوم أو الأسبوع یرجع إلیها مدیر المعمل، و یحسب المتأخر من المتقدم، و یعدون ذلک بموجب نظام خاص لهم جروا فیه علی مثال نظام العمال فی سویسرا و البلجیک و النمسا و ألمانیا.

و من قوانین العملة فی هذه الممالک اختار مؤسس المعمل أحسن ما یلائم هذه الدیار و ینفع فی نجاح عملته و یعود علیه و علیهم بالربح و اقتصاد الوقت.

و هذه الساعة من أنفع ما یجب استخدامه فی معاملنا و مطابعنا و دواوین أعمالنا و بیوتنا التجاریة و المالیة و دوائرنا العسکریة و الملکیة لیتعلم قومنا مراعاة الوقت و التدقیق فی حسابه حتی یبارک لهم بساعات العمل و أیام الحیاة، و یتعلموا أن التدقیق فی المواعید أحد دعائم التنظیم فی فروع الأعمال، و من أهم أسالیب النجاح الذی غفل عنه معظم سکان هذه الدیار و عدوا من ینظم أوقاته و یدقق فی وعوده و استقبال خاصته و من لهم علاقة به فی ساعات محدودة متکبرا أو مهوسا.

یباکر العملة فی معامل السیوفی فی الصیف و الشتاء و الحریف و الربیع علی السواء و ینقطعون ساعة وقت الظهر ثم یعاودون العمل إلی قبیل الغروب أو إلی بعده بقلیل بحیث لا یتجاوز معدل ساعات العمل فی الیوم تسعا بخلاف عملة أوربا فإنهم یعملون فی بعض الممالک کبلجیکا مثلا زهاء اثنتی عشرة ساعة، و لکثرة الأیدی العاملة و للعادة و الإقلیم دخل کبیر فی هذا الاصطلاح.

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۱۲

و فى معامل السيوفى اليوم ۲۸۰ عاملا مع أن الأدوات التى اقتناها صاحبها تشغل ضعفى هذا العدد فيستفيدون و يفيدون.

أكثر ما يعمل فى هذه المعامل منجورات الدور الخشبية و أنواع الفرش و أثاث البيوت تعمل كما تعمل فى الغرب و تتأنق الأيدى و العيون فى تجويدها و تساعدها الأدوات التى تدار بالفحم الحجرى و تبلغ نحو الستين آلة و منها لقطع الخشب و صقله و حفره و تقويره و نقشه و تشيفه، فترى خشب الجوز و الزان من واردات الروم (الأناضول) و الاكاجو من كوبا و شوح النمسا و سنديان أميركا و الخشب البياسى من قلقية تعمل فى تلك الأدوات و تحركها تلك المحركات و الآلات كأنها العجين فى يد خبازه أو الملاط بيد البناء الحاذق.

قال لنا صاحب المعمل: إن الآلة الكبرى المحركة فى معمله هى بقوة مئة حصان تنفق فى النهار ۱۳ فرنكا من الفحم و كانت الآلات التى هى أصغر منها تصرف من قبل أكثر من ذلك، و بهذا يستدل أيضا أن نفقات المعامل الكبيرة أدنى إلى الاقتصاد و أعمالها أقرب إلى الجودة من مصنوعات المعامل الصغيرة لا- سيما و المعامل الكبرى تتجلى فيها قاعدة تقسيم الأعمال فتجد العملة فى معامل السيوفى مقسومين إلى عدة أقسام قسم الأدوات و قسم النجارة و قسم الحفر و قسم البرداخ، و للمحل رسام خاص و كلهم من أبناء العرب ليس بينهم إفرنجى. و تختلف أجرة العامل فى اليوم من ستين بارة إلى ستين قرشا و يحاسب عن أجرته كل يوم سبت من كل أسبوعين فى الشتاء و يحاسب فى الصيف كل سبت قبل الظهر ليتيسر له الخروج إن أحب إلى الجبل يصرف ليل الأحد و ليل الإثنين فيه للنزهة، و يقضى على كل عامل أن يعمل ستة أشهر تحت التجربة أولا ثم تحسم من مياومته أجرة أسبوعين تجعل فى صندوق المحل حتى لا تحدثه نفسه بالخروج من العمل كل يوم أو كل أسبوع كما يفعل بعض العملة فى المعامل و يتركون أصحابها معطلين.

و من جملة ما شهدته من النظام داخل المعمل قاعة كبرى و موائد يتناول عليها العملة طعام الظهر، و آلة تضغط النشارة عندما توضع فيها، و هى من اختراع أحد العمال هنا، و تلقى بها إلى مكان بعيد خارج بناية المعمل و من هناك يبتاعها أرباب القمامين. و مما رأيته خارج المعمل من النظام رصف الطريق الموصلة إليه على نفقة صاحب المعمل و غرس

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۱۳

بعض الأشجار على جانبيها و يبلغ طولها نحو كيلومترين.

هذا ما رأيته فى معامل السيوفى من النظام الذى لا أبالغ بأنى قلما رأيته فى معمل يرأسه شرقى، و لذلك يصفق لصاحبه لأنه بدأ به صغيرا سنة ۱۸۸۸ فى مدينة بيروت و كبره فى سنة ۱۹۰۸ فى حى الأشرفية على الصورة التى رأيناها اليوم و نفقة عمارته و أرضه و أدواته تساوى خمسة و عشرين ألف ليرة، و لكن لا يتيسر لمن معه مئة ألف ليرة أن يقيم مثله بأدواته و نظامه إذا لم تسبق له معرفة كمعرفة السيوفى و لم يقض سنين مثله فى النجارة و يحيط بما جل و قلّ من أساليب العمل و تجويده. فليت كل أعمالنا تجرى على هذا المثال من النظام البليغ و النجاح الأكيد ا ه.

و مما يصح أن يلحق بالنجارة صناعة تنزيل الخشب و تنزيل الصدف أو خشب الليمون فيه، و هذه الصناعة كانت رائجة جدا ثم عدمت و جدد شبابها صناع دمشق منذ نحو سبعين سنة حتى أصبح ما يعمل منها مما يتنافس فى اقتنائه.

و نسبت هذه الصناعة لدمشق فيقال لها بالإفرنجية (داماسكينه).

القيانة و الحدادة و النحاسة:

كانت العرب تطرق المعادن فى دمشق بإتقان أكثر من إتقان الغرب على ما قال ميشو، و اشتهرت كثير من مدن الشام بهذه الصناعة منذ عرف تاريخ القيانة أو القردحة أى صناعة عمل السلاح. و ذلك لأن الحديد كان يكثر فى الجبال و لا سيما فى لبنان و حلب. و قد اشتهرت فى الجاهلية سيوف مشارف الشام فى أقصى تخوم الجنوب، و كانت تطبع بها السيوف و تنسب إليها فيقال السيوف المشرفية، و كانت حاضرة المشارف مدينة مؤتة قال كثير:

إذا الناس ساموكم من الأمر خطةلها خطة فيها السهام الممثل

أبى اللّه للشم الأنوف كأنهمصوارم يجلوها بمؤتة صيقل

و الصيقل هو الذى يجلو السيوف. و نسبت السيوف إلى دياف و إلى بصرى و كلتاهما فى أرض حوران فيقولون السيوف البصرية قال الحصين بن الحمام المرّى:

صفائح بصرى أخلصتها قيونهاو مطردا من نسج داود محكما

و القيون جمع قين صانع السلاح. و سيوف دمشق لا تزال يفاخر بها لتفنن

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۱۴

الصياقلة فى صنعها، و قد عرفت بصفاء مائها، و اخضرار لونها، و إرهاف حدها، و لطف فرندها، و كانت تكتب عليها آيات و أشعار بماء الذهب، و كذلك على الخناجر و الرماح، عرفها الصليبيون فى القرون الوسطى و نسبوها إلى دمشق و غدوا يفاخرون بتقلدها و لا مفاخرة العرب بالسيوف اليمانية و الرماح السمهرية. و صناعة تنزيل الذهب على السيوف و الخناجر و المدى و البنادق كانت من أهم الصناعات الدمشقية و يحسب أربابها من أهل اليسار و يعدون اليوم على الأصابع و لا يسع المنصف إلا أن ينحنى إعجابا أمام جمال هذه الصناعة.

و قد نقل الفاتحون من العرب إلى الأندلس صناعة صقل السيوف و هى الصناعة التى نسبت إلى دمشق حتى اليوم فقيل لها بالإفرنجيةDamasquinage أوDamasquinerie أى تنزيل الذهب و الفضة فى الفولاذ و قد اشتق منه الفعل عندهمDamasquiner .

و كانت تعمل السيوف فى زحلة و الشوير و دومة من عمل لبنان و تعمل النبال الفائقة فى عمتا من بلاد الغور. و كانت الدروع تسرّد بيد الدارعين و الخوذ و السابرية تصنع فى دمشق خاصة. و يعمل من الحديد كل ما يلزم من الطبر و الخناجر و المرادن و المغازل و الصنارات و الأسياخ و العقافات و القيود و الزرد و المباضع و المبازغ و المشارط و الآنية، يطرق كل ذلك فى كيرة الحدادين و سنداناتهم و يضرب بمطارقهم، و كانت وافية بالغرض.

و من أهم أعمال صناعة النحاس فى دمشق حلقة باب المدرسة الخضيرية فى حى الخضيرية و كذلك الحلقتان اللتان على بابى المستشفى النورى. و الأولى من القرن الثامن و الحلقتان الأخريان من القرن السادس و هى آية الإبداع و المتانة و فى هذا البيمارستان أبواب من خشب من عصر صلاح الدين عليها مرايا المفاتيح على طرز الغرب إذ ذاك. و فى مستودع الجامع الأموى بقايا النحاس الذى كان على باب جيرون من أبواب الجامع تصور للمرء نموذجا من إتقان النحاسين و الحدادين لصناعتهم فى القديم. و فى بعض مدارس حلب حلقات قديمة من هذا القبيل تدل على مبلغ صناعها من الحذق و فيها أبواب من الحديد صنعت لبعض البيوت و المدارس القديمة آية الجمال الصناعى. و من صناعة الحديد أمثلة كثيرة مثل أبواب بعض خانات دمشق كخان الحرير و خان أسعد باشا

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۱۵

و خان الزيت و أبواب التكية السليمانية و شبابيكها. و شبابيك المدارس و الديارات و الجوامع و الكنائس القديمة و أبوابها و درفاتها فى دمشق و حلب و القدس و الناصرة و بيت لحم و لبنان و غيرها و كلها تدل على ترقى الحدادة و النحاسة دلالة عظيمة مثل أبواب القلاع كقلعة عكا و حصن الأكراد و غيرهما. و لكثرة الحديد فى أرباض حلب عمل كثير من أبواب حلب القديمة من الحديد.

و كذلك قل عن سائر صناعات الحديد و النحاس و كانت تعمل منها السرج و المصابيح و المواقد و الشمعدانات و الشبابيك و الكؤوس و الصحاف و الزهريات و المباخر و القماقم و أوعية القهوة (الدلّات) و الألبان و الطسوت و الموائد و الصوانى و الصحون و المصافى و المغارف و الملاعق و القدور، و القدر الشامية كانت مشهورة بكونها لا تنش، و السطول و المساخن و الهواوين و المدقات

و المناشير و الجرار و الحقاق و الأجراس و النعال و المسامير و المعاول و المساحي و المناجل و المطارق و الأقفال و المفاتيح و المغالق و المناصب و الملاقط و السكاكين و المدى و المقال و المواسي و المبارد و القيود و الجواشن و الدروع و الصنجات و الجرز (العمد) و الحسك و الدرابزون و المناجيق و الدبابات.

و من الصناعات النفيسة صنعة الأجراس أجراس الكنائس فإنها تصنع في بيت شباب، و استأثر بهذه الصنعة لبنان من دون أقطار الشرق الأقرب، و قد دخلت صنعتها أرضنا مع الصليبيين على الأكثر، و كانت البيع قبل ذلك تستعمل أجراسا من الخشب، و ما زالت هذه الصناعة محصورة ككثير من الصناعات في أسرة واحدة. و لما جاء حديد الغرب الرخيص السهل على التطريق كثرت أدوات الحديد و تفنن صناعه في صنعه و منهم من عمد إلى اتخاذ الأدوات الحديثة كمعامل بيروت، و منهم من اعتمد على الطرق القديمة في تطريقه، و كثير من الأدوات الزراعية كالفؤوس و القدم (جمع قدوم) و السكك الزراعية و المقاريض و أدوات السيارات تعمل في حلب و دمشق و بيروت و القدس و سائر المدن الشامية. و لا يزال الحدادون على تفننهم حتى يساووا معمولات الغرب. و الحاجة أمّ الاختراع.

و قد قامت دمشق في الحرب العامة بصنع أعمال نفيسة من حاجيات الجيش كالقدوم و المنشار و الكلّاب و اللولب و الفأس و الرفش و القدر و المركن و المرجل

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۱۶

و الدلو و البرميل و عجلة النقل و الركوب و محفة الجرحى و المرضى، كنت إذا رأيتها تظنها لجمالها و متانتها من صنع الغرب. و قد جلب كثير مما يستعمل في هذه الصناعة من حلب و لبنان و بيروت، و يستعمل فيها الحديد و النحاس و الصفيح (التنك) و توفر الجيش التركي في تلك الأيام على ملء الخراطيش و صنع القذائف و المدمرات و استجادة أحسنها طرازا و أفعلها في وقت الحاجة و إصلاح البنادق و المدافع ما دل على ذكاء ابن هذه الديار إذا علّم التعليم العملي المنظم بنظام المعامل الغربية. و لقد صنع أحد مهرة الصناعة مدة الحرب بندقية من الخشب أخف من الماوزر فنال استحسان أهل هذا الشأن في الدولة.

و يصح أن تلحق صناعة النحاسين و الصفارين بالحدادة، و كانت في القديم ذات شأن، و لم يبرح في المتاحف و البيوت القديمة في المدن و القرى نموذجات منه صبرت على ممر الأيام بحالها، و ما عمل منذ ستة أو سبعة قرون كثير جدا، و القديم أقل منه، و كان ما يصنع منه في دمشق يقال له الظاهري نسبة للملك الظاهر فيما زعموا و لا ندري أي ظاهر هو، لأنه كان من المنشطين لصناعته فنسب إليه تحببا، و ما فتئت هذه الصناعة رائجة تعمل من النحاس الثريات و المصابيح و الفوانيس و التعاليق و الجفان و الكؤوس و المباخر و القماقم و الصحاف و الصواني و الطسوت و الأباريق و الصنجات، مصنوعة من النحاس الأصفر منقوشة في العهد الحديث حروفا لا تقرأ إذ تعاور صناعتها أناس أميون على الأكثر، و كان يطرز و يرقش في القديم بكل معنى جميل. و في حلب و دمشق و زحلة و بسكنتا و بتغرين و دومة لبنان مسابك حديد، يقينون فيها الحديد قينا جيدا، و النحاس يعمل في كل بلد للآنية و امتهانات البيوت، و أجلّه ما صنعه صنعو الأيدي في دمشق و حلب. و من أوسع معامل النحاس الأصفر معمل السادة النعسان في دمشق فقد تفنن بصنع الزهريات و الكؤوس و الثريات و غيرها و السياح يتنافسون في اقتناء مصنوعاته و كثير من أرباب الثراء في مصر و أميركا و أوربا يزينون ردهاتهم بقطع منه و لا يقل العاملون و العاملات فيه عن مائتي نفس.

و صناعة النحاس المنقوش من الصناعات القديمة في الشام، و كل ما كانت تستعمله قديما في بيوتها و حوانيتها هو من صنعها، من صحاف كبيرة و صغيرة

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۱۷

و بواط على غاية من دقة الصنعة و القديم منها يباع الآن بأثمان باهظة، و بيع من مدة من أحد تجار الآثار القديمة صحنان من النحاس بسبعين ليرة عثمانية ذهبا و يشترى الأوربيون ذلك تقديرا للفن و خدمة للتاريخ، و في الشام معامل كثيرة لصنع النحاس المنقوش و له رواج عظيم و هو أنواع كثيرة منها ثريات للتعليق في قصور الملوك و العظماء تزين برسوم جميلة، و منها ما ينار بالكهرباء و منها ما

ينار بالشموع و صحاف كبيرة و صغيرة و ما يلزم للاستعمال و الزينة فى البيوت و هو أنواع. و المعقول أن يدوم تصدير هذه الأنواع و تزداد، لما فى نقوشها من الإتقان و دقة الصنعة و الاعتدال فى الأثمان.

الزجاجة:

من أهم الصناعات التى اختصت بها الشام من القديم الزجاجة؛ صناعة الزجاج.

و عدها الثعالبى من خصائص الشام و قال: إنه يضرب به المثل فى الرقة و الصفاء فيقال «أرقّ من زجاج الشام» و قال بعض الحكماء: و ارفق بالعدو كما يرفق بزجاج الشام، إلى أن تجد الفرصة فإما أن يضربه الحجر فيفضه، و إما أن تضربه بالحجر فترضه» و ربما كانت تعمل من هذا الزجاج المناظير للعيون قال أحمد بن محمد الدنيسرى القاهرى المتوفى سنة (۷۹۴).

أتى بعد الصبا شيبى و ظهرى‌رمى بعد اعتدال باعوجاج

كفى أن كان لى بصر حديدو قد صارت عيونى من زجاج

و قد اشتهرت صور منذ القديم بزجاجها، و كان الرمل الذى يعثر عليه فى جوارها يزيد الزجاج بهجة ليست له فى غيرها من البلدان. و كانت معامل الزجاج فى حلب و أرمناز مشهورة تصدر منه إلى العراق و يتباهى به فى قصور الخلفاء. و اشتهرت معامل الزجاج فى عكا إلى القرن الرابع عشر، و عرفت دمشق بزجاجها كما اشتهرت الخليل فكانت الزجاجة من صناعاتها و هى مشهورة بعمل المصابيح التى تعمل فيها اشتهارها بأساور النساء. و كان الزجاج معروفا بالدمشقى يتخذ للزخرفة و الزينة و منه الأكواب و الآنية على اختلاف ضروبها و يفهم مما وصفه به الشعراء مبلغ تفنن الزجاجين بزجاجهم. و اشتهرت الرقة بصنع الزجاج. و فى دار المتحف بدمشق مجموعة من الزجاج الملون المنقوش

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۱۸

المرقوش، و هى أثمن المجموعات التى عرفت حتى الآن من نوعها. و من أجمل النموذجات فى هذه الطرائف البديعة، و منها الأكواب و الأباريق و الجامات و السكرجات و المضخات و الأقداح و القوارير و الكيزان و البواطى و كانت معاملها فى دمشق و حلب و الرصافة و الخليل و صور و عكا على ما يظهر.

و قد انحطت هذه الصناعة حتى انحصرت فى دمشق و أرمناز و الخليل بأناس فقراء يعملون من الزجاج القنانى و البواطى العادية فقط. لأن صنع الزجاج النفيس الذى تعلمه البنادقة من معاملنا فى الحروب الصليبية و تلقنوه عن معامل صور و انتشر صنعه فى أرجاء أوربا بعد أن كانوا يستبضعونه من ديارنا قد نافس هذه الصناعة فقضى عليها أو كاد. و كانت معامل الزجاج ممتدة على طول الجامع الأموى فى دمشق رآها الرحالة بوجيبوجى سنة (۱۳۴۶ م) و بعد أن كانت معامل عكا و صور مما يضرب بمصنوعاته المثل فقدت أسرار الجمال فى هذه الصناعة. و قبيل الحرب العامة (۱۹۰۸) أنشأ فى دمشق السيد مسلم العمرى معملا لصنع الزجاج، أنفق عليه عشرين ألف ليرة عثمانية ذهبا، و جرّب عمله بواسطة صناع غربيين فجاء كالزجاج الذى يجلب من الغرب، و وافق الرمل الذى استعمل لكن المعمل لا يزال معطلا، و كانت الشركة الوطنية بنته على آخر طرز فى شرقى المدينة. و فى الحرب العامة الأخيرة قل الزجاج المجلوب من معامل الغرب فهب أرباب معامل الزجاج فى دمشق و بيروت و أخذوا يصنعون الأكواب و الصحون و الأقداح من كسرات الزجاجات القديمة فسدت بعض حاجة الناس.

الدهان:

و من الصنائع الدهان، و كانت مما تمتاز به بعلبك. قال فى مسالك الأبصار:

و يعمل فى بعلبك الدهان الفائق من الماعون و غيره، و لكن دمشق و حلب و غيرهما من المدن حيث كان للرفاهية أسواق نافقة، لم

تکن دون بعلبک فی هـذه الصـناعة، فکان یدهن الخشب و الحجر و یبقی بحاله القرون الطویلة. و من یدخل قاعة من قاعات دمشق و حلب مثلا یر الألوان زاهیة باهرة کأنها نقشت الآن، و فی دمشق الیوم قاعات و أبهاء و أواوین مضی علیها زهاء مئتی سنة و لا تزال

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۱۹

برونقها تدهشک کما یدهش الداخل إلی متاحف الآثار المصـریة من نقوش بیبان الملوک و بنی حسن و سقارة و کتاباتها و رسومها، و قد مضی علیها قرابة أربعة آلاف سنة، علی حین تنصل الألوان المستعملة لعهدنا و تکمد فی سنین قلیلة.

و السبب فی نصول الـدهان الجدیـد، و مواده تـأتی من الغرب، أن الـدهانات القدیمـة کـانت من صـنع القطر ترجع إلی أصل ثابت و یحافظ علیها من المطر و الشـمس لأن الأقـدمین لم یکونوا یعنون بفتـح الطیقان و النوافـذ و توسـیع الأبواب مثل المحـدثین، و لـذلک صبرت الأصباغ علی الأیام، زد إلی ذلک عنایتهم فی تخیر الأخشاب و أکثرها من الدف الرومی أو الجوز أو السرو و هذه مما یصعب تطرق التشقق و البلی إلیه کالکریش و الشوح و فیه مواد قطرانیة أو غیرها، و کانت لهم فی دمشق صناعة من الدهان تعمل من الحفر و التنزیـل و یقـال لهـا الأبلق و هی أن یرسم الـدهان الحجر مما یریـد من الأشـکال و النقوش و یحفرها النقاش و الحفار ثم یـدفعها إلی الدهان فیدهنها بصب الأصباغ فی الشقوق التی یریدها ثم تجلی و تصقل فیجیء صبغها کأنه من أصل الحجر ثابتا براقا، و لا یعمل منه شیء الیوم.

و فی دمشق أسـرة عرفت بأسـرة الـدهان اختصت بصـناعة الـدهان الذی یقال له العجمی کما اختصت بصـنع هذا الأبلق. و تصـنع هذه الأسـرة مناضـد و خزائن و اسـکملات بهـذا الدهان المعروف بالعجمی من النوع المقرنص تکون آیة الإبداع و حسن الذوق و یتنافس فی اقتنائها العظماء لتزیین قصورهم و تبقی السـنین الطویلـة زاهیـة زاهرة. و قد دهنت عدة قاعات فجاءت آیة الإبداع. و ذکر الغزی أن أحد شبان حلب تعلم فی أمیرکا صناعة الدهان علی الأصول الحدیثة فجاء عمله غایة فی الرونق و الإتقان. و المنتظر تعمیم هذه الصنعة علی هذا المنوال مع مراعاة المعرفة القدیمة فیها.

هـذا فی دهـان الغرف و الأبهـاء و القاعـات، و أمـا صـبغ الثیـاب و الحریر و القطن و الغزل، فکان الاعتماد فیها علی أصـباغ لهم جمیلة یعرفونهـا، ربمـا کـان أکثرهـا من ترکیبهم أو من معادن القطر. و کان للصـباغ الدمشـقی صـیت بعیـد فی الأقطار، لثبوت ألوانه و لطافة لمعانه، و کانت أصباغه معدنیة و نباتیة لا غشّ فیها فلما تغلبت الأصباغ الغربیة بطل استعمال القدیم منها بل نسی

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۲۰

أمره و اعتیض عنه بالجدید. وجودة الأصـباغ القدیمة کانت السـر فی اشـتهار الدیباج الدمشـقی قدیما حتی أوشـکت لطافته أن تجری مجری المثـل. و فی حلب الیوم نحو ۳۰ مصبغة بالنیل و ۵۶ مصـبغة للغزل و الحریر و فی دمشق مثلهـا و نحوها و کـذلک فی کل بلد بحسب حجمه و أرباضه.

و کان من أصـباغهم الأصـفران أی الزعفران و الورس، و البرفیر أو الفرفیر و هو الأرجوان (أحمر و أررق) و کان و لم یزل للنیل الذی یخرج من الحولة أو یؤتی به من الهند، شأن فی صـبغ ثیاب العملة و الفلاحین. و انحطت هذه الصـناعة تبعا لانحطاط أکثر الصـناعات، لما جاءت الأصـباغ الألمانیة الحدیثة حتی إن بعض معامل ثیاب الحریر ترسل حریرها إلی الغرب لیصبغ و یعاد إلیها، فتعمل منه الشقق و الثیاب و توشـی علی ما یشاؤون، و الوشی فی الثوب کالرقش فی القرطاس و النقش فی الحائط، و یحاولون أن تکون ألوانها ثابتة لا تنصل.

الفخارة و القیشانی:

و صـناعة الفخارین اشتهرت بها الشام أیضا و کان فی صور الخزافون المبدعون فی الأعصر القدیمة، و کذلک فی کفرطاب، و کانت تعمل فیها قدور الخزف و تجلب إلی غیرها و منها نموذجات لطیفة حفظت فی داری الآثار فی دمشق و بیروت، و کان و لا یزال یعمل

من الخزف القلل و الخوابی و الأجانات و الدوارق و أصاصی الزهور و غیرها، یصنع ذلک فی حلب و دمشق و طرابلس و بیت شباب و صیدا و بیروت و غزة و عیتا و راشیا (و یقال لهاتین البلدتین عیتا الفخار و راشیا الفخار) و صناعة الفخار علی کثرة منافسة الخزف الغربی لها لا تزال متماسکة، لأنه لا یتیسر جلب کل شیء من الخارج. و أجمل الخزف الیوم ما عمل فی حلب من الصینی الجمیل.

و من الصناعات التی کانت تجود فی دمشق و حلب من دون سائر البلدان علی ما علمنا، صناعة القیشانی التی دثرت و کانت مورد ربح، و عنوان فخر و مباهاة. ترصف بها الجدران و المحاریب و الفساقی و السلسبیلات و الباذهنجات و القماقم و الزهریات و القلل و غیر ذلک. و کان یصنع علی ما یظهر من الرمل

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۲۱

الأبیض و الجبس یجبلان معا و یفرغان فی قوالب علی الشکل المطلوب، و تکتب علی سطوحها آیات و أحادیث أو أشعار، أو ترسم علیها نقوش مختلفة بمواد ثابتة، و یذر علیها مسحوق الزجاج، أو تطلی به ممدودا بسائل غروی، و تشوی فی تنور معدّ لذلک، فیسیل الزجاج و یکسوها قشرة رقیقة تقیها من الغوائل و المؤثرات زمنا طویلا، و تظهر النقوش و الکتابات زاهیة بألوانها الطبیعیة. و فی سلسبیل جامع الدرویشیة بدمشق نموذج منه أرخ بسنة (۹۸۲)، و قطعة أخری کانت علی قبر لطفی باشا أرخت بسنة (۹۹۸) و هی محفوظة بدار الآثار بدمشق و قد کتبت علیها الآیة الکریمة کُلُّ شَیْءٍ هالِکٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُکْمُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ بخط تعلیق مشرق و فی أعلاها رحمة المولی علیه کل حین. و لا تزال فی بعض الجوامع و المدارس من هذا القیشانی العجیب نموذجات تأخذ بالأبصار.

و کان فی المسجد الأقصی مصنع للقاشانی له کامل الأدوات و ذلک فی عهد سلیمان القانونی العثمانی و هو أول من استعمل القاشانی فی زخرفة خارج قبة الصخرة، و لا تزال بعض قطعه محفوظة فی المسجد. و یوجد الآن مصنعان فیها لرجلین أرمنیین أتیا القدس من کوتاهیه، و کانت هذه من أشهر معامل القاشانی فی الدولة العثمانیة، و یشتغل المصنعان بالصنف من القاشانی الذی یرغب الفرنج فی اقتنائه و هی جیدة بعض الشیء لکنها لا تحاکی الأنواع القدیمة. و یؤخذ تراب هذا النوع من مطحون حجر الصوان یسحق بآلة بخاریة قویة.

و من أجمل النماذج من القیشانی بدمشق عمودان منه علی طول متر فی محراب جامع التبان فی المناخلیة جوار باب الفرج، و منه نموذج کثیر و یظن أنه حدیث فی تربة جامع المرادیة، و فی مدخل السویقة فی مدرسة أقوش النجیبی کتبت علیه آیة الکرسی بالقیشانی البدیع. و فی تکیتی السلطان سلیمان و سلیم و فی قبر فی زقاق القرشی بالمیدان کتب علیه هذا قبر الجنینین الطفلین یونس و فرج، محفوظ فی إدارة الأوقاف، و القیشانی فی جامع تنکز مکتوب علیه آیة التوحید و فی مدفن بلال الحبشی الصحابی ۱۴۶ قطعة من القیشانی المعمول فی کوتاهیة.

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۲۲

و لا یعلم تاریخ اندراس هذه الصناعة، و المشهور أنها کانت خاصة بأهل بیت یتوارثون صنعها خلفا عن سلف، فدثروا و دثرت معهم منذ أکثر من قرنین. أخبرنی أحد أساطین العلم أنه رأی القیشانی فی جامع الدرویشیة بدمشق مصبوبا علی الأحجار طبقة لطیفة و هو فی غایة الحسن. و یظهر أن المادة القیشانیة کانت تمدّ علی الحجر کما تصنع صفائح و ألواحا. و قد قام فی العهد الأخیر فی کثیر من المدن أناس لعمل الخزف الملوّن لتبلیط البیوت دعوه بالقیشانی و هو لا یشبه القیشانی إلا بالاسم فقط. و انتشر و عم استعماله فی الشام کلها و نقل إلی الأصقاع المجاورة.

الوراقة:

فقدت الشام عدة صناعات کادت تکون خاصة بها، و تعد فی جملة موارد عیشها، و منها الوراقة صناعة عمل الورق. فقد کانت من الصناعات التی تعدها من حاجیاتها. و کانت العرب تکتب أولا فی أکتاف الإبل و الحجارة الرقیقة البیض و عسیب النخل، بعد ما

كانت الكتابة فى الأديم و الرقوق على ما قاله المقريزى. و فى أيام بنى أمية عمل الورق من الكتان و سمى بالخراسانى. و الغالب أن الشام أخذت فى صنع الورق فى دمشق و طبرية و طرابلس و حماة و منبج قبل هذا التاريخ. و عامة المؤرخين من الفرنج على أن الورق من اختراع أهل (الصين سنة ۱۲۳ ق. م) و نقل صنعه أسرى من الصين إلى سمرقند فى سنة (۷۵۱) و فى سنة (۷۹۴ م) أسس معمل للورق فى بغداد ثم فى دمشق و يظهر من بيت طرفة فى معلقته أن القرطاس ينسب للشام و البيت:

و خد كقرطاس الشآمى و مشفر كسبت اليمانى قده لم يجرد

و أن القرطاس كان يعمل فى الشام على عهده أو قبله خلافا لما قاله مؤرخو الفرنج، و أن الورق من صناعات الجاهلية. و كان يرتفع منه كميات من دمشق و من طبرية على ما ذكر ذلك المقدسى. و قد تعلم صنع الورق فى دمشق أسيران فرنسيان على عهد الحروب الصليبية فلما عادا إلى ديارهما نشرا صناعته فى

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۲۳

فرنسا، و منها انتقل إلى جميع أوربا، فلدمشق على فرنسا بل على المدنية بأسرها، الفضل الأول فى تعليم هذه الصناعة للغربيين، و ناهيك بأنها أهم صناعة نشرت العلم و الأفكار فى العالم. و قد حمل الشاميون الوراقة إلى الأندلس و صقلية فى جملة ما حملوه من صناعاتهم، على نحو ما حملوها إلى شمالى إفريقية. و كانت شلطبة من مدن الأندلس تصدر منذ سنة (۱۰۰۹ م) الورق بكثرة و يحمل منها إلى سائر أرض الأندلس.

و كان الورق يصنع أشكالا فى مكابس صغيرة، و يعمل من الخروق البالية أو الحرير و استبدل ورق القطن الذى منه الورق الدمشقى بالحرير فى سنة (۷۰۶ م) رجل اسمه يوسف بن عمرو، و لا يزال فى خزانة دار الكتب العربية بدمشق كتاب كتب سنة (۲۶۶ ه) على ورق يظن أنه من الورق الشامى و هو أقدم مخطوط عرف بالشام و لا يزال على متانته. و قال الرحالة ناصر خسرو: إن الكاغد الجيد الذى كان يصنع فى طرابلس يشبه ورق سمرقند إلا أنه أحسن صنعا. و ذكر القلقشندى أن الورق المعروف بورق الطير، أى الورق الذى تكتب به البطائق و تعلق فى أجنحة حمام الزاجل، هو صنف من الورق الشامى رقيق للغاية و فيه تكتب ملطفات الكتب و بطائق الحمام. و هذا هو الورق الرقيق، و الورق القديم أشبه بالبردى أو الرقوق بمتانته. و لا نعلم فى أى زمن انقرضت هذه الصناعة. و حدثنى أحد علماء حلب أن الورق كان يصنع فى الشهباء و أن حيا من أحيائها لا يزال اسمه الورّاقة حيث كانت معامل الورق. و الورق الحلبى الصقيل المتين مشهور إلى عهدنا.

و قد قام فى أوائل هذا القرن رجل بيروتى من بيت الباحوط، فأسس معملا مهما فى أنطلياس على ساحل البحر، و أصدر ورقا جيدا كورق النمسا و فرنسا، لكن معامل الورق فى الغرب أرخصت صادراتها من الورق إلى الشام فاضطر هو أن ينزل أيضا ثم خفضت السعر و لم تزل تخفضه، حتى قضت على هذا المعمل النافع فى زمن أصبح المجلوب من الورق كل سنة يساوى عشرات الألوف من الدنانير إلى الشام و أصبح الورق حاجة من حاجات المدنية.

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۲۴

المرايا:

المرآة (بكسر الميم) ما تراءيت فيه أو رأيت فيه صور الأشياء و جمعه المرائى و الكثير المرايا و صنعها من صناعات هذا القطر كانت تصنع فى صيدا على ما قال بلينوس و تصدر إلى الخارج، و قد وجدت فى خرائب بومبى ألواح كبيرة من الزجاج و كانت مرايا الأقدمين من صفائح المعدن و هى المعروفة عند العرب بالوذائل واحدتها و ذيلة، اتخذوها بادئ بدء من مزيج القصدير و النحاس ثم من الفضة خالصة أو ممزوجة بمعدن أدنى، و منها مرايا من الذهب، و قد اطلعنا على مرايا من الشبه و الفضة استخرجت من أرض حمص. و هذه الصناعة مما تعلمه البنادقة على ما يظهر من الشاميين و انتقل إلى الغرب ثم تنوسى عمله عندنا. و كان يرتفع من

فلسطين خلال القرون الوسطى المرايا و قدور القناديل فى جملة ما يحمل منها من أنواع الصناعات.

الصياغة:

و من أهم الصناعات القديمة التى لم تبرح على شىء من العناية الصياغة صياغة الذهب و الفضة و التفنن فى تصويرها و وضع الأحجار الكريمة عليها، و كانت تعمل هنا أكلة الجوهر و أقرطة الذهب المزينة بالدر و الياقوت و الشنوف و الخواتيم و الدمالج و القلائد و الأطواق و الخلاخيل على أشكال و رسوم جميلة. و الغالب أن المصنوعات المزيفة من الصياغات الأجنبية نازعت هذه الصناعة و زاد كسادها اختلاف شروط الحياة فى هذا العصر عما كانت عليه فى الأعصر السالفة، و صارت رفاهية القرون الخالية مما يتعذر على ابن هذا الجيل إلا قليلا.

فصياغة الحلى كما لا يخفى من الصناعات اليدوية الدقيقة جدا، و هى تحتاج إلى ذكاء و مهارة لتغير أوضاعها و أشكالها بحسب ذوق كل عصر و رغبة أهله، و هى تقسم كما أكد العارفون إلى سبعة أقسام رئيسة. الأول ما يحلى به الرأس و أعظمها شأنا و رواء ما يسمى بالتاج، و هو عبارة عن دائرة من الذهب الرقيق، يختلف شكلها بحسب الزمان مرصعة بأحجار الماس المختلفة حجومها، و هى إجمالا من أحسن ما صنع لتزيين رؤوس السيدات، و يوجد اليوم أسماء كثيرة و أنواع عديدة لما يزين به الرأس، منها ما يسمى بالمشط،

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۲۵

و البرش، و القمر، و كثير من أشكال الطيور و الحشرات كل ذلك من أبدع الأشكال و الصور مرصع بالجواهر الكريمة.

و مما تزدان به الصدور من الحلى أنواع متعددة أيضا منها ما يدعى بحسب صوره و أشكاله مثل «قلب، حبة، فراشة، زنبقة، غزال، دبوس، كردان ضفدع» كل ذلك جميل فى صنع ذهبه و ترصيعه، و تناسب تركيب أحجاره بدل على رسوخ قدم فى تلك الصناعة، و غالب ما تزين به النحور عقود اللآلئ و مما تحلى به الزنود أساور الذهب الدقيق الصنع و يرصع غالبا بفصّ واحد كبير الحجم و رسمه على الأكثر حية أو أفعى، و مما تحلى به المعاصم و يسمى أساور ترسم على أشكال متعددة من الذهب، و ترصع بأحجار ماس، و لها بحسب أشكالها أسماء متعددة منها «حبة، برغى، ماس، سحب، عصافير» و غير ذلك. و كلها بما فيها من دقة صنع تدل على سلامة ذوق صناعها.

و حلى الأنامل و هو ما يسمى بالخواتم، و عامتها من الذهب و يركب عليها غالبا فص كبير الحجم من الماس أو الياقوت أو الزمرد أو الفيروزج أو فصوص صغيرة متناسبة الوضع، و لها أسماء متعددة منها «مركيز، زيتونة، فريشة، ذو الثلاثة أحجار» و من أكثر أنواع الحلى الأقراط حلى الآذان و هو أشكال متعددة أيضا منه ما يسمى قرط كف ماس قفل، طارة، خروسة، عصافير، تركى، بغدادى، حرية، و قرط الطويل، و هو عبارة عن قطعة واحدة من ماس كبير الحجم، معلقة بسلسلة من الذهب، بطول ثلاثة سانتيمات تقريبا لها خفقان على الجيد جميل.

و بجيد فوقه القرط يلوح‌شبه نجم خافق خلف القمر

و فى الشام ألوف من صناع الحلى و تجار الأحجار الكريمة، و ليس من بلد فى القطر إلا و فيه عدد من أرباب هذه الصناعة النفيسة. و من غريب الأمر فيها أنك لا تجد شكلا راج فى بلد إلا تجده قد راج فى الشام من أقصاها إلى أقصاها خلافا للباسهم و بقية أزيائهم.

و لا بد من الإشارة إلى سبب ترقى هذه الصناعة، ذلك أن الشام مدينة للفتح العربى بها، فإن هذا القطر كما يعلم الباحثون ليس فيه مناجم ماس و لا ذهب (۴- ۱۵)

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۲۶

و لكن الفاتحين من العرب بعد فتحهم أغلب آسيا و إفريقية و عاصمتهم دمشق هادتهم الملوك، و أغلب هداياهم هى الجواهر الكريمة و الذهب حتى امتلأت منها خزائنهم، و كان الخلفاء منهم يهدون منها القواد و الأمراء و الأطباء و الشعراء و العلماء و الفقهاء

فكثرت فى أيديهم و زادت بطبيعة الحال فى أيدى الصاغة، و تنافسوا فى إتقان تلك الصناعة حتى صارت كما ترى اليوم فى أعلى درجات الارتقاء.

و يمكن أن يعد فى جملة الصياغة طبع الدراهم و ضرب الدنانير من النقرة المذابة من الذهب و الفضة، فإن الشام كانت من أول الأقطار التى طبعت فيها السكة الإسلامية، و كانت الدنانير تضرب فى الجاهلية بأيلة على البحر الأحمر، و فى متاحف دمشق و أوربا نقود ضربت فى دمشق و حمص و إيليا و أنطاكية و بعلبك و طبرية أيام عمر سنة (۱۷) و عليها كلها رسم ملوك الروم ثم اسم المدينة بالعربية و اليونانية.

و كان لهم مهارة فى معرفة البهرج و الزيوف من النقود الصحيحة و يذهب بعضهم إلى أن الإكسير إذا أضيف مثقال منه على ألف قنطار من الحديد يستحيل ذهبا خالصا، و لم يثبت ذلك من طريق الكيمياء و ما برح الأحمران الذهب و الفضة معدنين خاصين، و يمكن أن يعد فى جملة هذه الصناعة صناعة لصق المينا بالمعدن و منها نموذج فى دار الآثار بدمشق. و فى التاريخ العام أن معامل الشام كانت تصنع الخرز و الآنية الذهبية ذات الميناء، أما صناعة الجواهر و الصياغة فإن ما بقى منها يدل دلالة كافية على رقى العرب فى صنعها. و كانت العرب تحسن قطع الأحجار الدقيقة و نقشها بالرسوم و زبرها بالصور.

صناعة الصدف و الرخام:

و اشتهرت بيت لحم و القدس بصناعة الصدف يعملون منه الصناديق الصغيرة لوضع أدوات الزينة، و المسابح و الصلبان و الدبابيس و الدوىّ و المقاطع و رسوما و طيورا و حيوانات الفيل و الأرنب، و ما يصنع من خشب الزيتون أشكالا دليل على رسوخ الصناعة، و تباع فى الغرب كميات كثيرة منها، لما فيها من دقة الصنعة و جمال الأسلوب و التفنن فى الوضع و الشكل، و يتنافس الغربيون فى

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۲۷

اقتناء هذه المصنوعات و يحببها إليهم كونها من الأرض المقدسة.

و تفرد أهل بيت لحم منذ قرون بصنع أدوات التقوى كالسبح و الصلبان و بعض مشاهد التوراة، يصنعونها من عرق اللؤلؤ كما يعملون المرجان و حجر الخنزير أو الحجر المنتن، و هو مؤلف من الطباشير و الحمر المستخرج من بحيرة لوط.

و كانت عكا فى الدهر السالف تعمل صنوفا من حاجيات الكنائس. و لبعض صناع الرخام صنائع دقيقة فى دمشق فمنهم من يعمل أحواض الماء من قطع صغيرة، فيها أنواع الرخام الملون، و قد عمل أحدهم خزانة للكتب من أنواع الرخام الملون لا تتجاوز القطعة الواحدة السنتمتر الواحد فكانت طرفة من الطرائف التى آثروا بها القصر السلطانى فى فروق. و هذه الصناعات من الكماليات قلما يرغب فيها حتى الأغنياء أرباب القصور، و لذلك رغب عن صنعها أربابها فكادت تدثر. و لبعض الصناع مهارة فى تقليد العاديات القديمة و غيرها من الأعلاق، لا- تكاد تختلف عما صنع من نوعها منذ قرون، يقتنيها بعض السياح على أنها من القديم. و تقليد العاديات مما عمت به البلوى فى الغرب اليوم و هى مورد من موارد ربح الفقراء من الأغنياء و هى تحتاج إلى معرفة زائدة و مهارة غريبة.

السجاد و الحصير:

و من أهم الصناعات صناعة نسج البسط، يقلدون فيه السجاد العجمى و التركى. و هو أحط من العجمى لأن هذا السجاد الشيرازى و الأصفهانى يصعب أن يدانيه سجاد فى العالم لا يكاد يفنى حتى بعد استعماله قرونا، كالأعبئة الشامية تلبس عشرين سنة و هى برونقها و متانتها. و بحق ما يقولون إن السجادات و الأعبئة أجراء دائمون بلا أجرة. و اشتهرت البسط الشوبكية و بسط أعناك فى البلقاء و حوران و سجاد دمشق، و منها المصور بأشخاص و رسوم.

و فی دمشق و حوران و جبل قلمون و لا سیما فی جیرود و فی حمص و حلب ألوف من الأنوال، تحیک البسط من الصوف الخالص و کانت تصبغ بالأصباغ النباتیة الثابتة من استحضار القطر، فتحتفظ بألوانها بعد عشرات من السنین

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۲۸

و تصبغ الآن بأصباغ أوربیة قلیلة الثبات و هی علی غایة من دقة الصنعة و تناسب النقوش و متانة الحیاکة بحیث تضاهی أحسن ما یعمل من نوعها فی الأقطار الأخری. و یأتی بعدها صناعة السجاد و الطنافس، و تعمل فی قری حمص و حماة و هی المسماة بالحزوری و العدمونی، نسبة لقریتی حزور و عدمون، و هی علی غایة الجودة و المتانة تعمل من الصوف الخالص، و مما یعاب علیها أنها لم تزل تعمل من لون واحد و هو الأحمر القانی، و نقوشه متشابهة لا تفنن فیها.

و دخلت صناعة الطنافس علی طریقة أحدث من الطریقة القدیمة فی حلب و بیروت و دمشق و ذلک بدخول جالیات من آسیا الصغری فی السنین العشر الأخیرة، یحسنون صنعه جدّ الإحسان، لکن النفوس لا تزال ترغب فی سجاد فارس، فإنه لا یعادله شیء بمتانته و ثبات ألوانه و تصویره و رقشه. و فی بعض قری قلمون یصنعون من الوبر بسطا غلیظة متینة تستعمل فی الضیاع و البوادی، و توضع علی الأدراج فی المدن. و یعملون الجوالق (الشوالات) و العدول علی شیء من الجودة و المتانة و کذلک البلاس و المسوح.

و کان نسج الحصیر و البادی من أفضل الصناعات تقوم بالحاجة. و اشتهر أنه کان «إلی جانب طبریة غابة حلفاء و رفقهم منها، أکثرهم ینسجون الحصر و یفتلون الحبال» و قد رأی ناصر خسرو فی القرن الخامس حصرا من هذه الحصر الطبرانیة تستعمل للصلاة و تساوی الواحدة منها خمسة دنانیر مغربیة.

و قد ضعفت هذه الصناعة بانهیال البسط الإفرنجیة و الحصر الیابانیة الرخیصة، و لکن القری و کثیرا من المدن ما زالت تعتمد علی المصنوع منها فی أرض الوطن و الحصر البیروتیة مشهورة بحسن نسجها و لطافة ألوانها و متانتها التی تفوق البسط الإفرنجیة کثیرا.

الصناعات المحدثة:

و من أهم الصناعات المحدثة صناعة القرمید و هو صنو الآجر القدیم تقرمد به السطوح، و فی لبنان و اللاذقیة و یافا معامل منه و فی سنة (۱۹۱۸) أسس رجل فرنسی فی اللاذقیة معملا لعمل القرمید، و القرمید الآجرة العظیمة. و یعمل فی هذا المعمل الفخار الصینی و بلاط الملاط لجودة التراب الخزفی فی تلک الأرجاء

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۲۹

و فی القدس معمل للقیشانی أو البلاط الملون. و من الصناعات الجدیدة صنعة لفائف التبغ تصنع منها کمیات مهمة فی حمانا و بکفیا و زحلة و بعض قری بیروت الساحلیة و تعمل منها کمیات عظیمة فی فلسطین و دمشق و حلب.

و قد استفادت فلسطین فی الأیام الأخیرة من الإکثار من زرع الدخان استفادة عظیمة و أخذت تصنع من اللفائف ما یقوم بحاجتها و تبیع منه إلی الخارج.

و منها صناعة الطباعة و صنع الصور و الحفر علی النحاس و الزنک و فی بیروت أحسن مصانعها و دمشق تقلدها. و من الصناعات المحدثة صنع الجلید و أهم معامله فی بیروت و حلب و طرابلس و صیدا و اللاذقیة و دمشق و حیفا و یافا و القدس و هو یقوم مقام الثلج الطبیعی فی التبرید. و کان الثلج السماوی یدخر إلی آخر أشهر الصیف بحاله و کان هذا ینقل فی القرون الوسطی علی البغال من صیدا و طرابلس إلی قلعة الجبل بالقاهرة فی ثلاثة أیام لتبرید المیاه فی قصر الملک و عظماء الدولة هناک. و فی حیفا معمل للاسمنت المسلح یستخرج من حجر الجبل المتاخم لها و معمل للبنزین و السبیرتو. و قد أنشئ معملان للاسمنت أحدهما فی شقة قرب طرابلس و الآخر فی دمر قرب دمشق و نجحا نجاحا باهرا. و فی کل من عکا و یافا معمل للثقاب (الکبریت) و مثله فی دمشق.

و أهم ما دخل مجددا من الصناعات صناعة الجوخ فی دمشق أنشئ لصنعه معملان أحدهما شرقی المدینة و الآخر غربیها، و أنشئ فیها

معمل لحفظ الفواكه و الثمار و البقول نجح نجاحا كبيرا، و أسس فى حلب معمل عظيم للنسيج أتى بأعظم الأرباح و سد حاجة البلاد فى الحرب الأخيرة.

هذه أهم الصنائع الشامية و غالب الصناعات «تتبدل عليها أيدى الصناع من الواحد بعد الواحد إلى أن ينيف على عشرة صناع حتى يتم» و قد أفاض صاحب قاموس الصناعات الشامية بتعداد هذه الصنائع و الحرف فى دمشق خاصة على اختلاف اسمائها و ضروبها فبلغت نحو ۳۴۰ حرفة و صناعة. و لابن الصائغ الدمشقى منظومة فى ثلاثة آلاف بيت فى الصنائع قال ابن جماعة: و اعلم أن هذه الصنائع استخرجها الحكماء بحكمتهم ثم تعلم الناس منهم بعضها و صارت وراثة من الحكماء للعلماء، و من العلماء للمتعلمين، و من الأستاذين للتلامذة، و من التلامذة للصناع. و كان و لا يزال لكل حرفة زعيم أو نقيب أو شيخ أو

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۳۰

عريف، و يسمى شيخ الحرف كلها بسلطان الحرافيش ثم كنى عنه احتشاما بشيخ مشايخ الحرف و الصنائع. و كان لأرباب الصنائع ترتيبات أشبه بالنقابات الصناعية فى الغرب و لذلك دام رواجها طويلا. فى العهد الأخير نقبت الصناعات النقابات على مثال النقابات الصناعية فى الغرب و أصبحت أصوات العمال تسمع و يزيد صداها رنة كلما كثر الصناع.

تأثير الصناعات فى الماديات و الأخلاق:

قلت من خطاب فى الصناعات يوم الاحتفال بافتتاح الدباغة الوطنية الفنية (۵ كانون الأول ۱۹۲۴ م- ۱۳۴۳ ه) لقد فقدت معظم الصناعات و يا للأسف و آخر ما سيفقد منها صناعة النسيج الضرورية النافعة، فقد كانت صادراته من حلب و حماة و حمص و طرابلس و دمشق تسد جانبا عظيما من الموازنة بما تأتى به من الأموال كل سنة، فأصبحت الآن إلى انحطاط و نازعتها الأقمشة الإفرنجية البراقة الدقيقة. قيل: إنه كان فى دمشق وحدها ثلاثون ألف نول للنسج قبل الحرب فأصبح عددها اليوم نحو ثلاثة آلاف، و لا تلبث إذا دامت الحال على هذا المنوال أن تضمحل كما اضمحل غيرها من الصناعات، و يفتقر أربابها و يهاجرون أو يهلكون. و فى كل ذلك خسارة و فجيعة، و أى فجيعة أعظم من الفجيعة بالمال أو الرجال أو بهما معا.

و مما يجنيه القطر من اجتماع الناس على مثل هذه الأعمال الصناعية تربية الروح القومى فيهم و إصلاح ما أمكن من شؤونهم الاجتماعية. و إليكم مثالا جرى فى هذا المعمل يتخذ منه العاقل عبرة. ذكر لى مدير مدبغتنا هذه منذ مدة أن مستشار الأمور الاقتصادية فى المفوضية العليا زار المعمل و سر بنجاحه كل السرور و نشطه بالقول و الفعل، إلا أنه بدت منه حركة استغربها، و ذلك أنه سأل كثيرا من العملة عن مذهبهم، و بالطبع فيهم من أهل الأديان السماوية الثلاثة و من غير الشاميين أيضا. فاستغربت مع صاحبى هذا السؤال منه و لم أهتد لتعليله. و لم يلبث المستشار أن زارنى من الغد و ذكر لى فى جملة حديثه سروره بالمدبغة الجديدة، و قال: إنكم معاشر الدمشقيين قد حللتم مسألة من أعضل المسائل فى بلدكم لم نتمكن نحن فى بيروت من حلها. و ذلك أننا أردنا

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۳۱

مرة أن نقوم بمشروع صناعى فيها فجاءنا أهل كل مذهب يريدون أن يستأثروا بأكثر المنافع لأبناء طائفتهم. و نحن كنا بالطبع نريد أن ينتفع به من يعمل و يعرف. و هكذا ضاع الوقت فى المجادلة على غير طائل و لم نتقدم شبرا واحدا فى الموضوع الأصلى، و سقط المشروع و هو جنين لأن الناس هناك يريدون أن يقوم بذاك الروح. و لقد سررت أن رأيت فى معملكم المسلم و المسيحى و الإسرائيلى على اختلاف مذاهبهم. و كل فرد يعيش مع أخيه متساندا متعاطفا قلت له: و لذلك استغرب بعض عملة المدبغة سؤالكم أول أمس عن دين من رأيتموه فيه. فقال: ليس فى العالم عمل اقتصادى قام على أساس الدين، و لبنان الكبير غريب فى حالته هذه فقلت له: هذه قاعدة قديمة سارت عليها دمشق منذ الفتح الإسلامى فكل من يحسن عملا يوسد إليه مهما كانت نحلته. فسرّ لقولى و سررت لتوفيقنا.

بقيت هناك مسألة لا بد من الإشارة إليها و أعنى بها تأثير الصناعات فى الأخلاق. فقد ثبت أن الأقطار التى تكثر فيها الأعمال الصناعية و الزراعية أحسن أخلاقا من غيرها، و يقل فيها المتشردون و الثرثارون، لأن من طبع العاملين الأخذ بالنافع و ترك الفضول على الجملة. و لذلك يضعف الشغب فى أرباب الصنائع، و تقل الموبقات المهلكات، لأنها لا تبقى للعامل إلا الوقت الكافى لراحته و نومه، و هو على ثقة من أنه إذا لم يحصر ذهنه فى عمله يخرجه صاحب المعمل أو الحقل من خدمته. فالحكومة التى تحب أن يقل الشغب بين من وسد إليها أمرهم يجب عليها أن تفكر ليلها و نهارها فى إيجاد أعمال رابحة لهم، و بذلك يقل المتشائمون و المشاغبون و المرجفون و الناقمون. و ليس أحسن و لا أنجع من هذه السياسة.

لا جرم أن اشتراك أهل البلد الواحد بل القطر الواحد و المملكة الواحدة فى عمل اقتصادى مما يرفع مستوى القومية أيضا و يلقن الناس معانى التكافل الوطنى.

فقد رأينا فى الدهر السالف سكان الجنوب و سكان الشمال من فرنسا يقتتلون و يتحاربون و لم تنقطع شأفة الفتن من بينهم إلا عندما اشترك الجنوبى مع الشمالى فى الأعمال الاقتصادية، فأصبحت مصلحتهما واحدة و ارتفع النزاع من بينهما و أحسا أنهما أبناء أمة واحدة. لذلك نرى إلى اليوم من بقايا تلك الأخلاق

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۳۲

أن ابن الشمال يهزأ بابن الجنوب على حين كلهم سواء فى مناحيهم و منازعهم، بل إن أهل شمالى فرنسا لا يعنون بغير صناعاتهم و تجاراتهم على الأكثر و يقلّ فيهم السياسيون و الشعراء الأدباء و هم كثار جدا فى أهل الجنوب كثرة فاضت عن الحاجة.

فيا حبذا اليوم الذى يشترك فيه قاصينا و دانينا، فقيرنا و غنينا، فى إقامة الشركات على أنواعها، إحياء لصناعاتنا و استبقاء للبقية التى صبرت على الأيام من ثروتنا. فالزراعة عشر الثروة العامة فى العادة، و الباقى من أسباب السعادة و النماء ثمرة الأعمال الصناعية. و ما السكك الحديدية و البواخر و السيارات و القصور و المصانع الفخمة و كل ما فى المدنية من ضروب الراحة و الرفاهية مما يلذ و ينفع، إلا نتيجة عمل العملة فى المعامل، و كل ما نشاهده و ندهش به من أنواع الصناعات فى أميركا و أوربا و فى اليابان و الصين و الهند هو ثمرة التعاون و العلم العملى. و لذلك ساغ لنا أن نقول: إن كل ما يدفعنا و لو خطوة واحدة إلى الأمام لنقترب بسفينتنا الفقيرة من ساحل السلامة يستحق ثناء الأمة جمعاء و لا رجاء لنا فى الحصول على الحاجيات ثم التطلع إلى الكماليات، إلا بتأليف شركات صغيرة بادئ بدء تقوم برؤوس أموال وطنية، و تستعمل من الأدوات الجديدة ما لا غنية عنه، تنمو بنمونا فى مظاهر الحياة و الانبعاث. فنحن لا نقل عن الغربى ذكاء و نشاطا و إنما ينقصنا التنظيم و التدريب. و فى أرجائنا أكثر المواد الأولية اللازمة فى الصناعات لا تحتاج إلا إلى معرفة قليلة للانتفاع بها و اللّه الموفق و الملهم.

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۳۳

التجارة الشامية

موقع الشام من التجارة و تجارة القدماء:

كان من وقوع الشام فى طرف آسيا و إفريقية، و قربها من الساحل المقابل لبحرها من أوربا، أعظم مركز تجارى فى القديم، و من أهم ما حمل أبناءها على الرحيل بتجاراتهم، منذ عرف التاريخ امتداد سواحلهم. و كثرة الأخشاب التى تجود فى غاباتهم، تساعدهم على صنع السفن المتينة الكثيرة، ثم إن مرونة أخلاقهم تدعوهم إلى الاختلاط بغيرهم، و تقليده و تعلم لغته و مماثلته فى عاداته و بهذا كانت شهرة الفينيقيين الذين استولوا على جزء مهم من تجارة شمالى إفريقية و جنوبى أوربا، و بلغوا جزائر بريطانيا، و أقاموا لهم مكاتب تجارية فى كثير من سواحل هذا البحر المتوسط و بحر الظلمات، و ما زال الفينيقيون أعظم أمة تجارية بحرية فى الدهر

السالف، ينقلون إلى الغرب حاصلات الشرق و إلى الشرق بعض ما كان يعمل فى الغرب، إلى أن قامت دولتا الرومان و اليونان.

عاش الفينيقيون بالتجارة لازدحام أقدامهم فى بقعة ضيقة من الأرض.

و لم يكن لسائر شعوب الشرق من مصريين و كلدانيين و أشوريين، و لا- قبائل الغرب البربرية (الإسبان و الغاليون و الطليان)، عهد بركوب البحار و شق العباب. و الفينيقيون وحدهم جرأوا فى تلك الأيام على تجشم البحر و معاركة العباب. فصح أن يدعوا من أجل هذا عملاء تجارة العالم القديم و قادة البيع و الشراء، يبتاعون من كل شعب سلعه و يقايضونه على غلات البلاد الأخرى.

تجارة كانت مستحكمة الصلات مع الشرق برا و الغرب بحرا.

و اعتاد الفينيقيون أن يرسلوا فى البر قوافل تتجه و جهات ثلاثا. إحداها

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۳۴

إلى أرض العرب لتأتى منها بالذهب و العقيق اليمانى و البخور و الصبر و العطور العربية و اللؤلؤ و الأبازير و العاج و الآبنوس و ريش النعام و قرود الهند. و الثانية ترحل إلى بلاد أشور لتعود منها بأنسجة القطن و الكتان و الحمر و الأحجار الكريمة و الماء العطر و حرير الصين. و تقصد القافلة الثالثة إلى أنحاء البحر الأسود لتستجلب منها الخيل و الرقيق و الأوانى النحاسية من مصنوعات سكان جبال القوقاز.

و كانوا يبتاعون محاصيل صناعات الشعوب المتمدنة، و يبحثون فى الأصقاع المتوحشة عما يقل الظفر به فى المشرق من المحاصيل. يصطادون الصدف من شاطئ اليونان، و منه يستخرجون صباغا أحمر و هو الأرجوان. و كانت الأنسجة الأرجوانية تستعمل عند الأقدمين كافة ملابس للملوك و الأمراء، و يجلبون الفضة التى يستخرجها أهل إسبانيا و سردانية من مناجمهم. و كان القصدير من ضروریاتهم يستعملونه فى صنع النحاس الأصفر، و هو مركب من نحاس و قصدير و لا أثر له فى أرض الشرق، يرحل الفينيقيون فى طلبه، و ينشدونه حتى فى شواطئ إنكلترا فى جزائر القصدير و حيثما حلوا يتخذون الرقيق يبتاعونه تارة كما كان يبتاع النّخاس العبيد فى ساحل إفريقية. و ينزلون طورا فى إحدى السواحل فجأة فيختطفون النساء و الأطفال و ينقلبون بهم إلى أهلهم و يبيعونهم فى القاصية. و إذا و اتتهم الحال ينقلبون قرصانا، و لا يتحامون إطالة أيدى التعدى على غيرهم.

و قد أنشأ الفينيقيون مكاتب تجارية فى الأرجاء التى اتجروا فيها، و هى مراكز للبرد حصينة، واقعة على مرفإ طبيعى يخرجون إليها بضائعهم من البحر و هى فى العادة أنسجة و فخار و حلى و أصنام، فيأتى أهل تلك الأقطار بغلاتهم يقايضونهم عليها كما يقايض اليوم تجار الأوربيين زنوج إفريقية. و تقام أمثال هذه الأسواق فى قبرس و مصر و جميع بلدان البحر الرومى مثل إقريطش و يونان و صقلية و إفريقية و مالطة و سردانية و مالقة و قادس و ربما أقاموها فى موناكو من بلاد الغول- قاله المؤرخ سنيوبوس.

و كانت الشام فى الزمن القديم كثيرة السكان زاهرة على ما يظهر، و هى مدينة بوفرة سكانها و استبحار عمرانها، لمركزها الطبيعى و تجارتها العجيبة و رباعها الخصيبة. و كان فى وسع مصر أن تنازع الشام مكانتها التجارية، بيد

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۳۵

أن الحسد المتأصل فى الطبقات الدينية و السياسية كان يمزقها و يحول بين المصريين القدماء و بين كل صلة بالشام. فكانت الشام إذا المستودع الوحيد للعالم المعروف تأتى حاصلات آسيا و إفريقية مع القوافل إلى موانئ الشام حيث تحمل على سفن فينيقية، و أتت أزمان على الشام كانت تخرب بأيدى الفاتحين، و تخرب أيضا بالحروب المتواصلة بين الممالك الصغرى التى كانت تنازع هذا القطر. فأضاع بها مكانته، خصوصا منذ تخلصت مصر من نفوذ كهنتها، و غدت منافسة لها بأن جعلت من مركزها الواقع على بحرين مستودعا سهل التجارة بين أنحاء العالم.

و كان السبب فى كثير من الحروب التى نشبت بين الشاميين و الأشوريين و البابليين و المصريين ثم مع ممالك الروم فى الغرب، مسائل التجارة على الأغلب و إرادة الشاميين أن يفتحوا صدر أرضهم لتنفذ إليها تجارات جيرانهم أو غيرهم من الشعوب. و من أهم

المدن التی استأثرت بالتجارة فی القدیم البتراء ثم تدمر ثم حلب و دمشق. و کانت مدن فینیقیة لولعها بالتجارة تترک الزراعة حتی بلغت الحال بأهل صور أن أغفلوا تعهد الأرض و کانوا یشترون مؤونتهم من الجلیل و السامرة و الیهودیة، و لما حاصر الإسکندر صور اضطر أن یستجلب أزودة جیشه من هذه المحال.

و ذکر دیودروس أن ثروة الأنباط أصحاب البتراء کانت من الاتجار بالطیوب و المر و غیرهما من العطریات، یحملونها من الیمن و غیرها إلی مصر و شواطئ البحر المتوسط، و لم تکن تجارة تمر فی أیامهم بین الشرق و الغرب إلا علی أیدیهم، و کانوا یحملون إلی مصر خاصة القار لأجل التحنیط. و لما استولی الرومان علی القطر انتقلت التجارة إلی تدمر و فارس. و وفق الفرس إلی تحویل التجارة عن مصارفها القدیمة إلی أصقاع الفرات و الخلیج الفارسی.

و أخذ الرومان یعنون بإنشاء الطرق المعبدة فی الشام، و الوصل بین الشام و الأقطار الأخری کالجزیرة و العراق و الحجاز و مصر و آسیا الصغری، و لا تزال إلی الیوم بعض هذه الطرق ماثلة للعیان فی صرخد و الشراة و الکرک و أیلة و جرش، و هذه کانت طرق البتراء إلی داخل الشام، و کانت أنطاکیة ترسل إلی رومیة الأصواف و الأنسجة و الحنطة، و الشرق یبعث إلیها بأدوات الزینة و الرفاهیة

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۳۶

کالعطور و الأبازیر (الفلفل و جوز الطیب و الزنجبیل) و النیلة و العاج و الأحجار الکریمة و ثیاب الصوف و الحریر و العبید السود و الحیوانات النادرة و لا سیما القرود فکانت تجلب إلی الإسکندریة من طریق البحر الأحمر أو فی النیل و تأتی إلی أنطاکیة من طریق الخلیج الفارسی و بادیة الشام مع القوافل.

یقول بیرین المؤرخ البلجیکی فی کتابه محمد و شارلمان: لقد عظم نفوذ الشامیین من وراء الغایة فی رومیة جاءوها بکثرة و کان عدة من الباباوات من الشامیین کما کان بعض أباطرة رومیة من أصل شامی و إلی الشام تصل قوافل الهند و الصین و بلاد العرب و کان الشامیون یومئذ رجال البحر علی نحو ما صار الهولاندیون فی القرن السابع عشر و بواسطتهم تصدر الأبازیر و أعمال الصناعة من المدن الکبری فی الشرق کأنطاکیة و دمشق و الإسکندریة الخ و کنت تراهم فی کل الفرض البحریة کما کنت تجد منهم جالیات فی داخل البلاد. و کان لهم علی عهد ملوک الرومان منازل فی الإسکندریة و رومیة و اسبانیا و غالیا و بریطانیا العظمی حتی مدینة کارنونتوم علی نهر الدانوب. ثبت ذلک بنصوص العادیات التی عثر علیها. و فی القرن السادس کثر المشارقة فی جنوبی غالیا و کان منهم من یستوطنها و لا سیما فی الجنوب من أرجائها و کان سکان أربونة فی سنة (۵۸۹) من القرط و الرومان و الیهود و الیونان و الشامیین. و کثر سواد الشامیین فی نابل و فی جوار باریز. قال: و کانت المیناء التی نعرفها أکثر من غیرها مرسیلیة و یظهر أنها کانت فرضة کبری منوعة السکان و یبین عن مکانتها تنافس الملوک فی الاستیلاء علیها عند تقسیم الامبراطوریة الرومانیة و قد کثر فیها الیهود و الشامیون و الروم و القوط.

فالتدمریون و من قبلهم النبطیون عنوا بالتجارة جد العنایة، لأنها مورد معاشهم و علة حیاتهم، لضعف الزراعة فی کورهم، فکانت القوافل علی عهد ارتقاء تدمر تحمل إلیها من جزائر العرب الذهب و الجزع و الیشب و اللبان و الصمغ و الصبر و عود الند، و من العراق اللؤلؤ، و من الهند أنواع المنسوجات و القرنفل و البهار و الحریر الصینی و النیل و الضجاج و الفولاذ و العاج و الآبنوس.

کل هذا یأتیهم من طریق القوافل فی البوادی و القفار فیحملونه إلی رومیة عاصمة الرومان. أما الأرفاق التی تأتیهم من البحر فکانت دون ذلک- قاله رنزفال.

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۳۷

و قد اکتشف أمیر روسی فی سنة (۱۸۸۲) کتابة رسمیة کتبت بالتدمریة و الیونانیة یرتقی عهدها إلی سنة (۱۳۷) للمسیح فهمت منها أحوال التجارة القدیمة و مضمونها تعریف جمرکی مطول أصدره مجلس شیوخ تدمر حسما لفتن وقعت بین التجار و عمال الخزانة، و فیها بیان ما یضرب من المکوس علی البضائع و المعاملات التجاریة إجمالا و إفرادا و هی باهظة فکان کل حمل جمل أو حمار یرد أو

يصدر تضرب عليه أولا ثلاثة دنانير رومانية (و كان الدينار الرومانى يساوى نحوا من ۷۲ سنتيما) ثم فريضة أخرى تختلف باختلاف جنس البضائع. و البضائع التى ورد ذكرها فى هذه الجريدة كثيرة فمنها الرقيق و الجزر و الأرجوانية و الزيوت العطرية المجعولة فى قماقم من الرخام الأبيض أو فى ظروف من جلد المعز، ثم ريت الزيتون و الشحم و الملوحات المتنوعة و الجلود و الثياب و الأنسجة و الغلال المختلفة و الأفاويه و الأثمار اليابسة كحب الصنوبر و الجوز و اللوز و العقاقير و الملح إلى غير ذلك. و ينقسم كل حمل إلى ثلاثة أقسام حمل الحمار و حمل الجمل و حمل العجلة، و كان ثقل الأول نحو مئة كيلو و الثانى أثقل منه بثلاثة أضعاف و الثالث يبلغ نحو ألف كيلو. قال دى فوكيه: و كانت القوافل التى تحمل إلى تدمر خيرات المشرق تستخدم من الدواب الإبل و الحمير و إذا وصل التجار إلى حاضرة زينب (تدمر) أنزلوا عن ظهر الدواب الجوالق و الأثقال المختلفة و حملوها على العجلات ليوصلوها إلى جميع أنحاء المملكة على السكك و الشوارع الرومانية، فإذا بحثت عن أسباب تقدم تدمر و بلوغها ذروة العمران وجدت لذلك سببين: الأول مرور البضائع بها و إقامتها فيها مدة و دفع المكوس إلى خزانة المدينة، و الثانى شهرة أهالى تدمر دون سواهم بقيادة القوافل فى المفاوز و الصحارى، فلذلك صارت هذه الحاضرة فى القرن الثانى للمسيح أشبه بمرفإ عظيم على بحر البرارى ترسو عند ساحلها تجارة الأمم فتغنى خزائنها كما جرى فى القرون الوسطى لمدينة البندقية سلطانة بحر الروم. و قد اكتشف علماء العاديات عمودين نصبا للدلالة على مسافة الطريق ميلا ميلا عليها اسم زينب و اسم ابنها و هبلات. و أول هذين العمودين قريب الجبيل و الجسر الواقع على وادى العذار و الثانى برج الريحان شمالى الجبيل.

و كانت الشام أهم محال الحرير و لا سيما صور و بيروت، و الشام من

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۳۸

أهم ولايات الإمبراطورية الرومانية. و ذكر پروكوب عند كلامه على أنطاكية أنها أول مدينة رومانية مهمة فى الشرق لغناها و اتساعها و وفرة نفوسها و جمالها و عادياتها. و تعجب أنطونين الشهيد من الترف الذى كان على أتمه فى أنطاكية و من عظمة أفامية و بيروت و غزة. و قد اضمحل ذلك على عهد يوستنيانوس لأنه أرد أن يضع سعرا وسطا للحرير فهلك تجاره و صانعوه و خربت معامله.

و يرد تاريخ زراعة الحرير إلى القرن الأول للحكم اليونانى على الشام و لا سيما فى ضواحى بيروت. قال هيد بعد أن ذكر ذلك: و قد حدا حب الربح تجارا مسيحيين على أن يبيعوا أبناء دينهم بيع الرقيق لغرب اسبانيا و إفريقية و الشام، فاتخذ شارلمان و البابا زكريا و أدريانوس الأول الأسباب لمنع ذلك.

و قد وجدت فى غاليا و غيرها من المدن التجارية فى الغرب كتابات فيها أسماء الشاميين الذين كانوا يسكنونها للتجارة منذ الزمن الأطول، و منها ما وجد فى جناى على مقربة من مدينة تريفو ذكر فيها شامى اسمه تيم من قرية عتيل من أهل مدينة قنوات فى جبل حوران كان يتجر مع غاليا بما يحمله إليه مواطنوه إلى أرل على سفنهم و منها إلى ليون فما فوقها من مدن فرنسا.

و لم يكن تجار الغرب يهتمون بالسفر إلى الساحل الشامى لأخذ البضائع اللازمة لهم، بل يحمل الشاميون أنفسهم بنشاطهم المعهود تلك البضائع، مع أن حاصلات آسيا كانت مما يلفت نظر الغربيين. و اشتهر خمر غزة فى فرنسا على عهد الملك كونتران فى القرن السادس للميلاد، و حرير الشرق و أحجاره الكريمة تتألف منها زينة العظماء و السادات. قال هيد: إن الشاميين كانوا يرحلون إلى فرنسا على عهد حكومة الميروفنجيين و نزلوا فى جنوبى فرنسا مثل ناربون و بوردو بل فى أواسطها مثل أورليان و تور و كانت تحمل إلى فرنسا أكياس الأدم من فلسطين. و الظاهر أن الشام كان يفوق غيره بأعماله الصناعية و التجارية، و صلات الشاميين محكمة مع الشرق و الغرب، و كانت بلادهم على عهد الروم محط رحال قوافل الخليج العربى و الخليج الفارسى و أواسط آسيا و هى أهم ولاية تجارية للروم. و فى الحق أن صلاتنا بالغرب زادت لما توطدت أقدام النصرانية فى أوربا، و أصبح زوار بيت المقدس يأتون إلى فلسطين أفواجا أفواجا و يحملون معهم شيئا من تجارتهم و يأخذون ما عندنا مما يروج فى أسواقهم.

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۳۹

تجارة العرب:

العرب أهل تجارة لضعف زراعتهم، و كانوا يوغلون فى الشرق و الغرب لغرض الربح، و قد كان لهم أسواق يقيمونها فى شهور السنة و ينتقلون من بعضها إلى بعض و يحضرها عامة قبائل العرب ممن قرب منهم أو بعد، فكانوا ينزلون دومة الجندل على سيف بادية الشام أول يوم من ربيع الأول فيقيمون أسواقها بالبيع و الشراء و الأخذ و العطاء، و كان يعشرهم فيها أكيدر دومة- و هو ملكها- و ربما غلب على السوق كلها فيعشرهم بعض رؤساء كلب، فيقوم سوقهم هناك إلى آخر الشهر ثم ينقلون إلى سوق هجر- قاله القلقشندى.

و ما زال يقام فى الشام إلى اليوم فى أماكن مختلفة أسواق لبيع المصنوعات و الحاصلات أشبه بمعارض هذه الأيام فى الغرب. و كانت تقام فى دمشق فى كانون الأول سوق تعرف بسوق قضيب البان، رواه البيرونى. و روى القالى أن قريشا كانت تجارا، و كانت تجارتهم لا- تعدو مكة، أى تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم، ثم يتبايعونها بينهم و يبيعونها على من حولهم من العرب، فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام فنزل بقيصر و تمكن عنده و قال له: إن قومى تجار العرب فإن رأيت أن تكتب لى كتابا تؤمّن تجارتهم، فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز و ثيابه، فتباع عندكم فهو أرخص عليكم، فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم، فأقبل هاشم بذلك الكتاب. فجعل كلما مرّ بحىّ من العرب بطريق الشام أخذ من أشرافهم إيلافا. و الإيلاف أن يأمنوا عندهم فى أرضهم من غير حلف، إنما هو أمان الطريق، و على أن قريشا تحمل إليهم بضائع فيكفونهم حملانها و يؤدون إليهم رؤوس أموالهم و ربحهم، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم و بين أهل الشام، حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شىء أتوا به بركة، فخرجوا بتجارة عظيمة، و خرج هاشم معهم يجوّزهم، يوفيهم إيلافهم الذى أخذه لهم من العرب حتى أوردهم الشام و أحلهم قراها، فاتسعت قريش فى التجارة فى الجاهلية. و هاشم هذا هو جد الرسول مات بغزة فنسبت إليه فقيل لها غزة هاشم لأن الروم كانوا يقيمون لهم سوقا فى غزة فى موسم معلوم و كانت قريش فى الجاهلية تحضره و تمتار منه.

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۴۰

و كانت لهاشم بن عبد مناف رحلتان رحلة فى الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن و نحو اليكسوم من ملوك الحبشة، و رحلة فى الصيف نحو الشام و بلاد الروم. قال الثعالبى: و كان يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل و سادات العشائر لخصلتين، إحداهما أن ذؤبان العرب، و صعاليك الأعراب، و أصحاب الغارات، و طلاب الطوائل، كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم و لا غيرهم، و الخصلة الأخرى أن أناسا من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة، و لا للشهر الحرام قدرا، كبنى طىء و خثعم و قضاعة. و سائر العرب يحجون البيت و يدينون بالحرمة له. و معنى الإيلاف إنما هو شىء كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح، و يحمل لهم متاعا مع متاعه، و يسوق إليهم إبلا مع إبله، ليكفيهم مؤونة الأسفار، و يكفى قريشا مؤونة الأعداء، فكان ذلك صلاحا للفريقين، إذ كان المقيم رابحا و المسافر محفوظا. و فى غزة استغنى عمر بن الخطاب فى الجاهلية لأنها كانت متجرا لأهل الحجاز.

و خصبت قريش و أتاها خير الشام و اليمن و الحبشة، و حسنت حالها و طاب عيشها، و لما مات هاشم قام بذلك عبد المطلب، فلما مات عبد المطلب قام بذلك عبد شمس، فلما مات عبد شمس قام به نوفل و كان أصغرهم. و ذكر اللغويون من جملة التخريجات فى اسم قريش التى كانت سادة العرب جاهلية و إسلاما، أنها سميت بذلك لتجرها و تكسبها و ضربها فى البلاد تبتغى الرزق، و قيل: لأنهم كانوا أهل تجارة و لم يكونوا أصحاب زرع و ضرع من قولهم فلان يتقرش المال أى يجمعه. و كان ساداتهم على حبهم للتجارة إذا تولوا أمرا من أمور الأمة تخلوا عنها. ففى التذكرة الحمدونية أنه كان لعمر بن عبد العزيز سفينة يحمل فيها الطعام من مصر إلى المدينة فيبيعه و هو و اليها، فحدثه محمد بن كعب القرظى عن النبى صلى اللّه عليه و سلم «أيما عامل اتجر فى رعيته هلكت رعيته» فأمر بما فى السفينة فتصدق به، و فكها و تصدق بخشبها على المساكين.

و كان الأنباط يحملون من الشام إلى الحجاز الزيت و الدّرمك «دقيق الحوّارى» و يعودون إلى هذا القطر بحاصلات الحجاز. و فى

السنة الثانية للهجرة أقبل أبو سفيان بن حرب والد يزيد و معاوية من الشام فى قريب من

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۴۱

سبعين راكبا من قبائل قريش كلهم كانوا تجارا بالشام. و كانت تجارة أبى سفيان بيع الزبيب و الأدم كما كان الصديق و عثمان و طلحة بزازين.

و خافت قريش لما أسلموا من انقطاع السفر إلى الشام للتجارات لمخالفتهم أهل الشام بالإسلام فقال عليه الصلاة و السلام: «إذا هلك قيصر فلا قيصر، و إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده» معناه لا قيصر و لا كسرى بعدهما فى الشام و العراق، و لا ضرر عليكم، فقويت نفوس العرب على الاتجار مع هذين القطرين و كانوا من قبل يملكون المزارع فى الشام و يقيمون و ينعمون.

و اتجر الرسول فى الجاهلية و كذلك بعض أصحابه كأبى بكر و عمر و عثمان، و لما رفرف علم الإسلام على الشام اتسعت الدنيا على الصحابة حتى إن عبد الرحمن بن عوف الزهرى أحد الثمانية الذين سبقوا الخلق إلى الإسلام كان تاجرا كثير الأموال بعد أن كان فقيرا، باع مرة أرضا له بأربعين ألف دينار فتصدق بها كلها و تصدق مرة بسبعمائة جمل بأحمالها قدمت من الشام، و أعان فى سبيل اللّه بخمسمائة فرس عربية، و كان الزبير بن العوام ابن عمة النبى صلى اللّه عليه و سلم و أحد العشرة كثير المتاجر و الأموال قيل: كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج فربما تصدق بذلك فى مجلسه، و قد خلف أملاكا بيعت بنحو أربعين ألف ألف درهم و هذا لم يسمع بمثله قط- قاله الذهبى.

و كانت مراكب صور و طرابلس تقلع من هاتين الفرضتين بالتجارة إلى سواحل خليج القسطنطينية (بحر إيجه) و خليج البنادقة (الأدرياتيك) و بحر بنطس (الأسود) و جزائر قبرس و رودس و اقريطش، و كل ما قام به خلفاء المسلمين و وزراؤهم لتسهيل الحج على المسلمين من إنشاء الطرق و إنباط المياه على طول الطريق إلى أم القرى، و إقامة معالم الأمن و الراحة فيها للحجاج قد أفاد التجارة.

و كانوا قسموا أرض الشام إلى مراحل و برد و فراسخ و عنوا بالأمن من وراء الغاية حتى يتجر الناس. و كانت طريق القوافل إلى مصر على الكرك أو على غزة و رفح. قال ريسون: و كانت دمشق مدينة الصناعة الجميلة (۴- ۱۶)

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۴۲

مركز تجارة شبه جزيرة العرب و مصر و الشام، و إن العرب رقوا الصناعة البحرية و وضعوا قوانين لحقوق الملاحة و استعاروا بيت الإبرة من الصينيين، و ضبطوا التجارة بفن مسك الدفاتر أىّ ضبط و شرحوا الكفالة و أنشأوا المصارف للفقراء و وضعوا السفاتج المألوفة و ردود التمسك و بعثوا روح الحركة فى مصارفنا الحديثة و كنت تراهم حيثما سكنوا مهدوا السبيل و أمنوها، و عمروا المرافئ و الفرض، و أصلحوا و أنشأوا الفنادق و الرباطات و رتبوا سير القوافل الاقتصادية و لم تكن المدن الكبرى غير أوساط تجارية كبرى.

و كان الفرات بن حيان أهدى الناس بالطرق و أعرفهم بها و كان يخرج مع عيرات قريش إلى الشام و له يقول حسان:

إذا هبطت حوران من رمل عالجفقولا لها ليس الطريق هنالك

فإن نلق فى تطوافنا و انبعاثنافرات بن حيان يكن وهن هالك

و يقول بيكولوتى: إن أربع موان: عكا و بيروت و طرابلس و اللاذقية، و خمس مدن داخلية الرملة و دمشق و حماة و أنطاكية و حلب استفادت من التجارة مع اللاتين و لا سيما مع البيزيين و الجنويين و الطسقانيين و البنادقة و كلهم إيطاليون و هذه الجمهوريات الأربع، بيزة و جنوة و طسقانة و البندقية التى كانت تقتسم إيطاليا هى أول من اتجر مع الشام من أمم الغرب و جاراهم بعض تجار من أهل بلجيكا و إنكلترا ثم عدلوا لبعد ديارهم. و كان لهؤلاء الطليان و لتجار أمالفى و مارسيليا مكاتب تجارة فى الإسكندرية و فى المدن الساحلية و الداخلية فى الشام، يقايضون بواسطتها حاصلات الشرق مع حاصلات الغرب، و لما فتح الجنويون ثم البنادقة جزيرة قبرس

زادت صلات الشام مع هذه الجزيرة التى هى على ۹۳ كيلومترا من ساحل الشام فى طرف جون الإسكندرونة و تعد من الشام. و جعل ملوك فرنسا لهم تاجرا إسرائيليا يذهب كل سنة إلى الشرق يبتاع منه حاصلات آسيا. و كثيرا ما كان اليهود سفراء فى المفاوضات مع أمراء آسيا.

و ذكر ابن خرداذبة أن التجار اليهود الراذانية، و كانوا يتكلمون بالعربية و الفارسية و الرومية و الإفرنجية (الفرنسية) و الأندلسية (الإسبانية أو البرتقالية) و الصقلبية (السلافية) يسافرون من المشرق إلى المغرب و من المغرب إلى

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۴۳

المشرق برا و بحرا، و يجلبون من الغرب الخدم و الجوارى و الغلمان و الديباج و جلود الخز و الفراء و السمور و السيوف يركبون من فرنجة (فرنسا) فى البحر الغربى فيخرجون بالفرما «على ساحل مصر» إلى القلزم «البحر الأحمر» و إن شاؤوا حملوا تجاراتهم من فرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بأنطاكية و يسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية «فى حوران»، و أما تجار الروس و هم من جنس الصقالبة فإنهم يحملون جلود الخز و جلود الثعالب السود، و السيوف من أقصى صقلبة «بلاد الروس» إلى البحر الرومى و الخارج منهم فى البر يخرج من الأندلس أو من فرنجة، فيعبر إلى السوس الأقصى فيصير إلى طنجة ثم إلى إفريقية «تونس» ثم إلى مصر ثم إلى الرملة ثم إلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد.

و كان يرتفع من فلسطين الزيت و القطين و الزبيب و الخروب و الملاحم و الصابون و الفوط و الجبن و القطن و التفاح و القريش و المرايا و قدور القناديل و الإبر و النيل و التمور و الحبوب و الخرفان و العسل و شقاق المطارح و السّبح و الكاغد و البز و الأرز، و من قدس «حمص و حماة» الثياب المنيرة و البلعسية و الحبال، و من صور السكر و الخرز و الزجاج المخروط و المعمولات، و من مآب قلوب اللوز، و من دمشق المعصور و البلعيس و الديباج و دهن البنفسج و الصفريّات و الكاغد و الجوز و القطين و الزبيب، و من حلب القطن و الثياب و الأشنان و المغرة، و من بعلبك الملابن. و اختصت حلب أيضا- كما قال ابن الشحنة- بالصابون الذى يجلب منها إلى ممالك الروم و العراق و ديار بكر و هو أفخر صابون، و يباع منه بحلب فى اليوم الواحد ما لا يباع فى غيرها فى الأشهر، و من خصائصها نفاق ما يجلب إليها من البضائع كالحرير و الصوف و اليزرى و القماش العجمى و أنواع الفراء من السمور و الوشق و الفنك و السنجاب و الثعلب و سائر الوبر و البضائع الهندية، فإذا حضر إليها مائة حمل حرير فإنه يباع فى يوم واحد و يقبض ثمنه ا ه. و ذكر ابن بطلان من أهل القرن الرابع من عجائب حلب أن فى قيسارية البز عشرين دكانا للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعا قدره عشرون ألف دينار مستمر ذلك منذ عشرين سنة و إلى الآن ا ه. و كانت تجارة الشام فى هذا القرن و الذى يليه

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۴۴

زاهرة جدا، و قد قسم جعفر بن على الدمشقى التجار إلى ثلاثة أصناف و هم الخزان و الركاض و المجهز.

التجارة فى القرون الوسطى:

كانت مراكب بارى تسافر إلى موانى الشام قبل الحرب الصليبية و قد عقد أمراء سالرن و نابل و جايت و أمالفى فى سنة (۸۷۵ م) معاهدة مع العرب كما عقد صلاح الدين يوسف و جمهورية بيزا معاهدة مؤرخة فى ۱۵ صفر سنة (۵۶۹ ه- ۱۱۷۲ م) منح بها البيزانيين عدة امتيازات خاصة بالتقاضى و المملكة.

و حصل الفلورنتيون (أهل فلورنسه) من قايتباى سلطان مصر و الشام على عدة امتيازات و كانت هاتان المعاهدتان من أوائل ما وضع من الامتيازات الأجنبية للأوربيين فى الشرق و كان المقصد منها ترويج التجارة الصادرة و الواردة.

قال أحد كتاب الإنكليز: إن عكا بقيت بخليجها الجون الطبيعى الوحيد على طول ذلك الساحل، و كانت مرسى السفن فى العصور الوسطى، و لما كثر اعتماد سكان الشام فى طعامهم على الأرز عظم شأن عكا، لأنها كانت الميناء الوحيد لتوريده. و كان الناس يقولون

إذا أراد «باشا» عكا تضرب المجاعة أطنابها فى الشام. و لذلك صار امتلاك عكا ضروريا لكل فاتح يريد امتلاك القطر، فحوصرت أكثر من سائر مدن الشام و كان اتصال أوربا بها أكثر من اتصالها بسواها.

كانت التجارة من أعظم العوامل فى الحروب الصليبية، و أكثر أمم أوربا انتفاعا منها الإيطاليون أهل جنوة و طسقانة و البندقية و بيزا، و هؤلاء كانت لهم قصور فى الشام تدل على غنى، و سفن الطليان هى أهم الأساطيل التجارية فى القرون الوسطى.

و اعتاد الأوربيون بعد الحروب الصليبية حاصلات الشرق، فلم يعد لهم طاقة على الاستغناء عنها، و ملك أزمة التجارة فى البحر مع الطليان الكاتالانيون و البروفانسيون و القبرسيون و الرودسيون، و أصبحت جزيرة رودس بمثابة مالطة و جبل طارق اليوم، و كانت قبرس تهدد شواطئ الشام و منافذ النيل.

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۴۵

قال صالح بن يحيى: إن مراكب الإفرنج أخذت تتردد إلى بيروت بعد الحروب الصليبية بالمتاجر قليلا قليلا، و كانت مراكب البنادقة تحضر إلى قبرس فيرسل صاحب قبرس بضائعهم فى شونتين كانتا له إلى بيروت نقلة بعد أخرى، و كان للقبارسة جماعة من التجار يسكنون فيها أى فى بيروت، و لهم خانات و حمامات و كنائس ثم بطل ذلك.

و تكاثر حضور مراكب طوائف الإفرنج و كانت ضرائب الواردات و الصادرات تؤخذ فى بيروت، و هى تبلغ جملة مستكثرة، و كان على باب الميناء دواوين و عامل و ناظر و مشارف و شادّ يوليهم نائب دمشق و المتوفر من المرتبات يحمل إلى دمشق. و ذكر لامنس أنه فى نحو سنة (۱۱۳۶ م) جاءت مراكب فرنسية عليها تجار إفرنسيون من مرسيليا ثم أخذت بعض مرافئ جنوبى فرنسا كمونبلية وارل تبعث سفنها، و بذلت جنوة جهدها لتبقى لها الأفضلية فى التجارة مع الشام، و كانت عكا المرفأ الأعظم بين الموانى و قاعدة التجارة و مركز القناصل العاملين، ثم مرافئ صور و طرابلس و السويدية التى كانت تسمى ميناء مارسمعان ثم بيروت. و منذ القرن الخامس عشر تقدمت بيروت سائر موانى الشام، و كان تجار الإفرنج يستبضعون من ديارنا الحرير و القطن بكميات وافرة و الكتان و الخام و الأنسجة الكتانية و الحريرية، و كانت صور لا تزال تتجر بالأرجوان و اشتهرت بآنيتها الصينية و زجاجها الفاخر، و يقبل الأوربيون على حرير أنطاكية و زجاجها، و يبتاعون السكر بالكميات الكبرى من صور و طرابلس و غيرهما من مدن الساحل، إلى غير ذلك من ضروب الثمار و العقاقير و الحشائش الطيبة و الأفاويه العطرية، و كان البنادقة يجلبون من حلب مقادير عظيمة من القطن و الشب و البهار، و خيرات الهند و العجم تتدفق إليها. و مبدأ اشتداد صلات الشام مع الغرب منذ الحروب الصليبية. و قد أخذ تجار الإفرنج أنفسهم بفضل صلاح الدين ثم أخلافه من بعده يغدون و يروحون فى هذا القطر، و الحرب ناشبة بين الفريقين لا يمس أحدهم بأذى، و لا يعتدى على حقوقه، حتى اضطر الصليبيون أن يعاملوا تجار العرب على هذه الصورة فى الأرض التى بقيت فى أيديهم إلى آخر مدة الحرب مثل صور و عكا و أنطاكية لا ينال التجار منهم كبير

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۴۶

أذى، و للنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها فى أرضهم، و تجار النصارى أيضا يؤدون فى أرض المسلمين على سلعهم. و قد تعقد المعاهدات مع ملوك الإفرنج و تذكر فيها أنواع المتاجر التى يحملونها إلى موانى هذا القطر و منها الخشب و الحديد.

و لم تكن جمهوريات إيطاليا فى حرب الصليبيين دولا بحرية من الطراز الأول بل كانت منظمة بأحسن النظم الجمهورية، و مع هذا فكثيرا ما كانت تشب الحرب بينها حتى تستأثر إحداها بالتجارة فى الشام، فكان الجنويون أعداء البنادقة، و كذلك كان الكتلانيون، و اضطر البروفانسيون أن يدخلوا تجارتهم إلى هذه الديار بواسطتهم، و هم يريدون أن يستأثروا بنقل زوار بيت المقدس و أن تمر تجار ما وراء جبال الألب من مثل جوخ الفلاندر فى موانى إيطاليا، و تنقل على سفنهم و تستوفى عنها رسوما خاصة. و لما احتل الجنويون الماغوسة فى قبرس بدأ اللاتين بزيارة دمشق و بقية الشام، و كانت حال التجارة فى الدور الثالث من أدوار القرون الوسطى فى دمشق على أحسن ما يكون، فكان التجار الأوربيون إذا انتهوا إليها رأوا فيها عدة زملاء لهم من ممالك مختلفة مثل البندقية و جنوة و

فلورنسة و برشلونة و غيرها، فيبيعون و يبتاعون، و كان اجتماعهم فى خان برقوق و قد أقام بعض البنادقة فى حماة و منها كانوا يبتاعون القطن. و كان للأوربيين قناصل فى الشام منذ الزمن الأطول و أول قنصل كان للبنادقة فى مدينة دمشق سنة (۱۳۸۴ م) و اسمه فرنسسكو داندللو و كانت دمشق مستقر القناصل، إلا أن لا منس يقول:

إن أول ما ورد اسم القنصل فى جملة النزالة الجنوية التى كانت فى عكا أواسط القرن الثانى عشر و دعوه أولا- بنائب القمص Comg- Vice, Vicomte ثم انتشرت هذه الرتبة فى أماكن شتى فى النصف الثانى من ذلك القرن و عرف أصحابها بالقناصل و أطلق أولا على الإيطاليين، و بعد زمن طويل صار للفرنسيس قنصل.

التجارة فى القرون الحديثة:

كانت حلب فى هذا الدور من أول المدن التى اتجرت مع الطليان،

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۴۷

و قد أقام لهم البنادقة فيها منذ عهد المماليك قناصل من الدرجة الأولى و كان البنادقة يتاجرون من مليونين إلى ثلاثة ملايين دوكا مع حلب كل سنة، و قد احتفظت الشهباء بمركزها التجارى المهم فكانت نقطة الاتصال بين الخليج الفارسى و البحر المتوسط. ثم انتشر فيها الفرنسيون و لكنهم اضطروا أن يغادروها للاضطرابات السياسية إلى أنطاكية، كما اضطر تجار الإفرنج فى دمشق إلى مبارحتها إلى صيدا و بيروت و عكا. و فى سنة (۱۵۰۷ م) عقدت الدولة العثمانية مع فرنسا معاهدة تجارية فكانت سفن فرنسا تأتى إلى موانى الشام و لا سيما طرابلس و صيدا و تأخذ منها حاصلات و تجلب إليها بضائع.

و كثر عديد الإفرنج فى حلب أكثر من دمشق، لأنها أقرب منفذ لاتصال الشرق بالغرب، فكان تجارهم يأتونها من ثغر السويدية يتجرون مع أهلها و يقايضون محصولاتهم بمحصولاتها و محصولات الشرق، و لا- سيما الهند و فارس و العراق، و كانت فرنسا و البندقية أول الممالك الأوربية التى اتجرت مع حلب و عقدت معها الصلات التجارية و أقامت المكاتب، ثم جاء الإنكليز فى القرن السادس عشر و تلاهم الهولانديون، و قد تناسل بعض الإفرنج فى حلب و ارتاشوا و تأثلوا و عدوا كأنهم من أهلها، و كان البنادقة يتجرون بالبهار يأخذونه من حلب بمقادير وافرة كما كانوا يجلبون منها الشب و القطن.

و كان فى حلب وكلاء لتجار الهند و بلاد الكرج و الفرس و الأرمن و غيرهم، و للبنادقة بين أمم البحر المتوسط موقع ممتاز، و لئن أفقد حلب فتح الطريق البحرى إلى الهند الشرقية بعض مكانتها التجارية، فقد كانت فى القرنين السابع عشر و الثامن عشر زاهرة بتجارتها. و كان فى حلب سنة (۱۷۷۵) ثمانون وكالة تجارية لبيوت تجارية أوربية، و أكثر اعتماد الأوربيين على سماسرة من اليهود يتجرون بالصادر و الوارد، و كثر تجار الإنكليز فيها منذ عهد ملكهم جاك الأول (۱۶۱۳- ۱۶۲۵).

و نما عدد تجار الأوربيين فى عكا و صيدا و بيروت و لا سيما فى هذا الثغر، فأصبح على ما روى لامنس فى القرن الخامس عشر و لا سيما بعد عهد تيمورلنك ملتقى شعوب البحر المتوسط. و كنت تشاهد فى بيروت مزيجا يصعب وصفه

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۴۸

من العمائم و الطرابيش و الكوفيات الحرير و أكسية و برانس و قفاطين. و فى القرن الثامن عشر اقترح تجار الفرنج أن تعمر ميناء اللاذقية مبينين للحكومة حسن مستقبلها، فلم يقبل المتصرف هذا الاقتراح و قال: ربما أكون غدا فى جدة فلماذا أتخلى عن الموجود و أتطلب مستقبلا مجهولا.

و ممن كان لهم اليد الطولى فى تنشيط التجارة فى هذه الديار فخر الدين المعنى الثانى فى أوائل القرن الحادى عشر للهجرة. و كثيرا ما كانت مراكب الإفرنج تأتى لمشترى الحنطة إلى موانى عكا و صور و الرملة و طنطورة و ربما بلغت السفن الصغيرة (البرش) الراسية فى عكا نحو ۱۵۰. و لقد توسع فخر الدين فى الامتيازات الأجنبية فسمح للفرنسيين أن يبنوا خانا عظيما فى صيدا، و لأهل فلورنسة أن

يفتحوا قنصلية، فأصبحت صيدا و ميناؤها أوائل القرن السابع عشر أهمّ موانى الشام.

و فى عصر فخر الدين كان يحمل من دمشق إلى الديار المصرية عشرة قافات كما قال صاحب محاسن الشام: و هى قصب الذهب. قبع. قرضية.

قرطاس. قوس. قبقاب. قراصيا. قمر الدين. قريشة. قنبريس. و نقل الغزى عن معجم التجارة العام المطبوع سنة ۱۷۲۳ (۱۱۳۶) أن حلب لا تضاهيها بلد بتجارها الذين يقصدونها من أقطار الدنيا، فإن خاناتها التى لا تقل عن أربعين خانا لا تزال غاصة بالهنود و الفرس و الترك و الفرنج و غيرهم بحيث لا تقوم بكفايتهم. قال: و من خصائصها التجارية وجود الحمام الذى يأتى تجارها بالأخبار من إسكندرونة بثلاث ساعات بسبب تربيته بحلب و حمله إلى إسكندرونة بأقفاص، فإذا طرأ خبر علقت البطاقة فى رقبة الطير و سرح، فيصير إلى حلب طالبا لفراخه.

و فى كتاب «الشام على عهد محمد على»: ما زالت حلب و دمشق المركزين العظيمين للتجارة فى الشام، و ما برحت حيفا و بيروت و طرابلس و أنطاكية و إسكندرونة هى الموانى التى يكثر اختلاف السفن الأوربية إليها، و هى المحطات الرئيسة لتجارة الشرق، فتأتى قوافل بغداد إلى دمشق و حلب حاملة من العجم التنباك و السجاد، و من غيرها اللؤلؤ و الأحجار الكريمة، و من الهند الطيب و العقاقير و الأفاويه، و فى عودتها تحمل جوخا و ثيابا من

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۴۹

عمل أوربة، و ألبسة حريرية من صنع دمشق و حلب، و بضائع منوعة و مصنوعات خشبية و صدفية و نحاسية، و بسوء السياسة المخالفة لما هو جار فى أوربا، إذ كان ينشط التجار الغرباء دون التجار الوطنيين، أصبحت معظم التجارة العربية فى الشام تجرى تحت اسم أوربى. و قبل أن يفتح إبراهيم باشا الشام كان التجار الوطنيون يدفعون إلى الإفرنج ثلاثة و نصفا أو أربعة فى المئة ليتأتى لهم أن يتجروا بأسمائهم، لأن الإفرنج لا يدفعون على الأكثر زيادة على أربعة فى المئة من كل ما يطلب من المكوس و الضرائب، على حين كانت العرب خاضعة لاداء ۱۸ أو ۲۰ و ربما ۲۱ فى المئة. و قال:

إن عمال إبراهيم باشا كانوا يتجرون و يحتكرون أصنافا من التجارة.

و لما قلّ الأمن فى البحر على عهد نابليون و بسوء الإدارة العثمانية و بثورات الإنكشارية سنة (۱۸۱۴ و ۱۸۲۶) و بزلزال سنة (۱۸۲۲ و ۲۷ و ۳۲) و وباء سنة (۱۸۳۲) و طاعون سنة (۱۸۳۷) خربت تجارة حلب و دمشق، و كثرت البضائع الإنكليزية التى كانت تباع بأثمان بخسة تجىء من طريق ليفورنا فى إيطاليا. و كانت الحاصلات الخام التى تعود إلى الشام معمولة، سبب خراب هذا القطر، مثل حرائر ليون التى أخذت تسحق حرائر دمشق و حلب، و بمنافسة حرائر ليون التى تقلد حرائر دمشق أحسن تقليد و تباع بأثمان بخسة، قضى على صنائع دمشق بعد أن كانت تعمل أكثر من ۴۰۰ ألف قطعة من الحرير و الثياب الحريرية الممزوجة بالقطن. و كانت تجارة الحاصلات التى تبتاع بالسلف و السلم، خراب الفلاح الشامى البائس، و كان كثير من تجار الأوربيين يستحسنون هذا النوع من التجارة، و منهم من كان يمقتها و قد يربح المتجر بها خمسة و عشرين فى المئة، و يعدها صاحب الذمة غبنا، و كان يصل إلى بيروت كل سنة ۱۳۴۰ سفينة تحمل ۷۸۴۸ طنا و يخرج ۸۰۵ سفن تحمل ۵۰۰۵ يخرج منها القطن و الحرير و التبغ و الإسفنج و الفوّة و الزيت و الصابون بمقدار وافر و السمسم و الكمون و العفص. و تجارة الواردات تبلغ ۶۷۰، ۳۶۶، ۴۴ قرشا منها نحو ۱۵ مليونا من مصر و تجارة الصادرات ۲۷۰، ۸۷۴، ۲۶ منها نحو ۱۳ مليونا لمصر، فكانت الشام تخسر مسانهة نحو ۱۸ مليون قرش تسدها سبائك ذهب أو نقودا، و هذا على عهد الحكومة

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۵۰

المصرية. و بعض هذه الصادرات قد بطل إصداره اليوم من الشام.

و لقد تضررت حلب و دمشق بفتح البرتقاليين طريق رأس الرجاء الصالح فى جنوبى إفريقية سنة (۱۴۹۷ م)، و كان أول من اكتشفه

من البيض الفينيقيون نحو القرن السابع قبل المسيح، و تأذت تجارة حلب و دمشق بفتح الفرنسيين ترعة السويس سنة (۱۸۶۸)، و كان من نكبة الشام بفتح هذه الترعة أن انتقل كثير من تجار دمشق و حلب إلى بيروت و الإسكندرية و القاهرة و طنطا و إزمير و سلانيك و الإستانة و مانشستر و مارسيليا و ميلانو و غيرها من المدن الأوربية و الإفريقية و الآسياوية، و قد تحولت تجارة الصين و الهند إلى البحر، و بطل عمل القوافل التى كانت تغدو و تروح بين الشرق الأدنى و الأقصى، و قل عدد الذين يمرون بدمشق من الروم و غربى آسيا للذهاب إلى الحجاز، و أصبح معظمهم يركب البحر إلى البقاع الطاهرة تخفيفا من عناء الأسفار فى القفار و انحصرت التجارة الداخلية فى حدود ضيقة، و أصبحت لا تتعدى حدّ المستهلكات، و صار لها مواسم قلما تروج فى غيرها، و لما انتظم سير السفن البخارية، و كثر اختلافها إلى موانى الشام، و كانت رحلاتها من قبل متقطعة مختلفة المواعيد، تجرأ الناس على الاتجار و تضاعفت الصلات التجارية بين الشام و الأصقاع الإفرنجية.

يقول بعض الكتاب: إن التجارة البحرية لم تنقطع فى البحر الرومى فى القرن الأول للإسلام إلا بما كان يبدو من حركة الأسطول اليونانى، و لكن تجارة الشام أصيبت بالتأخر مع أوربا لما أصبح للشام منافس كالبصرة التى كانت لقربها من الهند أكثر منافسة للشام.

و ظهرت ظاهرة مهمة فى الشام منذ نحو ثمانين سنة أثرت فيه تأثيرا كبيرا و ذلك أن جماعة من تجار بيت لحم فى فلسطين حملوا مصنوعاتهم الخشبية و الصدفية إلى معرض فلادلفيا سنة (۱۸۷۶ م) فربحوا كثيرا و لما عادوا كثر المقتفون لآثارهم من التجار و غيرهم من أهل الشام و بدأ الناس بالهجرة طلبا للربح، و كانت الهجرة مقصورة أولا على سكان الجبال من لبنان و عامل و اللكام ثم تعدت إلى سكان السهول، و كان المستأثر بها سكان القرى فتعدت إلى سكان المدن، و كان التجار على الأغلب مسيحيين فأصبحوا بعد من

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۵۱

جميع أهل الأديان من الشاميين، و لم يلبث نطاق الهجرة أن توسع، و ما نراه فى اللبنانين الشرقى و الغربى، و ما إليهما من الجبال من الدور و القصور عمر أكثره بدراهم أميركا، و يقدّر اليوم المهاجرون إلى أميركا الشمالية و الجنوبية و اوستراليا و غيرها من البلاد التى ترحب بالأيدى العاملة بزهاء سبعمائة ألف مهاجر شامى.

و قد ساعد على دوام الهجرة اختلال المجارى الاقتصادية فى السلطنة العثمانية، ثم استرسال الحكومات العثمانية ثم المنتدبة فى إهمال الحركة الاقتصادية و إلقاء الحبل على الغارب. و قد كان عمال العثمانيين يودون لو هاجر جميع المسيحيين من الشام، لينجوا من دعوى أوربا فى حماية الأقلية و لكن بهجرتهم ضعفت التجارة، و كيف تنجح التجارة فى أمة و الحكام هم التجار، و قد رأينا من ذلك أمثلة خلال الحرب العامة، فكان عمال الأتراك لا فرق بين الكبير و الصغير منهم يحتكرون معظم الحاجيات دع الكماليات، فكنت تراهم كلهم تجارا يؤخرون الأرزاق عن الجند فى ساحة الحرب و يقطعون مواد الحياة عن الرعية، حتى يشحنوا بضائعهم و يغنموا فرصة ارتفاع أسعارها، فاغتنى بذلك كثير من عمالهم ثم افتقروا بعد حين.

على أن بعض البلدان استفادت كثيرا من الحرب العامة و معظم المدن التى استفادت حلب و دمشق و بيروت و القدس. قال الغزى: إن التجارة فى حلب آخذة بالتقدم منذ ثلاثين سنة و لذا كثر عدد التجار زيادة عظيمة بحيث بلغ ثلاثة أضعاف ما كانوا عليه قبل هذه المدة، و كان معظم هذه الزيادة فى أيام الحرب العالمية فإن أرباح التجارة التى كانت فى غضونها جرّت العدد الكبير من ذوى الصنائع اليدوية من صنائعهم إلى الاسترزاق بالتجارة فنجحوا و ربحوا أرباحا طائلة، و نشأ من بينهم أصحاب ثروة تستحق الذكر. إلى أن قال: و فى سنة (۱۳۴۱) بدأ دولاب التجارة يدور ببطء فأخذت الثروة العامة فى حلب بالانحطاط لإغلاق الأناضول أبوابه فى وجه تجارة البضائع المعدودة من الكماليات و غلاء أجور النقل فى السكة الحديدية و تلاعب الصيارفة و المحتكرين بالأوراق النقدية و النقود الذهبية إلى غير ذلك من الأسباب.

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۵۲

و من أعظم الفوائد التى نتجت للشاميين من تعلم اللغات الأجنبية كالفرنسية و الإنكليزية، أن كان من هؤلاء المتعلمين و أكثرهم من

غير المسلمين عمال لتجارة الواردات من الغرب. و استأثر المسلمون بتجارة الصادرات فكان منهم تجار شاميون فى الإسكندرية و طنطا و القاهرة و السودان و الإستانة و إزمير، و كل بلد فى الأرض مهما بعدت الشقة إليه ترى فيه تجارا شاميين، و أنجح تجارهم فى مصر و الأميركتين و أوستراليا. و لنا تجار فى العراق و الحجاز و فارس و الهند و يابان و جنوبى إفريقية و أواسطها على نحو ما وصفنا شاعر النيل حافظ إبراهيم:

و رجال الشام فى كرة الأرض يبارون فى المسير الغماما

ركبوا البحر جاوزوا القطب فاتوا موقع النيرين خاضوا الظلاما

يمتطون الخطوب فى طلب العيش و يبرون للنضال سهاما

و من أهم المواسم التى كانت فى فصل مخصوص من السنة تدب فيه روح الحركة فى التجارة موسم السياح، فكان سياح الغرب يأتون أوائل الربيع لزيارة الأماكن المقدسة و المصانع التاريخية فى فلسطين و بعلبك و تدمر و دمشق و غيرها و يقدرون بخمسة آلاف سائح كل سنة على الأكثر إلى المدن الوسطى و الشمالية و بأكثر من ذلك إلى فلسطين فقط، و الموسم الآخر موسم حجاج إفريقية و آسيا و أوربا و كانوا يقدرون بخمسين ألف حاج، و الفضل فى ذلك يرجع لسهولة المواصلات البرية فى السكة الحجازية، و لرخص أجور البواخر فى البحر. و موسم الحج بطل بالحرب فنزل معدل من يزورون الشام و يتجرون و يبتاعون. أما موسم فلسطين فإن كثيرا من تجارها أصبح رزقهم موقوفا على ما يربحونه فى موسم الزوار فى القدس و بيت لحم و الخليل و الناصرة و غيرها، و بدأ الشرق العربى يربح كثيرا من السياح الذين يختلفون إلى ذاك الصقع لزيارة جرش و عمان و البتراء و قصر المشتى و غيرها، كما تربح سورية و لبنان من القاصدين إلى زيارة بعلبك و تدمر و غيرهما، و صار لموسم الاصطياف فى لبنان الغربى و الشرقى مكانة اقتصادية ذات شأن كبير فى تنشيط الصناعة و التجارة. و متى انتشر الأمن فى القطر، و كثرت الخطوط الحديدية فى البر، و السفن التجارية فى البحر، و حمت الحكومة التجارة بقوانينها

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۵۳

و أحكامها العادلة، و معاهداتها مع الأمم المجاورة، انتبه التجار إلى التجدد فى متاجرهم. و لا نعد تاجرا من يحرق مخزنه أو ما فيه ليربح ضمانه من الشركة الضامنة، أو يتلكأ فى أداء الذمم التى عليه، أو يضارب فى الأسواق فيؤذى الفقير. أو يعامل صاحب المعمل فى الغرب بقليل من الذمة فيتلاعب فى الأسعار و الصوافى، فإن هذا مما يؤخر الصادر عنا و الوارد علينا، و فى كل ذلك ما يزيد الغبن و يورث الخسارة فى العاجلة و الآجلة لا محالة.

و لقد ثبت فى العهد الأخير، و خصوصا لما أخذ المسلمون يجارون مواطنيهم المسيحيين فى تعلم اللغات الغربية، و يتقنون أصول التجارة على أساليب أمم الحضارة، و يتعرفون إلى أوضاعهم الجديدة فى استثمار أموالهم فى مصارف خاصة بهم، أن الغربيين يتعذر عليهم أن يتوسعوا بعد فى الاتجار فى القطر، و فتح بيوت تجارية على المثال الذى كان لهم وحدهم فى القرن الماضى، و قطع أرزاق الشاميين فى عقر دارهم. ذلك لأن التاجر الوطنى أقل من التاجر الغربى فى مطالبه، يكتفى بالربح القليل، و يصبر فى الأزمات، و هو فى بلده يعرف ما يصلح له و يروج فيه، و نفقاته إجمالا أقل من نفقات الغريب.

و إذا تساوى الوطنى و الدخيل من كل وجه، فالوطنى يؤثر معاملة مواطنه لا محالة.

و إذا جارى التاجر العربىّ التاجر الغربىّ أو كاد، تجلت فى ابن الشام أخلاق التجارة، و النفوذ فى قاعدة العرض و الطلب، و بدا فى هذا الميدان ذاك الشرف المغيب الذى كان كامنا فى نفسه، و ورثه مع الدم المتسلسل فيه من آبائه الأقدمين، عربا كانوا أو روما أو فينيقيين، و بذلك أصبح الرجاء معقودا بأن يستأثر الشاميون بتجارة ديارهم. فإن تعلموا باختلاطهم بالأمم الحية ما ينقصهم من ضبط و نظام، و ساعدهم على ذلك قلة من يأتى من الغرب من أرباب الطبقات الأولى فى التجارة، و كان التاجر المتوسط الحال بماله و معرفته منهم أقل حظا ممن يماثله من الشاميين فى أسواق المتاجرات، و إذ كان من البعيد على النوابغ من كل صنف فى الغرب أن

يغشوا بلادنا- كان فى ذلك كله النفع العظيم لنا فى تجارتنا، و متى حللنا روح الشامى و ما انطوى عليه من مراعاة الشرف و الاحتفاظ بالثقة، و البعد عن التدليس

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۵۴

و المؤالسة، و إرادة النصح فى الجملة، كان التاجر كل التاجر، الذاهب فى الأرض بجماع المفاخر، و باستقامة تاجرنا فى معاملته، يدفع عن وطنه كثيرا من الغوائل الاجتماعية، و لا يهنأ العيش و يطيب، إلا إذا قلّ توافد الغريب من الجنس الذى قال فيه حافظ:

يقتّلنا بلا قودو لا دية و لا رهب

و يمشى نحو رايتهفتحميه من العطب

التجارة و الاقتصاديات فى العهد الحديث:

نشبت الحرب العامة سنة (۱۹۱۴) و لم تكن الشام على استعداد للدخول فى غمارها، و لم تأخذ الأهبة الكافية لمقاومة طوارئها، و ما لبثت الدولة العثمانية و البلاد الشامية التابعة لها أن دخلت فى صفوف المحاربين إلى جانب الدولة الألمانية و حلفائها، فحصرت موانى الشام، و بدأت أسعار البضائع ترتفع تدريجيا، و ذلك فى أصناف الملبوسات كأنواع منسوجات القطن و الصوف على اختلاف أنواعها، أو فى المأكولات كأنواع السكر و القهوة و الأرز، أو فى سائر الحاجيات و الكماليات كالبترول (الكاز) و الكحول (السبيرتو) و أنواع المواد القرطاسية و الزجاجية و الأصباغ و المواد الكيمياوية على اختلاف أنواعها، و شعر الناس بالحاجة إلى الاقتصاد و التفكر فى استجلاب هذه الأصناف من البلاد المجاورة بقدر الإمكان.

و قد اشتدت الأزمة الاقتصادية بفقدان الأيدى العاملة أيضا من المدن و القرى، بسبب النفير العام و التجنيد فى جميع أصقاع الشام، و كان من تخلصوا من التجنيد الإجبارى هم الذين لم يتدربوا على التعليم العسكرى فدفعوا بدلات نقدية مرات خلال أعوام الحرب. و كانت هذه البدلات تكلف مبالغ طائلة فى السنين الأخيرة، و أعلنت الدولة العثمانية بعد دخولها الحرب (قانون تأجيل الديون) بقواعد مخصوصة أقرتها.

و لم يلبث الضيق أن عمّ و النقد أن قلّ و خصوصا بعد أن وضعت السلطة العسكرية يدها على جميع وسائط النقل فى البلاد مثل السكك الحديدية و دواب

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۵۵

النقل و المركبات و السيارات، فكانت أسعار الحاجيات تختلف اختلافا بينا فى بلاد الشام القريب بعضها من الآخر، و ذلك بالنسبة للتشدد أو التساهل الذى كانت تبديه الإدارة العسكرية فى استخدام أسباب نقل البضائع.

انقضت السنة الأولى للحرب فأصبحت دمشق مركزا للجيش الرابع الزاحف على ترعة السويس. و أنشأ يعقد البيوع العظيمة و الالتزامات الكبيرة سد لحاجات الجيش المذكور، فبدأت هذه الأزمة الشديدة بالانفراج، و أخذت إدارة الجيش تتساهل باستخدام المجندين فى إدارات المتعهدين و الملتزمين، و نشطت الحركة التجارية و الصناعية فى الشام. و لا ينكر أن الجيش الرابع صرف مبالغ طائلة فى أسواق التجارة لضمان حاجاته الكثيرة التى لم يتمكن من تأمينها بطرق الإكراه أو بواسطة الضرائب الحربية التى رأى أنها عقيمة لا تفى بالحاجة، و بعدئذ فكر بعض التجار باستجلاب بعض الحاجات الضرورية التى غلت أسعارها و عزّ وجودها من بلاد نجد التى كانت تستورد بضائعها من الهند و فارس على أيسر وجه و طمأنينة، لأن أمير نجد عبد العزيز ابن سعود كان مواليا لإنكلترا لا يجد ضيقا و لا رهقا فى استجلاب البضائع و مواد الغذاء على اختلاف أنواعها.

و لقد كانت هذه الطريقة من أهم الوسائط لسد حاجات البلاد و الجيش، و لإيجاد حركة تجارية جيدة كانت تدرّ ذهبا و هاجا على المتاجرين و المستوردين، كما أن كثيرا من التجار اتخذوا وسائط عديدة لاستجلاب بعض البضائع الألمانية و النمسوية بواسطة رجال

الجيش و استخدام وسائطهم لنقل هذه البضائع بالاتفاق معهم، و بتبادل المنفعة بينهم، و بذلك انفرجت الأزمة الاقتصادية التى بدأت فى السنتين الأوليين من الحرب، و اغتنى كثير من التجار و العاملين و الوسطاء من رجال الإدارة و الجندية باستخدام هذه الوسائط فى النقل و نقل أصناف التجارة، و البلاد محصورة لم يرد إليها شيء قط من طرقها البحرية العديدة. و كثرت النقود الذهبية فى التعامل بما أنفق من إدارات الجيش، و ما ورد البلاد من طرق البر من البضائع، و ما كانت بريطانيا العظمى تنفقه فى أنحاء البلاد المجاورة عن سعة من الذهب الوهاج لتأييد الثورة العربية، حتى أصبحت البلاد فى أواخر سنى الحرب على أحسن حالات اليسر و الرخاء.

خطط الشام، ج۴، ص: ۲۵۶

فارتفعت أسعار العقارات و المزارع، و شعر الناس بكثرة النقد الذهب فى أيديهم حتى كان المشترى لا يجد من يبيع عقارا أو أرضا إلا بثمن فاحش، إلى أن دخلت الجيوش الإنكليزية و العربية هذا القطر تحمل معها الذهب و تنفقه بلا حساب، و يقدر ما أنفقه الجيش الإنكليزى فى سنة (۱۹۱۹) و الأشهر الأولى من سنة (۱۹۲۰) فى أرض الشام بما يقارب الثلاثة ملايين من الجنيهات المصرية.

الورق النقدى و العوامل فى تدنى الاقتصاديات:

و حدث خلال الحرب أن اتجر كثير من الماليين بأوراق النقد الدولى على اختلاف أنواعه، و أصبح بعضهم يستورده من طريق ألمانيا و النمسا و سويسرا إلى الإستانة، و منها توزع فى أنحاء بلاد العرب مثل الكورون النمساوى و المارك الألمانى و الشلن الإنكليزى و الفرنك الفرنساوى و الروبل الروسى و أوراق النقد التركية و الأسهم اليابانية و العقارية المصرية و الأرجنتينية على اختلاف أنواعها، و أصبحت تباع بقيم تنحط أحيانا عن قيمتها الحقيقية ۲۵ إلى ۵۰ فى المئة. و تدنى سعر الروبل الروسى إلى ۱۰ و ۱۵ فى المئة و كذلك المارك و الكرون، فأقبل عدد كبير من التجار و أرباب الأملاك حتى و النساء على مقتناها و ذلك على أمل أن تعود إلى أسعارها الأولى بعد أن تضع الحرب العامة أوزارها. و يقدر الخبيرون أن الشام أدت قيمة ما ادخرته من أوراق النقد هذه ما يربو على خمسة ملايين ليرة عثمانية ذهبا، كان القوم يأمل بيعها بما يقارب أسعارها الأولى، و بذلك يربحون ربحا عظيما من أيسر طريق.

ثم أعلنت الهدنة عام (۱۹۱۸) و بدأ تجار الشام يستوردون البضائع المنوعة التى اشتدت حاجتها إليها من البلاد المصرية أولا ثم عقدوا المبيعات المختلفة من أوربا بأسعار عالية، و قد اضطر أرباب المصانع و المعامل إلى رفع أسعار بضائعهم لعوامل عديدة، و منها قلة الأيدى العاملة بعد الحرب العامة، و غلاء المواد الأولية للصناعات المنوعة، و ارتفاع أسعار الفحم و أجور المواصلات، و راح الكثيرون بالنظر للحاجة الماسة إلى عقد مبيعات عظيمة من أنواع البضائع المنسوجة و المغزولة على كثرة أنواعها، و من الأصناف

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة)

تحتَ عنايـة سـماحة آيـة الله الحـاجّ السيّد حسن الإمـاميّ – دامَ عِزّهُ – و مـع مساعَـدَةِ جمـعٍ من خِرّيجى الحـوزات العلميّـة و طلاـب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشـّباب و عموم النـاس إلى التّحَرّى الأـدَقّ للمسائـل الدّينيّـة، تخليف المطـالب النّافعـة – مكـانَ البَلاـتيثِ المبتذلـة أو الرّديئـة – فى المحـاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسـيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّـلام – بباعث نشـر المعارف، خـدمات للمحققين و الطّلاّب، توسـعة ثقافـة القراءة و إغناء أوقات فراغـة هُواةِ برامِـج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشـّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشـرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّـه يُمكِن تسـريعُ إبراز المَرافِق و التسـهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جـهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثـّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِع اُخـَرَ

ه) إنتاج المُنتـَجات العرضيّة، الخـَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹